رجب أبو سرية

(رجب عطا الطيب)

الأعمال الكاملة
مقالات ثقافية ج1

اتحاد الكتاب مقالات الأيام
مختلفات أحوال البلاد
مفتتحات الدار فلسطين الديمقراطية

الأعمال الكاملة: مقالات ثقافية ج1
رجب أبو سرية
مقالات ثقافية
الطبعة الأولى 2022
ISBN: 978-9950-414-67-9

جميع الحقوق محفوظة

دار الكلمة للنشر والتوزيع
غزة ـ فلسطين
جوال 00972-0598877444
kalemabook@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل، دون إذن خطي مسبق من الكاتب.

رجب أبو سرية

(رجب عطا الطيب)

الأعمال الكاملة
مقالات ثقافية ج1

اتحاد الكتاب
فاعلية غائبة

قبل ثلاثة عقودٍ ونيّف، رفع الكتاب والصحفيون الفلسطينيون شعارهم الرئيسي، الذي شكل عنواناً لاتحادهم، الذي كانوا يعقدون مؤتمره التأسيسي على التو:

بالدم نكتب لفلسطين. هذا الشعار ظل مثاراً لجدلٍ ما، لم يقف حائلاً بين الاتحاد وفاعليته التي انعكست ليس على الكتاب من أعضائه فرادى ومجتمعين وحسب، ولكن على مجمل العلاقة بين الكتابة والواقع، بحيث امتازت الكتابة الفلسطينية على مدار العقود التي تلت بالفاعلية والتأثير، فيما شكل الاتحاد نفسه أحد أهم أدوات العمل الوطني.

ليس أدّل على ذلك حضور الاتحاد على المستوى الإقليمي، حيث كان واحداً من أهم الاتحادات العربية على الصعيدين النقابي/ الوطني والإبداعي، وكان حاضنة رعت جيلاً من الكتاب الفلسطينيين الذين أثروا الثقافة الفلسطينية، وما زالوا حتى الآن واللحظة، وخير دليل على المكانة الوطنية المرموقة التي كان يتمتع بها الاتحاد العام، ليس تمثيله مع أشقائه من اتحادات الطلاب، المعلمين، والفنانين في المجلس الوطني، وليس انخراط عددٍ مهم من قادة العمل الوطني، من الصف الأول في الفصائل في عضويته وحسب، ولكن دوره في توحيد م.ت.ف، بعد أن تعرضت للانشقاق بعد الخروج من بيروت.

كانت وحدة الاتحاد العام مطلع العام 87 مدخلاً لوحدة المنظمة في العام نفسه، وظل كذلك حارساً على قيم الإجماع الوطني ومعبراً عن المشروع الوطني، إلى أن كانت نقلة أوسلو وبدل أن تشكل محطة الخلاف السياسي مناسبة للمراجعة على مستوى الفعل الفلسطيني، فإن الاتحاد العام، شيئاً فشيئاً، أخذ في التراجع، إن كان على صعيد فعل التأثير في المحيط، أو على الصعيد الذاتي.

لم يكن كافياً بالطبع الاتكاء على الإطار الذي يجمع الكتاب في الداخل، والذي كان بدوره قد تشكل في سياق المواجهة مع الاحتلال، ذلك أن التكامل في أداء مؤسستي الثقافة الفلسطينية الأهم، دائرة الثقافة واتحاد الكتاب، حين كانت السمة الأساسية الجامعة هي التحرر الوطني، تحولت إلى شيء آخر على طريق الشروع في بناء الدولة.

معظم مفردات الطاقة الذاتية للاتحادات تحولت إلى العمل في المؤسسة الرسمية، عبر وزارات وأجهزة السلطة فيما ركن اتحاد الكتاب إلى المؤسسة الرسمية، على أمل

أن تستمر بالدور ذاته الذي طالما قامت به، حين كان كتاب الداخل يواجهون الاحتلال في ظروفٍ أخرى.

بالنتيجة يقدم الاتحاد العام الآن أسوأ قدوة، من حيث غياب الحياة الديمقراطية الداخلية، التي لم تشهد انتخابات عامة منذ عام 87، والأهم غياب فاعلية كافة الاتحادات العامة، بأماناتها العامة عن التأثير في القطاعات المجتمعية التي من المفترض أنها تشكلت لتعمل في صفوفها. وتفعيل هذه الاتحادات، ومن ضمنها وربما في مقدمتها الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ليس مطلباً عربياً وحسب، نتذكره على أبواب كل مؤتمر عام لاتحاد الأدباء العرب وحسب، بل هو ضرورة داخلية، قد تكون واحدة من أهم أدوات الإنقاذ الوطني عند محاولة الخروج من المأزق الراهن.

مفتتح مجلة الدار، السنة الأولي العدد الرابع السبت 20 أيلول سبتمبر 2003

ظروف النشأة وواقع الحال

لم تكن صدفة أن يتشكل الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين في العام 1971م بعد بضع سنوات على انطلاق الثورة الفلسطينية المعاصرة، وبعد تحقيق انتصارها المدوّي في الكرامة العام 1968م، وذلك رغم ان بعض الكتاب قد بشروا بالثورة قبل ان يعلن عنها في أوائل الستينيات، ليتحول اطارهم العام بذلك إلى إطار مفتون بقادة الثورة، وتنشأ ثقافتهم على أساس انهم كتاب ثورة.

وقد تأكدت هذه الثقافة المؤطرة في الاتحاد العام، من خلال اعلانه شعاره الناظم "بالدم نكتب لفلسطين" وجملة الشعارات من نمط لا صوت يعلو فوق صوت الرصاص، ليتحول اعضاؤه الفدائيون اصلاً، إلى كتاب مفتونين بالمقاتلين، يتبعون خطاهم في كتاباتهم وفي مواقفهم.

وهكذا لم ينتظم الاتحاد عملياً على أساس جمع عضويته باعتبارهم مجرد كتاب، ولكن مقاتلين أيضاً ومناضلين فصائليين، وبذلك كان طبيعياً ان تتحول هيئاته القيادية إلى ائتلاف فصائلي، وقد تعزز ذلك كونه كان يجمع الكتاب الفلسطينيين المحيطين بالتنظيمات في الخارج وانعدم بذلك أي بعد نقابي أو اجتماعي للاتحاد. كما شأن

الاتحادات الأخرى، وكذلك التنظيمات التي كانت قواعدها الحقيقية هي قواعد عسكرية، بعيدة عن الاتصال بالمجمعات أو حتى التجمعات الفلسطينية.

وكان خطاب الاتحاد كما كتابه، الثقافي، هو خطاب الثورة المسلحة، التي اعتبرت الكفاح المسلح أرقى اشكال النضال.

بعد ذلك بسنوات تشكل في الداخل اتحاد كتاب فلسطين، بمبادرة من عدد من المناضلين الذين هم أكثر تماساً مع الشعب الفلسطيني من اشقائهم في الخارج، لكن هذا الاتحاد أيضاً وبسبب ظروف الاحتلال، ما كان بمقدوره أن يتجاوز هذه الحالة، ليتأسس على قاعدة انه أحد أدوات النضال ضد الاحتلال، الذي كان يستمد حضوره من دعم المنظمة في الخارج، وكان اعضاؤه المؤسسون مناضلين قبل اي شيء آخر.

وفي تتبع مسيرة الاتحاد العام، وهو الإطار الذي شكّل العنوان، وقام على أساس تحقيق مهمة تثبيت الهوية الفلسطينية، كما هو حال م.ت.ف ذلك لأن تشكيله منع الكتاب الفلسطينيين في الخارج من الانطواء في أطر الاتحادات العربية، كما كان حال الكتاب الفلسطينيين في الأردن وحتى في سورية وسواهما، فإن هذا الاتحاد العام، كان يشبه في بنيته التنظيم الفلسطيني السياسي، استناداً إلى افتتان الثقافي الفلسطيني أولاً بالمناضل السياسي، وثانياً اتساقاً مع الثقافة التنظيمية العامة.

وكانت بالفعل مؤتمرات هذا الاتحاد تمثل آخر بروفة لعقد المؤتمر الوطني للمنظمة، ويعتبر أهم خطوط استشعارها، بحيث تعبر محطاته التوحيدية عن وجهة توحيدية في المنظمة والعكس صحيح. ولم يكن عبثاً بذلك أن يطلق في الثقافة الفلسطينية العامة على الاتحاد وعلى مجمل الاتحادات الأخرى توصيف التنظيم والتنظيمات الشعبية.

التحول الأساس الذي تعرض له النظام السياسي الفلسطيني، جاء بعد أوسلو، ليس من زاوية الافتراق السياسي الذي شق عملياً المنظمة وفارق بين الفصائل، ولكن من زاوية إنشاء أول سلطة فلسطينية، صارت مسؤولة عن تنظيم حياة الفلسطينيين في داخل الوطن بشكل مباشر، وباتت على طريق أن تكون مشروع الدولة الفلسطينية المقبلة.

لم يكن بمقدور الاتحاد العام أن يتساوق مع هذا التحول، نظراً لأن استناده إلى قيادة أمره للسياسي، جعل هذا التحول مرهوناً بتوافق لم يعد قائماً بين مجموع الفصائل، كذلك جعله مرهوناً بتحوّل آخر لهذه الفصائل على طريق أن تجمع على الأقل بين كونها تنظيمات كفاحية (تحرر وطني) وأحزاباً سياسية ذات برامج تحقق أهدافاً مجتمعية مباشرة، ومحددة.

وحين لا يكون بمقدور الأطر القائمة مجاراة التحول في الواقع، فإن التآكل يكون مصيرها، وهذا ما أظهرته تجربة الاتحاد العام خلال السنوات الماضية، والتي تحوّل خلالها إلى جثة هامدة، لم يحقق من خلالها أي حضور يذكر. لا على الصعيد الداخلي ولا الخارجي، وتكفي الإشارة إلى أن أمانته العامة، وهي أشبه باللجنة التنفيذية، لم تعقد اجتماعاتها طوال فترة نشوء السلطة، أي أكثر من أحد عشر عاماً، مع ما تبع ذلك من انفضاض للعضوية، ومن ذوبان الإطار أو الجسم التنظيمي، وحتى إن آخر عنوان لهذا الاتحاد، أي الأمانة العامة، قد تحولت بأفرادها إلى موظفين كبار (مديرين عامين، وكلاء وزارات وحتى وزراء)، تماماً كما حدث مع الأفراد القياديين في الفصائل والتنظيمات السياسية، ولا أحد أفضل من أحد.

وبعد أن ظهر غسيل هذا الاتحاد في الإطار العربي، اتحاد الكتاب والأدباء العرب، بات هذا الإطار أمام استحقاق حاسم، لكنه لم يجتزه لاعتبارات عديدة، أهمها عدم قدرته على التحول إلى اتحاد كتاب يتساوق مع التحول الأهم، الذي أحاط بالموضوع الفلسطيني بعد أوسلو، كما أشرنا.

ولم ينج اتحاد الكتاب الفلسطينيين من تأثيرات هذه الأزمة، التي دخلت إلى عمق الاتحاد العام، ومنذ لحظة الحديث قبل خمس أو ست سنوات عند عقد مؤتمر عام في القاهرة، وهذا الاتحاد الذي يستند إلى شرعية نقابية، ممثلة بعضوية موجودة على أرض الوطن، وهو مرهون بحل هذه الازمة، ليشهد لاولمرة تجاوزاً لاستحقاقه الديمقراطي الداخلي، وبشكل مزدوج، أوله عدم عقده لمؤتمر طارئ يحل فيه الفراغ الذي نجم عن وفاة رئيسه، وثانيه عدم التزامه بموعد عقد مؤتمره، قبل ثلاث سنوات. ولعل أهم تجليات هذه الأزمة المتفاقمة، التي وصلت إلى آخر معاقل اتحاد الكتاب، ونعني بذلك اتحاد الكتاب في الوطن، هو الانفضاض المتزايد للعضوية عن هيئته القيادية، والتي تظهر من خلال عدم المشاركة في فاعلياته المختلفة، وأهمها، بالطبع، عقد اجتماعات هيئته العمومية، وآخرها ما حدث في الثامن عشر من آذار الماضي، حين حضر ذلك الاجتماع من أصل ثلاثمائة وثمانين عضواً في الضفة الغربية خمسون عضواً، وحين انتظر الاجتماع المناظر في غزة ساعة ونصف الساعة إضافية ليحضر نصف عدد أعضائه المائة والعشرين إزاء هذا الواقع المأزوم، شكلت مناسبة إعادة تأسيس الاتحادين في اتحاد واحد للكتاب والأدباء محاولة أخيرة لانقاذ ما يمكن انقاذه، وكان ذلك يتطلب بالدرجة الأولى أن تأخذ إعادة التأسيس بعين الاعتبار أن تشكيل اتحاد جديد للكتاب، لا بد أن يراعي مستقبل الواقع الفلسطيني، أي أن يتشكل اتحاد كتاب ينتمي إلى هذا المستقبل، وحيث كان الاتحاد العام (المنحل) عملياً مرتبطاً ومعبراً عن م.ت.ف فإن اتحاد الكتاب

الجديد، عليه أن يجيب على سؤال المستقبل الذي سيشهد إقامة الدولة المستقلة، ليكون اتحاد كتاب هذه الدولة.

وهذا يتطلب أولاً إعداد نظام داخلي يعتبر أحد مكونات المجتمع المدني الفلسطيني الذي يساهم في إقامة دولة ديمقراطية مدنية مستقلة، لكن آليات وأدوات الماضي تحكمت بهذا السياق لدرجة سريالية، لم تتجاوز رسم المسار ارتباطاً برؤية اللحظة الراهنة، وليس ابعد من انف من تحكم برسم هذا المسار، في محاولة لإقامة إطار على المقاس، وحشر التحولات الواقعية في حدود هذه الرؤية.

ومن غرائب الأمور مثلاً، ان يتم التحضير لعقد المؤتمر التأسيسي، وفق آليات نظام داخلي لم يقر بعد، ويستند إلى انتخاب أمين عام، يشير إلى رغبة في إقامة فصيل ينصب أميناً عاماً، ذا صلاحيات مطلقة، لم تشهدها الفصائل ذاتها، ينتخب من مؤتمر يعقد في الضفة وغزة، حتى قبل أن تعقد الفروع مؤتمراتها، ثم أن يتضمن النظام الداخلي تفاصيل وآليات عمل من نمط توزيع عضوية الهيئة القيادية على الفروع، وكأن هذه الحالة الفلسطينية (الداخل والشتات) ستبقى إلى الأبد.

وبهدف الوصول إلى شرعية مهزوزة، تمت العودة إلى الحديث عن تمثيلات فصائلية، لتجاوز معضلة انفضاض العضوية حتى في المعقل الأخير. وهذا يعني بأن هذا المسار لن يفضي إلا إلى العبث، وإلا إلى إضافة لافتة جديدة، لتحقيق مآرب أو مطامح شخصية لنفر من الكتاب، فيما تبقى الحاجة الموضوعية إلى تشكيلات مجتمعية تقوم على أساس مؤسسي قائمة وملحة، لفتح الأفق أمام الشعب الفلسطيني بكل مكوناته المجتمعية أن يذهب إلى دولة حديثة قادرة على تحقيق الاستقلال، في عصر متحول ديمقراطياً، لعل أهم مظاهرها، هو الفصل بين مفهوم العضوية والمستوى التنفيذي، كما يحدث في المجتمعات الحديثة عموماً، حيث يكون المستوى التنفيذي مهنياً بالدرجة الأولى، ينفذ السياسات العامة التي تعبر عن إرادة العضوية، وتفويضها للهيئة القيادية المنتخبة.

جريدة الأيام، تاريخ نشر المقال، 3 أيار 2005

مؤتمر اتحاد الكتاب..الأخطاء والخطايا

كان يمكن ان يشكل انعقاد مؤتمر اتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين في رام الله وغزة، قبل نحو اسبوعين، مناسبة حقيقية لاطلاقٍ متجدد للحالة الثقافية الفلسطينية لو تم التحضير لهذا المؤتمر على أكمل وجه، خاصة أنه كان مؤتمراً تأسيسياً لاتحاد جديد، يضع حداً، أو يجمع خلاصة إطارين، كان أحدهما جامعاً بالمعنى السياسي، وله مكانة تاريخية، والآخر يجسد حالة ميدانية، لها مكانة وأهمية عملية، وكان في الحقيقة والواقع، أكثر من فرع بالنسبة للاتحاد العام.

وحيث كان الأمل يحذو الغيورين على مستقبل أفضل، ينفتح على آفاق الدولة المستقلة، الحديثة والعصرية، كان التطلع إلى اتحاد كتاب لا يقف عند حدود التعدد السياسي وحسب، بل وينفتح على ويؤطر التعدد الفكري والثقافي والابداعي.

لكن على ما يبدو فإن الظرف الفلسطيني الصعب، وطبيعة اللحظة الفارقة، وقفا عقبة مرة أخرى أمام عملية إطلاق خلاقة لاتحاد كتاب جديد، بالفعل والجوهر، وهكذا كانت النتيجة مؤتمراً وقع في جملة من الأخطاء، يعد بعضها من الخطايا التي طالت جوانب قانونية وتنظيمية، لا يمكن معها الارتكان إلى أن عقد المؤتمر قد شكل بالفعل إطلاقة حقيقية أو تجديدية لاتحاد الكتاب المنشود، الذي يعتبر رافعة من روافع التشكيل الفلسطيني الجامع، الذي تسير نحوه جملة التفاعلات السياسية والمجتمعية الفلسطينية، في الوقت الراهن.

فالمؤتمر الذي انعقد في غزة ورام الله، تجاوز، وهو يقدّم نفسه ممثلاً وحيداً للكتاب الفلسطينيين، حقيقة عدم حل الاتحاد العام للكتاب والصحافيين بشكل قانوني وفق نظامه الداخلي، وحيث أنه من المستحيل عملياً عقد المؤتمر العام لذلك الاتحاد العام، كان لا بد من البحث عن مخرج قانوني مناسب، لتجاوز هذه العقبة، بدل التعامل معها، وكأنها حالة غير قائمة، أو لا لزوم للتعامل معها. ثم كان أن انعقد المؤتمر في الوطن فقط، دون أن يترافق مع ذلك عقده كمؤتمر عام، يشمل الفروع أيضاً، حيث كان هناك شكلان ممكنان لعقد مؤتمر عام لاتحاد عام - الأول- أن يجتمع عموم العضوية في الداخل والخارج، في مكان مناسب، والثاني في حالة تعذر أو استحالة ذلك، أن يجتمع مندوبون منتخبون عن هذه العضوية وفق نسبة تمثيل موحدة، يقومون بإقرار النظام الداخلي أولاً، ثم انتخاب الهيئات القيادية استناداً إليه، بعد ذلك.

لكن ما حدث، وهذا يدخل في باب الخطايا، أنه تم انتخاب هيئة قيادية (أمانة عامة) استناداً إلى مشروع نظام داخلي غير مُقّر، بل والأنكى من ذلك، تم تأجيل إقرار هذا النظام لمدة عام، وهذا يعني أن الهيئة القيادية ستعمل دون ضابط تنظيمي ودون سند قانوني، مقر من أعلى هيئة في الاتحاد، ونعني بذلك، المؤتمر.

والغريب أن آليات التحضير للمؤتمر ووقائعه، استندت إلى هذا المشروع من النظام الداخلي، بما في ذلك انتخاب الأمين العام، من قبل المؤتمر، وحيث أن الذي عقد، إنما هو جزء من المؤتمر (كونفرنس الوطن)، فإن السؤال يدور هنا، حول أي أمين عام ستقوم الفروع بانتخابه؟ وهل يكون بذلك ما عقد في رام الله وغزة، قد فرض على الفروع الخارجية حالة من الاستفتاء أو التصديق على الأمين العام الذي انتخبه مؤتمر الوطن، بما يعني اسقاط حقها في هذا الاختيار، أو أن تقوم هي باختيار أمين عام آخر، وهذا يضع الاتحاد الذي يسير على طريق التشكل أمام احتمال الانقسام بين داخل وخارج.

ولم يقتصر الأمر عند هذه الحدود، بل تعداها إلى عدم الحرص على وحدة العضوية في الوطن ذاته، حين ضرب القائمون على التحضير للمؤتمر عرض الحائط بمناشدة أكثر من سبعين عضواً فاعلاً، طالبوا عبر مذكرة نشرت قبل ثلاثة أيام من موعد المؤتمر بالتريث، حتى يتم التحضير بشكل أفضل لعقده، وتصويب الأخطاء القانونية التي وقع فيها من حضّروا له، خاصة بعد تجاهل قرارات لجنة العضوية المنتخبة من المؤتمر المنعقد في الثامن عشر من آذار الماضي، ووجهة نظرها حول كون عضوية الاتحادين السابقين، إنما هي عضوية مرشحة للاتحاد الجديد.

وقد ظهر ذلك جليا في ضعف فاعلية المؤتمر، الذي انعقد في ظل مقاطعة معظم من طالبوا بالتريث والتأجيل، ممن وقعوا على المذكرة المشار إليها، حيث انعقد المؤتمر المذكور بحضور مائة وأربعة وتسعين عضواً من أصل أربعمائة وأربعين، مستنداً إلى قاعدة من سددوا الاشتراكات فقط، دون الإهتمام إلى كون المؤتمرات تشكل مناسبة لتفعيل العضوية ولاطلاق الطاقات، وأنه مناسبة توحيدية تهدف إلى مد جسور الصلة بين الهيئة القيادية والجمعية العمومية. وحيث أن من قاد عملية عقد المؤتمر أراد تجاوز التقليد الذي اتبع في الاتحاد العام المؤسس منذ العام 27، على شاكلة م.ت.ف، أي كاتحاد بين كتل حزبية/ سياسية وفق ما كان يعرف بنظام الكوتة، ولأن واقع الاتحاد يشير إلى وجود كتلة حزبية واحدة منظمة، ذات مرجعية حزبية، وحيث أن نظام الانتخابات في الاتحاد يقوم على أساس الأغلبية البسيطة، فإن نتائج الانتخابات أدت إلى انتخاب هيئة قيادية من اتجاه سياسي/ حزبي واحد، بما ينطوي على مخاطر إقامة اتحاد كتاب على شاكلة اتحادات الأنظمة الشمولية، ذات اللون الحزبي الواحد.

وقد ارتكبت جملة من الأخطاء ذات الطبيعة غير الديمقراطية، عند إجراء العملية الانتخابية، في مقدمتها، جمع الناخبين في الضفة وغزة، على أساس الدائرة الانتخابية الواحدة، من حيث الانتخاب، وعلى أساس دائرتين (كوتة لغزة وأخرى للضفة) على أساس الترشيح. والانكى من ذلك انه طلب من الناخبين ان يختاروا كامل اعضاء الهيئة القيادية (كوتة غزة + كوتة الضفة). وإلا فإن حجب أي مقعد يؤدي إلى اعتبار ورقة الانتخاب لاغية!؟!

لا بد إذاً والواقع أصبح هكذا، من إعادة تصويب ما حدث، خاصة أن ما نجم عن المؤتمر المشار إليه، ما زال بحاجة إلى استكماله بمؤتمرات الفروع، كذلك ضرورة إقرار النظام الداخلي، والتعامل مع مناسبة إعادة تأسيس اتحاد الكتاب، على أنه تأسيس لاتحاد كتاب جديد، يلحظ اولاً جملة المتغيرات التي تشهدها الساحة الفلسطينية والتحولات في المجتمع الفلسطيني، حيث من الضروري النظر إلى الاتحاد على انه جامع ثقافي/ نقابي، يقر بمبدأ التعدد الفكري، الثقافي والإبداعي.

وحيث أنه بات من الضروري تجاوز التعدد على الأساس الحزبي فقط، فلا بد من النظر إلى أن الاتحاد كإطار تمثيلي/ نقابي، يمكنه أن يجمع وهو يقبل أعضاء على أساس فردي، إمكانية بلورة الاتجاهات الفكرية والإبداعية المختلفة التي يمكن لها ان تتوحد كنواد أو كتجمعات أو تيارات وحتى روابط أو ما شابه ذلك. وبحيث تتشكل الهيئات القيادية للاتحاد كجبهة ثقافية/ نقابية على أساس التمثيل النسبي، بين هذه الاتجاهات والتجمعات الثقافية/ الإبداعية.

ومثل هذا الشكل/ الإطار الجامع، تعرفه كثير من الاتحادات النقابية في الكثير من الدول، بل وحتى تشهده بعض اتحاداتنا الفلسطينية، مثل الاتحاد العام للفنانين الفلسطينيين، الذي استوعب وجود رابطة للمسرحيين وأخرى للتشكيليين، وشبكة المنظمات الاهلية، واتحاد المراكز الثقافية وغيرها. على أن يتم تحديد جوهر وهيكل الاتحاد الجديد، وفق نظام داخلي عصري وديمقراطي، لا يضمن التعدد فقط وفق انساق إبداعية وتوجهات فكرية حيث أنه ليس حزبا ليمنع ذلك بل ويحقق إنموذجاً في كيفية أن يكون إطاراً جامعاً وتفعيلياً للكتاب والأدباء الفلسطينيين، أينما كانوا، وحيث ما اختاروا، وهذا ما يضمن له الفاعلية والمكانة المجتمعية اللائقة والضرورية، حتى تأخذ الثقافة مكانتها الرائدة في رسم صورة الدولة المستقلة، وفي وضع هذه الدولة على خارطة الجغرافيا، بصورة بهية، كما رسمت في أحلام وإبداعات الكتاب والأدباء.

عضو اللجنة التحضيرية السابقة، جريدة الأيام، 20 أيار 2005

اتحاد الكتاب.. ديمقراطية جمهوريات الموز!!

على عجل، ودون سابق تحضير أو إعداد، أعلن عن عقد "مؤتمر" للاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين، وانتخاب "أمانة عامة" جديدة بشكل سريع ومقتضب، يدل على ما انتهى إليه الاتحاد الذي تشكل قبل نحو أربعة عقود، من حالة لا تسر صديقاً ولا تغيظ عدواً، يشير اضافة إلى مجمل الاتحادات وحتى الفصائل والمؤسسات إلى مستوى الضعف والمأزق الذي وصلت إليه كافة القطاعات الشعبية، كذلك البون الشاسع الذي يفصل بين المشاكل واجتراح الحلول لها.

بدأ الأمر بخبر عابر، لم يثر اهتمام الكثيرين، قبل نحو عشرة أيام في الصحف المحلية، وتحديداً يوم الخميس الماضي، يحدد يوم السبت التالي له كموعد لاجتماع يهدف إلى "التحضير" لعقد المؤتمر يوم السبت الذي يليه، الأمر الذي تم قبل ثلاثة أيام، بشكل سريالي، لا يحدث عادة إلا في جمهوريات الموز الافريقية، مع الاحترام لها، حيث جرت العادة الصحافية على وصف "التخلف الديمقراطي" هكذا، فأي تخلف ديمقراطي يكتنفه مثل هذا الإجراء، الذي كان يفترض فيه أن يصحح خطيئة تاريخية حدثت قبل خمس سنوات، لكنه جاء ليكرسها وليضيف اليها كل ما من شأنه القول انه لا يمكن لعاقل أن يعتبر هذا الهيكل "اتحاد الكتاب والأدباء" منطوياً على أية أهلية قانونية أو إبداعية لتمثيل الكتاب الفلسطينيين، فضلاً عن تأطيرهم وتفعيلهم، وتحويلهم إلى قوة دفع أو رافعة للثقافة الفلسطينية، كما كان حالهم قبل عقود.

قبل خمس سنوات وبعد محاولات عديدة استمرت سنين طويلة لإعادة تأسيس الاتحاد العام للكتاب والصحافيين على قاعدة الفصل بين الكتاب والصحافيين، تحدد موعد لمؤتمر لإعلان الاتحاد الجديد "الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين" - وفق نظام أساسي جديد، وبقيادة جديدة "أمانة عامة - نصفها من داخل الوطن والنصف الآخر من الخارج" لتوحيد الكتاب الفلسطينيين في الوطن والشتات، وبعد جدل داخلي، آثرت الأغلبية عقد المؤتمر، دون أن تؤجله قليلاً لمزيد من التحضير، وجرى عقد اجتماع، تم خلاله انتخاب نصف الأمانة العامة من الداخل، لكن دون إقرار النظام الأساسي للاتحاد الجديد، ثم ودون عقد المؤتمر المكمل في الخارج، ورغم أن المسؤولين عن عقد "المؤتمر" ذاك، وإخراج هذه الحالة الغريبة، قالوا انه إطار مؤقت لمدة عام، إلا أن الأمر استمر خمس سنوات، حتى الآن!!

طبعاً، المشكلة تتضاعف، إذا ما عدنا إلى الوراء قليلاً، للوقوف عند ما سبق تلك الحالة من سكون داخلي وانعدام الحياة الديمقراطية، الناجمة عن عدم عقد مؤتمر الاتحاد العام للكتاب والصحافيين مدة عشرين عاماً، ما دفع اتحاد الكتاب والأدباء العرب إلى تعليق عضوية فلسطين أكثر من دورة، وهكذا يمكن القول أنه إضافة إلى ذلك، يلاحظ عدم الأخذ بعين الاعتبار المتغيرات والتحولات المجتمعية أو الاقليمية ولا حتى التكنولوجية، خاصة المتعلقة بوسائل الاتصال الحديثة، وطبيعة ومحتوى وجوهر الأطر والمؤسسات (خاصة النقابية منها) التي تجمع الناس.

بذلك يمكن القول أن كرة الثلج الخاصة بالاتحاد قد تدحرجت إلى أن وصلت إلى النهاية المأساوية، حيث لا يمكن الآن إلا قراءة الفاتحة، على ما بدأه قبل أربعة عقود نخبة من الكتاب المناضلين، رغم أنهم لم ينجحوا في التأسيس على القاعدة الصلبة، حيث ما تزال كلمات الراحل معين بسيسو ماثلة حتى اللحظة، حين هزمت "ميليشيات الكتاب" العام 1972م قائمة أبو سلمى "عبد الكريم الكرمي" ومعه معين بسيسو ومحمود درويش.

هل هناك أكثر دلالة على النهاية المأساوية، من عقد اجتماع، يعلن عنه كمؤتمر، ربما لم يستمر أكثر من خمس دقائق، حيث اختفت من الحياة العامة الديمقراطية في عصر جمهوريات الموز، مناقشة التقارير الإدارية والمالية، والجدل الذي كان يدور في مناسبة عقد المؤتمرات حول خطط العمل واستراتيجياته إلى البند الانتخابي، ولا يحضره هذه المرة سوى (78) عضواً من (450) عضواً؟ ثم إجراء الانتخاب بالتزكية، كدليل على انعدام كل مظاهر الحيوية أو الاهتمام من القاعدة التي تشكل عضوية الاتحاد، التي بغالبيتها الساحقة باتت أسماء على الورق منذ سنين طويلة.

وهل يعقل أن يقر 51% من العضوية ومن المرة الأولى عقد "المؤتمر"، أية سريالية هذه؟ يشبه الأمر إلى حد بعيد عمليات الانقلاب العسكري بهدف الاستيلاء على السلطة، التي كان يشهدها - وما يزال بعض العالم الثالث - خاصة في دول أفريقيا، حيث في لحظة خاطفة، وفي جنح الظلام، وفي ظل غفلة العموم من الناس (أعضاء اتحاد الكتاب هنا)، تتقدم مجموعة من الناس، لتنصب نفسها كقيادة.

بهذه المناسبة، يمكن إذاً أن يطلق القادة الجدد، على أنفسهم أعضاء مجلس قيادة الاتحاد، بدلاً من أعضاء الأمانة العامة، لكن الأمر لا يثير شهية الضحك، لأنه ليس نكتة، بل واقع مرير، أين منه الكوميديا السوداء؟!

يشير المتوكل طه، الرئيس المخلوع لاتحاد الكتاب، والذي طعن في شرعية ما جرى، قبل ثلاثة أيام، إلى أن أربعة من أصل سبعة عشر عضواً مزكى لهم، نظراً

لانعدام المنافسة الداخلية، لا تنطبق عليهم شروط الترشح. ربما يكون هذا تفصيلاً إضافياً، لكن من الواضح، أن اتحاداً للكتاب وآخر للفنانين، واتحادات شعبية عديدة، واصلت خلال السنوات الماضية استجداء السلطة التنفيذية لتغطية ميزانياتها، ولم تعتمد الدافع الذاتي التضامني للأعضاء، بما ينفي عنها الصفة النقابية.

يحتاج الكتاب الفلسطينيون إلى أوثق أواصر الصلة فيما بينهم، لكن ضمن مفهوم حديث جداً، يفتح بينهم كل أبواب التفاعل والتعاضد داخل الوطن وخارجه، وإلى إطار يستحق شرف تمثيلهم، ملقى على كاهله أن يشكل نموذجاً للديمقراطية والشفافية والحداثة، يجد كل كاتب ومبدع ومثقف فلسطيني أياً كان محل إقامته - من استراليا إلى تشيلي - مكاناً دافئاً فيه، تتقدمه مجموعة نظيفة لديها رؤية ومشروع واستعداد للتضحية، ولم يعد الأمر تفصيلاً أو أمراً عابراً، يمكنه أن يوقف حركة التقدم والتطور.

جريدة الأيام، 23 شباط 2010

حِمْلٌ ثقيل!!

لو لم تقدم إدارة اتحاد الكتاب الفلسطينيين على إغلاق مقريه في الضفة الغربية وقطاع غزة، وما أعقب الخبر من تداول إعلامي، لربما ما سمع أحد بما يدور ويجري في أروقة "المنظمة الشعبية" التي كانت تعتبر واحدة من أهم أدوات م.ت.ف على مرّ عقود مضت، ولربما أيضاً، ما علا صوت أعضاء أمانته العامة بالشكوى من التهميش والإهمال اللذين يعانون منهما، من قبل المؤسسة الرسمية، على حد وصفهم!

وحيث إن الشأن الوطني الفلسطيني يعاني "الأمرين" حالياً، من حيث استمرار المجابهة بكل أشكالها مع الاحتلال الإسرائيلي، ومن حيث بقاء حالة الانقسام الداخلي- رغم توقيع اتفاق المصالحة، قبل نحو ثلاثة أشهر-فإن الوطن والشعب معاً، بحاجة إلى كل الطاقات، وإلى كل الأدوات التي يمكن لها، ليس فقط أن تخفف من معاناة الناس، ولكن أيضاً تلك التي تفتح لهم أفقاً للخلاص، وتلك التي تبث في صفوفهم أسباب الأمل وقوة الإرادة للاستمرار على طريق الكفاح، حتى تحقيق الأهداف العظيمة بالحرية والاستقلال.

هناك دور مفترض، يبدو أنه بات مفقوداً، للمثقف، وهو أن يكون رائداً وحتى طليعياً، يتقدم الصفوف ليس بالكلام فقط، وليس من خلال إطلاق "النص" في الهواء وحسب، ولكن في الواقع والفعل أيضاً.

صحيح أن اتحاد الكتاب-الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين-كان قد أُسس العام 1972، أي بعد انطلاقة الثورة الفلسطينية، ببضع سنوات، وحتى بعد أن قامت الثورة بتثوير م.ت.ف، بعد أن دخلت إليها الفصائل بعد انتصارها المدوي في معركة الكرامة العام 1968م، وبعد أن قادتها بعد ذلك، في ظل رئاسة الراحل ياسر عرفات للجنة التنفيذية، لكن الكتاب الفلسطينيين كانوا رواداً في بعث الهوية الوطنية بكتاباتهم ومواقفهم ومن ثم حضورهم، قبل ذلك ومنذ مطلع ستينيات القرن الماضي.

وصحيح أن "تأسيس" ذلك الاتحاد، شابته "انتكاسة" ثقافية/تنظيمية، منذ اللحظة الأولى، حين شهد في مؤتمره الأول معركة انتخابية/سياسية-ثقافية، جرت بين قائمتين، ترأس الأولى زيتونة فلسطين، الشاعر عبد الكريم الكرمي "أبو سلمى" وضمت محمود درويش ومعين بسيسو، الذي كان القائد المنظم لها، وقائمة "ميليشوية"، ضمت كتاب الفصائل من الشباب "الثوري" الذي لم يكن قد تحقق بعد، في ذلك الوقت، ترأسها ناجي

علوش، الذي تمرد بعد ذلك بسنوات قليلة على ياسر عرفات، وكان ضمن انشقاق "أبو نضال" صبري البنا، بل وظل "أميناً لسر المجلس الثوري" حتى العام 1984م.

ومنذ اللحظة الأولى، رفع أولئك "الشبان" شعار بالدم نكتب لفلسطين، ربما لأنهم- كما علّق لاحقاً معين بسيسو-لا يتقنون الكتابة بالحبر، ويخلطون بين دورهم وأداتهم في الكفاح، وأداة الآخرين، التي يفترض أنها أدوات متكاملة، لا تحل أحداها مكان الأخرى، المهم أن الاتحاد صار بعد ذلك "تجمعاً" فصائلياً، تطابق في تركيبته وسياساته مع طبيعة م.ت.ف، وصار اتحاد الكتاب بالذات متميزاً في دوره ومكانته عن المنظمات الشعبية الأخرى، التي كانت مع الفصائل المقاتلة، تشكل "جسم" م.ت.ف.

هذا الدور المتميز توضح من خلال، ليس فقط قيام الاتحاد بنشر أعمال الكتاب، وبالدور الفاعل محلياً وإقليمياً، على صعيد بعث الثقافة الوطنية، وحسب، ولكنه، كان يمثل "بروفة" المنظمة، عند مناسبة عقد دورات المجالس الوطنية، فمن خلال ما كان يدور فيه من جدل وحوار، كانت تتضح معالم قرارات المجلس الوطني، واتجاهات السياسة العامة، التي تسير على هديها قيادة منظمة التحرير، حيث كان يشكل "عقل" المنظمة، في ظل غياب مؤسسات البحث والتخطيط الاستراتيجي.

لكن نقطة ضعف الاتحاد، ظلت هي علاقته الوثيقة، وعدم وجود مسافة بينه وبين التركيبة التنظيمية للمنظمة، لذا ورغم الدور العظيم ورغم الصمود الاسطوري الذي سجلته المقاومة بكل فصائلها وبقيادة ياسر عرفات في حرب 1982م، حيث كان محمود درويش ومعين بسيسو صوت الثورة، الذي قاتل بأحمد الزعتر ومديح الظل العالي، كما قاتل حاملو قذائف الآر.بي.جي في مداخل بيروت طائرات ودبابات العدو!

رغم ذلك الدور إلا ان الاتحاد، وبسبب من تطابق تركيبته التنظيمية-الفصائلية-ومن سقوطه في أسر تجريد الشعارات، التي أخرجت الفعل الثقافي من أتون التحول المجتمعي، تعرض للانشقاق، على أثر تمرد جماعة ابو موسى-خالد العملة، وقيامهم بشق الاتحاد وإقامة اتحاد للكتاب خاص بهم، مقره دمشق، تحت مسمى "لجنة العمل النقابي".

في مواجهة ذلك، وفي سياق كفاح أبو عمار من أجل القرار المستقل، ووحدة المنظمة، أعاد الاعتبار "لقائمة أبو سلمى"-حين اختار رمز الاجماع الثقافي-محمود درويش-ليكون رئيساً للاتحاد بعد أن عقد مؤتمره في صنعاء العام 1984م.

يفترض في الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين، الحالي، أن يكون وريثاً لهذا الاتحاد، في الوقت الذي ظل فيه "حمزة برقاوي ومعه خالد أبو خالد" يصران على الاتحاد العام للكتاب والصحافيين-لجنة العمل النقابي، في دمشق.

وهذه الفرضية، وحتى تستوي الأمور، وحتى يمكن ان تعود مكانة غائبة منذ وقتٍ طويل للكتاب والمثقفين، تفرض بدورها اختزال تراث الماضي وإعادة مراجعته، حتى لا تدور الناس في حلقة مفرغة، وهذه المراجعة لا بد أن تشمل الجانبين: التنظيمي والسياسي/الثقافي، بما في ذلك العلاقة بين السياسي والثقافي، ذلك أن مجرد جلوس المثقف إلى جوار الحائط، يطالب السياسي بحل مشاكله، يعتبر مشكلة بحد ذاته، ونحن هنا نتحدث عن كل وطني، كفاحي، حيث لا بد أن يتمتع الجميع بروح الكفاح العملي، لا أن يكون أحد عبئاً على الآخر.

كان من نتائج تراجع دور ومكانة الاتحاد منذ نحو ربع قرن، أنه لم يكن له دور بارز أو حتى حاسم في مواجهة الانقسام الداخلي، ولا في تفعيل وتجميع وتحشيد مفردات الثقافة الوطنية، حيث إنه يفتقر للديناميكية، ويكتفي في مناسبات مؤتمراته الداخلية، ببند الانتخابات دون اقرار البرامج والميزانيات والوثائق اللازمة، التي تجعل منه منظمة فاعلة، في عصر متحول، غدت معه الثقافة الالكترونية فاعلاً رئيسياً في صناعة ثقافة مختلفة.

هناك ثمانمائة عضو، كما يقولون، ينتسبون لاتحاد الكتاب، غالبيتهم الساحقة لا يعرفون أين يقع مقره، ولو كان الاتحاد اتحادهم، لهبّوا جميعاً للمساهمة في توفير احتياجاته "المالية"، حيث يمكن دفع أجور المقرات-على سبيل المثال-من الاشتراكات. وهناك نماذج نقابية ناجحة حتى اللحظة، مثل نقابة الصيادلة-التي ما زالت صامدة في وجه الانقسام، بسبب التفاف العضوية حول النقابة وبسبب الروح الديمقراطية الداخلية التي تسود العمل.

تبدو المسؤولية أكبر وأثقل مما يحتملها عدد من الكتاب، حتى لو قالوا إنهم "قادة" وحتى لو أطلقوا على أنفسهم كل الألقاب، ويمكن بانفتاح داخلي وبانفتاح "ثقافي" على المتعدد والمختلف، أن تشكل إعادة تأسيس وترتيب أوضاع اتحاد الكتاب مناسبة، لاعادة ترتيب المنظمة، ويمكن لنا أن نشرع في "توحيد" المنظمات الشعبية لتوحيد المنظمة-الوطن والشعب-ولنجرب اعادة الترتيب من تحت إلى فوق، لا أن ننتظر "التوافق" على قمة الهرم، والاتفاق على اسم رئيس الحكومة، حتى ننجح في توحيد صفوفنا.

جريدة الأيام 22 تموز 2011

أي اتحاد للكتاب نريد؟

فيما مضى من وقت، لم يكن السياسيون الفلسطينيون، وحدهم على حالٍ من الاتفاق بينهم، بل كان المثقفون أيضاً، كان هنالك حدود للإجماع الوطني، وكان هنالك مشروع – هدف وإطار عمل – يلتقي الجميع حوله، لذا كانت هنالك أيضاً بديهيات لا يفكر أحد في القفز عنها وكان وضوح الرؤية يضع الجميع في حال من النشاط الفعلي، الذي وضع الكل الثقافي الفلسطيني، ليس في مقدمة العمل الوطني، ولكن أيضاً في مركز الفعل الثقافي العربي، وحقق له حضوراً إقليمياً متميزاً.

بعد النكسة السياسية، لم يعد السياسي الفلسطيني محل إجماع، كما لم يعد مشروعه السياسي يشكل رافعة أو بوصلة للثقافي، الذي صار يبحث عن مشروعه، الذي لا يتطابق بالضرورة مع مشروع السياسي، وهكذا بدأت تظهر مستويات من افتراق الثقافي عن السياسي، ليس على الصعيد الرسمي وحسب، ولكن أيضاً على الصعيد غير الرسمي.

وبعد أن كان الإطار القافي الفلسطيني، يشكل مفردة للإجماع الثقافي العربي، صار يشكل نقطة للافتراق، بانتظار أن يحدد من جديد وجهته واتجاهه، وبمعنى أدق أن يحدد مجدداً خياره، وهكذا كان قرار الكتاب العرب بتعليق عضوية اتحاد الكتاب الفلسطينيين أمراً ذا دلالة.

الكتاب الفلسطينيون الذين هم اليوم على وشك الالتقاء، مدعوون لإعادة ترتيب أوضاعهم، ليس بهدف إعادة الاعتبار لمكانهم المفقودة بين أشقائهم العرب وحسب، ولكن إعادة الاعتبار لأنفسهم بالدرجة الأولى، لمكانتهم المفترضة، ولدورهم المنوط بهم، الذي لا يحقق لهم اعتباراً ضرورياً في نظر شعبهم فقط، وإنما يعيد الاعتبار لجدوى الكتابة والهدف منها أولاً، وقبل كل شيء.

لا شك بأن الدورة السادسة لمؤتمر اتحاد الكتاب الفلسطينيين، المنوي عقدها، في الوقت الذي تعتبر فيه مناسبة لإعادة تفعيل الاتحاد، الذي شلت ديناميته على مدار أحد عشر عاماً مضت، فإنها تنعقد في ظروف مختلفة، تفرض عقد دورة خاصة، على درجة من الأهمية، لماذا؟ لأنها تعيد تأسيس الاتحاد مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف المستجدة، التي ينعقد في إطارها.

فللمرة الأولى سينخرط الكتاب والأدباء في اتحاد خاص، منفصل عن الصحافيين، كذلك فإن المؤتمر ينعقد بعد المستجد السياسي، الذي وضع سلطة فلسطينية، على جزء من الأراضي الفلسطينية، في ظروف توفر تجسيداً مجتمعياً لمضمون الاتحاد.

هذه المستجدات، لابد أن تنعكس على طبيعة الاتحاد، برنامجه، خطة عمله، ثم تركيبته، هذه الطبيعة التي ستتمخض عن المؤتمر، ستحدد إلى حد بعيد الكتاب الفلسطينيين، ليس في علاقتهم بالسياسة الفلسطينية، ولكن في طبيعة دورهم الوطني، الذي ينوون القيام به مستقبلاً.

على ذلك من المتوقع أن تتباين الرؤى والتوجهات والمواقف، فمن رغبة بتشكيل يتناسب مع الولاية الفلسطينية، المحدودة، على الأرض والشعب، يتفصل على مقاسها، إلى الدعوة بالانكفاء نكاية بالسياسي، وما فعله بنا، أو للتهرب من الأسئلة التي صارت من طبيعة إشكالية، وتتعلق بطبيعة الموقف من ثقافة "الآخر" وارتباطاً به طبيعة المشروع الثقافي الفلسطيني نفسه.

مع رغبة غير واقعية بالتمسك بأهداب الماضي، أي الإبقاء على صيغة التبعية السابقة، حيث يبقى الثقافي أسيراً لسياسية السياسي، بغض النظر عن المثال الذي يمكن أن يصل به، لاعتبارات سلطوية أو أخلاقية واهمة.

تأخذ الرغبات المتباينة أشكالاً، وتخرج على صيغة أفكار جميلة أحياناً، تستند إلى رد الفعل على سلوك مضى، أو علاقة سابقة، خاصة ونحن الفلسطينيين باعتبارنا خاضعين لدائرة الوعي العربي العام، المتسم بالجدية – بين الهجاء والمدح – بين القطيعة، والتبعية، بين الفرق في دوائر الماضي، والانفلات في متاهة الحاضر، لا نتقن التوصيف الموضعي، والتحليل المحايد، الذي يمكن أن يحدد الهدف دونما تأثر بالانفعال أو المبالغة.

التمرد على صيغة التبعية السابقة، تجيء على شكل دعوى بالقطيعة، ليس مع السياسي وحسب، ولكن مع الوطني أيضاً، ورد الفعل على انخراط الكتاب في ميادين العمل الوطني، بحدوده التنظيمية والقتالية، يدعو إلى إفراغ اللغة من مضمونها، وغلى الانكفاء عن القيام بالدور الوطني الذي يتجاوز اليومي، إلى تأسيسي مرجعية الوعي، وجوهر الهوية، والتمرد على إغفال الذات في حمر الفعل الجماعي، يظهر على شكل دعوة نقابية محضة، تعمم بين الكتاب والمبدعين، مقولة"اللهم إلا نفسي"، والنتيجة في منتهى الخطورة، تخليص الشعب الفلسطيني من احد أهم أدوات كفاحه الاستراتيجي، الذي يجب أن لا يتوقف على الجبهة الثقافية، حتى لو توقف على كل الجبهات.

إن الدعوة لأنسنة الثقافة، لا تكون إلا عبر كشف الغرور واللا إنساني في كل ما يحيط حولها، ولا تجد معناها إلا بالدفاع عن حقوق الفلسطينيين الإنسانية، أما الرؤى والأفكار المتعجلة فإنها تؤدي على عكس رغبتها، حتى لو أنها كانت شديدة الحرص على الفعل ضد نقيضها، أما الدعوة إلى تشكيل نخبوي، بهدف الإفلات من سطوة السياسي، فإنها في الوقت الذي تريح فيه السياسي وحتى السلطوي، من مكانة الموقف الذي يمثله الوعي، فإنها تحيل الثقافة إلى الهامش، بما يؤدي بالنتيجة ضد رغبتها في الارتقاء بمكانتها.

وحدة خيار إخفاء الصفة الشعبية على الثقافة، والتمسك بالمنطلقات الوطنية الأساسية، وبحقوق الشعب التاريخية، هو ما يحمي ثقافتنا وكتابنا من كل الدوائر التي يمكن أن تلفهم في دوامتها، وتدفع بهم إلى عوالم التيه والضياع، إعادة بلورة المشروع الثقافي الوطني، وتحديد الفواصل في العلاقات الثقافية، هو ما يمكن أن يعطي وضوحاً في الرؤية، ويمنح اتضاحاً في الاتجاه، فيكون الفعل ويكون الإبداع، على طريق الانعتاق الإنساني، ليس للمبدع، الذي ينتج الثقافة، ولكن أيضاً للمواطن الذي يتلقاها، ولا تكتمل دورتها من دونه.

علينا إذاً أن نتفق على اتحاد للكتاب، يكون رافعة للوعي، ومثيراً للأمل الشعبي، يستند على ضرورة تجسيد الوحدة الوطنية بمعناها الشعبي والمجتمعي قبل السياسي..

لذا فلا بد أن يشهد المؤتمر حضوراً لمندوبي الفروع، وأن يكون مؤتمراً للداخل والخارج، على قاعدة تمثيل واحدة، تعتمد النسبة ذاتها، كذلك أن يحرص على تنوع الرؤى والمواقف، بإقرار صيغة التمثيل النسبي عند شروعه في تشكيل الهيئات القيادية.

علينا أن نحدد موقفنا منقضية التطبيع الثقافي، وأن نحدد علاقتنا بالكتاب العرب، وأن نشرع في صياغة وبناء مشروعنا الثقافي، المستند على إرثنا وموروثنا، وأن نفكر بالبدء في العمل على تأصيل ثقافتنا الفلسطينية المعاصرة لنشكل وعينا، ونحدد أهدافنا.

علينا أن نرفض فكرة تحويل الاتحاد إلى منتدى فكري، أو إلى إطار عديم الفاعلية، وأن نعيد عبر توجهاتنا الاعتبار له ولنا، له، حين نقول بأننا نحرص على اتحاد، نصفه كسلاح ثقافي في يد شعبنا، ولنا، حين نضفي على كتابتنا معنى، حتى تصير مقروءة وحتى مفهومة من الناس، الذين يفترض فيها أن توفر لهم ما يحتاجونه على صعيد الوعي والمتعة الجمالية، التي لا تكون، على أي حال، معزولة عن تشكيلة منظومتهم الانفعالية.

مجلة الحقيقة ـ غزة

مؤتمر اتحاد الكتاب.. طائر الفينيق يحلق خارج السرب؟!

رغم أن الذي حرك الراكد من مياه الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين، كان من خارج إطاره الذاتي، وأن من دفع الأمور باتجاه عقد المؤتمر العام السادس بعد أحد عشر عاماً على انعقاد المؤتمر الذي سبقه، أي بتأخير متواصل ومتصل، يشير إلى ارتكاب جرم، لن تقوى الأعذار، عن تبريره، أو رد التهمة بإدانة المسئولين عنه، نقول: رغم أن من دفع الأمر بهذا الاتجاه، كان قرار اتحاد الكتاب والأدباء العرب، بتعليق عضوية فلسطين فيه، فإن المر كان دليلاً واضحاً على أن رب ضارة نافعة.. ونقول أيضاً بأن عقد المؤتمر – رغم المحرك الخارجي – فقد كان من قبل، ومن بع يجسد حاجة وضرورة موضوعية/ذاتية، وأن عقد المؤتمر في هذه اللحظة، لا بد أن يمثل محطة نوعية في تاريخه، وذلك لعدة اعتبارات منها:

أولاً: أن المؤتمر ينعقد في ظل ظروف سياسية/اجتماعية، وحتى ثقافية مختلفة نوعياً عن الظروف التي انعقدت فيها الدورة السابقة، فلا شك بأن طبيعة الاصطفافات الفلسطينية، ومتطلبات السياسة الوطنية بعد عقد اتفاق أوسلو، وإقامة السلطة الوطنية على جزء من الوطن الفلسطيني، وما أحدثه ذلك من تغيرات مهمة على مسار ومجرى مستقبل العملية الوطني، تفرض دوراً وطبيعة، وحتى جوهراً مختلفاً للاتحاد الذي طالما ارتبط بالقضية الوطنية، واعتبر واحداً من الأذرع المهمة لـ م.ت.ف، لذا فإن هذا المؤتمر بهذا الشكل أو ذاك، لا بد أن يعبر بشكل مباشر أو خفي عن شكل العلاقة المستقبلية بينه وبين الموضوعية الوطنية برمتها.

ثانياً: أن ينعقد المؤتمر بعد أحد عشر عاماً وبعد كل هذا التجاوز الخطير جداً، والذي يمس جوهر الاتحاد الديمقراطي/المؤسسات، دون أن يترافق ذلك مع تحرك ذاتي للكتاب، باعتبار الأمانة العامة منحلة، يفترض أن تقف هذه الدورة بعمق أمام النظام الداخلي، وثائق الاتحاد وهيئاته التي ستنبثق عنه، على قاعدة استخلاص العبرة العميقة، ووضع الأسس الكفيلة بعدم تكرار مثل هذا الخرق، الذي لا تقوى على ارتكاب مثيله، سوى أنظمة الانقلابات العسكرية التي تلاشى معظمها، عند لحظة اقتراب القرن العشرين من الأفول.

ثالثا: الاتحاد يقف لأول مرة في هذه الدورة أمام استحقاقه المتمثل بتنفيذ النقطة البرنامجية التي أقرها المؤتمر السابق، والمتعلقة بفصل الكتاب عن الصحافيين، وما يمكن أن تحدثه هذه الخطوة من ترتيبات في العضوية، ومن تحديد لمهمات العمل.. الخ.

رابعاً: طالما أن الاتحاد كان يمثل واحداً من مؤسسات الكيانية الفلسطينية، فإنه مع انتقال العنوان الوطني إلى داخل الوطن الفلسطيني، فإن من الطبيعي أن ينتقل مركز فعل الاتحاد إلى الوطن، مع ما يعنيه ذلك من:

أ. ضرورة التوقف مجدداً والبحث في سبل إقامة العلاقة المتوازنة التي ظلت مفقودة على أكثر من مستوى بين الداخل والخارج.

ب. إن الاتحاد صار معنياً بالتجسيد الاجتماعي للمؤسسة، أي بعدها النقابي.

ت. إن ظهور البعد السلطوي للسياسي، بات يتطلب من الثقافي الذي يعبر عنه الاتحاد دوراً مختلفاً عن دوره السابق، يتجاوز أولاً وقبل كل شيء، علاقة التبعية في شكلها السابق، بما يحقق شخصية واعتباراً للثقافي، ودوراً ريادياً، لا يتطفل على موائد السياسي، الذي طالما دفعه إلى الهامش، وأرضاه بقبول الفتات والقيام بالدور الثانوي، الذي ارتكز إلى إبداع صدى الصوت، والصورة ما كانت إلا صورته، وعلى ذلك كان حتى أدبنا، أدب المقاومة ما كان إلا الفعل التسجيلي المرافق لفعل الإبداع الحقيقي الذي يقوم به مناضل الخنادق، أبطال الرصاص، وقادة الكتائب والسراي والمجموعات العسكرية.

خامساً: إن اعتبار اتحاد الكتاب الفلسطيني (في الضفة والقطاع) فرعاً من فروع الاتحاد العام، رغم أنه في الواقع العملي لم يكن كذلك، وأكثر من ذلك، فإن تحول مجموع عضوية مندوبيه إلى مركز ثقل المؤتمر، لا يعني فقط قلباً لمعادلة الخارج/الداخل، إلى معادلة الداخل/الخارج، وإنما أيضاً دمج تجربتي الداخل والخارج النقابيتين، وتحويل الداخل – أي الوطن الفلسطيني – إلى عنوان جديد للكتاب الفلسطينيين، بعد أن كانت عواصم المنفى، حيث يوجد مقر (م.ت.ف)، تجسد هذا العنوان.

سادساً: إن انعقاد المؤتمر العام السادس في ظل تراجع دور وقوة ونفوذ فصائل العمل الوطني، بل ومستوى القناعة ببرامجها وسياستها، يعني نهاية لعهد "الكوتة" – ذلك النظام النقابي، الذي طالما تحكم بآليات العمل الداخلي للاتحاد العام للكتاب والصحافيين، الأمر الذي يفرض أهمية البحث عن البديل المناسب، حتى لا نقع فريسة الفوضى، أو ضحية سطوة الاتجاه الواحد.

البديل المناسب الذي يلوح في الأفق، يتمثل في إقرار مبدأ التمثيل النسبي، حتى يمكن للقوى والاتجاهات السياسية/الثقافية، أن تعبر عن نفسها، وأن تحقق الناسب الديمقراطي للقاعدة في هياكل التشكيلات القيادية.

عن التحضيرات التي بدأت عملياً منذ بداية العام – أي بعد قليل من إقرار مؤتمر اتحاد الكتاب والأدباء العرب الذي انعقد في دمشق أواخر العام الماضي، لقرار أمانته

العامة السابقة بتعليق عضوية فلسطين فيه، رغم بطئها الشديد، فقد كشفت عن لا مسؤولية بينة وواضحة من قبل الأمانة العامة، التي احتاجت إلى عام كامل للتحضيرات، والتي عقدت اجتماعين – وهي التي اعتبرت نفسها في حالة طوارئ وانعقاد دائم، بينهما أكثر من خمسة أشهر؟!

أكثر من ذلك، فإن مستوى التباينات في المواقف، ظن حاداً ليس على طاولة اجتماعاتها، وإنما على صفحات الجرائد والأهم والأخطر من كل ذلك، هو المستوى المتدني الذي يظن على أعضائها – منفردين ومجتمعين – من الاهتمام بأمر الاتحاد وشأن مؤتمره المقبل.

لم تكتف قيادة الاتحاد بنوم أهل الكهف أحد عشر عاماً، ولم يكتف أعضائها من ذوي المناصب الحكومية العليا الذين بذلوا كل جهدهم خلال الأربع سنوات من عمر السلطة، بترتيب أوضاعهم الرسمية، وهيكلة مؤسساتهم الحكومية، بل إنهم وبعد أخذ التحضيرات منحى عملياً، تجاوز بعضهم الخجل، وبات يعرب عن نيته في الدخول مجدداً، للبقاء في سدة "الأمانة:، وقطع الطريق على الاتجاهات الجديدة، ذات الطبيعة النقابية بهدف التقليل من فرص وصولها إلى الهيئات القيادية.

إن التحضيرات – برأيي – كشفت مستوى مخجل من السطحية، حيث أن اهتمام الجمهور الأعظم من المعنيين، ينحصر في أمرين:

الأول: اللامبالاة، أي عدم الاهتمام بالنتائج التي يمكن أن يتمخض عنها المؤتمر، وحتى أن يقتصر الاهتمام على مجرد الحضور غير الفاعل.

الثاني: قصر الاهتمام على البند الانتخابي، دون الاهتمام باستثنائية وأهمية الدورة، ارتباطاً بالظروف التي ينعقد في ظلها المؤتمر، وعدم طرح الرؤى والاختلافات الجوهرية بين الاتجاهات، التي تتعلق بكيفية إعادة تأسيس أو ترتيب أو هيكلة الاتحاد ليتلاءم مع طبيعة المرحلة الجديدة، وليس بمعنى أن يتكيف مع ميكانيزماتها السياسية/ البيروقراطية.

وعلى ذلك، يلاحظ انخفاض الاهتمام بطرح البرامج أو الوثائق، سواء ما كان منها النظام الداخلي، الذي ما زال مشروعاً، برسم الحوار للإقرار من قبل المؤتمر، أو الإطار البرنامجي أو الخطة البرنامجية – خطة العمل – التي يتوجب على الأمانة العامة الجديدة، أن تقوم على تنفيذها في المرحلة المقبلة، وحتى مجموعة التوجيهات والقرارات العامة، التي تحدد سياسة الاتحاد الثقافية، والتي يمكن أن تصدر عن المؤتمر.

خاصة ونحن ندرك حجم الأسئلة العميقة والمهمة، التي لا بد للمؤتمر أن يجيب عنها، بعد أن عجزت الأمانة العامة السابقة، عن فعل ذلك طوال الفترة الماضية.. هل يمكن لنا أن نقبل أن ينعقد المؤتمر دون أن يشير إلى موضوع إعلان الدولة الفلسطينية، أو دون أن يتخذ قراراً يوضح فيه موقفه من موضوع التطبيع الثقافي؟ أو شكل علاقته التي يجب أن تكون مع أشقائه الاتحادات الغربية؟

وحتى دون أن يحدد دوره في تحديد ملامح المشروع الثقافي الوطني، الذي لم يعد مقبولاً أن يقتصر على مشروع القيادة السياسية، الذي يختزل شيئاً فشيئاً، حتى بات واضحاً أنه يمس بأحلامنا وحقائقنا التاريخية في فلسطين التاريخية.

لقد كشفت التحضيرات في الحقيقة عن إمكانية بلورة عدة اتجاهات، تتباين في مواقفها وأطروحاتها، دون أن تتبلور هذه التباينات في برامج علم واضحة، ويمكن القول بأن هذه الاتجاهات يمكن أن تتحدد في ثلاثة رئيسة:

الأولى: وهي ذات مستوى رسمي، يسعى إلى تشكيل اتحاد للكتاب يتماثل مع السلطة الرسمية في تشكيله وهيئته القيادية، ومن ثم في مواقفه وسياسته العامة، وقد اتضح دور هذا الاتجاه في التحضيرات، بالتركيز على "الداخل" لإحداث نقلة مركز الاتحاد دون الإجابة على سؤالين مرتبطين بهذه النقطة – هما:

أ. ماذا بشأن وحدة نسبة التمثيل (5:1) في الداخل والخارج، أي كيف يمكن أن نحقق أغلبية من الداخل (يدور الحديث عن 65 – 70%) دون أن نقع في خطيئة التجاوزات القانونية.

ب. كيف يمكن لنا أن نتصور أقلية للداخل في اتحاد الكتاب، الذي يفترض فيه أن يمثل كل الكتاب الفلسطينيين، ولي كتاب فلسطين فقط، في الوقت الذي يوجد فيه في الضفة والقطاع (2.5)مليون فلسطيني، بينما يوجد في الخارج حوالي أربعة ملايين فلسطيني؟

وهكذا انخراط في هذا الاتجاه في سياسة "تجييش" المندوبين، التي ظهرت جلية إلى حدود ما، في مؤتمرات الداخل التي انعقدت مؤخراً، وكانت تستهدف الدفع بأكبر عدد ممكن من المندوبين إلى المؤتمر، في الوقت الذي يبدو فيه الاهتمام بفروع الخارج، من باب تلوين الصورة، وإضافة البرواز، الذي يغير جوهرها وإنما يمنحه شرعية التوافق والاتفاق.

الثانية: ذات شكل نخبوي/ تكنوقراطي، تترفع عن العمل النقابي، وتسعى إلى إعادة تشكيل الاتحاد على شاكلتها، أي تحويله إلى ما يشبه المنتدى الفكري، الذي يمارس فيه

الترف الذهني، وهي تدرك بأن تجربة النخبة الثقافية من بعدها الواقعي، وتخليصها من "همومها الوطنية"، يضعها في خانة فوق وطنية – يقال عنها "إنسانية"، لا ترى في الآخر بالضرورة عدداً، ذلك أن معيارها قد تحول إلى معيار نقي/ تقني، يرى في الثقافتين الشعبية والوطنية، فعلاً دونياً، فيما قد يكون الثقافي على الجانب الآخر، إذا ما حقق شروط النخبة اقرب إليها، وهكذا فإنها تعيد خارطة الاصطفافات على أساس معياري مختلف، وتعيد بالتالي النظر في شكل وطبيعة دور الاتحاد، وهي انطلقت من نقطتين، في تجريدهما عن السياق العام كثير من المنطق، هما:

أ. الدعوة إلى تجاوز نظام "الكوتة" تجاوزاً تاماً، وعبرها إحداث الطلاق التام والنهائي بين الثقافي والسياسي، وصولاً إلى إحداث القطيعة بين الثقافي والوطني.

ويعتمد أقطاب هذا الاتجاه على مواقعهم في مراكز الإعلام الثقافي، وعلى مناصبهم كبيروقراطيين في المؤسسات الصحافية والإعلامية والثقافية، وقد تحدثت كتاباتهم فعلاً عن اتحاد من طبيعة أخرى، يقطع الصلة بـ م.ت.ف، أو يتحول على إطار فيدرالي بين التجمعات الرئيسة للكتاب الفلسطينيين، أو عن اتحاد لا يول الموضوعة الوطنية أدنى اهتمام، باعتبارها ليست من شأنه، بل من شأن التنظيمات والفصائل.. الخ.

ب. يركز ها الاتجاه على الدعوة إلى هيئة قيادية ذات مستوى إبداعي، تشكل عنواناً مقبولاً، على الصعيدين الإقليمي والدولي، معتقداً بأن هيئات الاتحاد القيادية، هي دالة على المستوى الإبداعي، أو أنها مرادفة لجوائز الدولة التقديرية أو التشجيعية، دون أن يولي الجانب النقابي، أو يعده ضروري التحقق في مرشحي الهيئات القيادية أدنى اهتمام.

إن هذا الاتجاه يترفع عن القاعدة المتمثلة في العضوية، ولا يقوم بأدنى محاولة للاتصال بها، وهو يعتقد بأن بريق مرشحيه سيغشي أبصار المندوبين، ويخوض "معارضة خاصة جداً""، ضد الاتجاه الأول، تستند إلى التفاصيل والجزئيات، دون تقديم التصور الكامل المطلوب لاستحقاق المؤتمر.

الثالثة: وتتمثل في الاتجاه الوطني الديمقراطي، الذي يعتقد بأهمية إحداث النقلة المناسبة في طبيعة وجوهر الاتحاد، لكن ليس بهدف وضعه ف قبضة السياسي/ البيروقراطي، ولا ينزعه من بين يدي القضية الوطنية، بل بإبقائه واحداً من عناوين التشبث بالحق التاريخي لشعبنا، وإطاراً موحداً لكتابنا في الداخل والخارج، ويعتقد هذا الاتجاه بأن إعادة بناء الاتحاد وتشكيله، يجب أن تهدف إلى أن يقوم بدور "خاص" مكمل للسياسة الوطنية، لا يشكل عبئاً عليها، ولا تابعاً من توابعها، يرتبط بالوطني وليس

بالسياسي، بالشعبي وليس بالرسمي، وأنه حتى يقوم بذلك فإنه لا بد أن تتوفر له مجموعة الوثائق التي تحدد طبيعته وجوهره، المناسبين للقيام بهذا الدور.

وعلى ذلك فإن هذا الاتجاه يعتقد بأن الاتجاهات الوطنية الأساسية، يجب أن تلعب دورها، ليس وفق نظام الكوتة، بل على قاعدة التمثيل النسبي، حيث لا بد أن تتوجه القوائم والكتل إلى الهيئة الانتخابية ببرامجها، حتى تنتجها على الأساس البرامجي، وليس استجابة للترتيبات اللوجستية، أو للاعتبارات الشخصية.

هذا الأمر يضع الترتيبات الرئيسية للمؤتمر، حيث يجب أن تكون بين يدي قوته الانتخابية – أي أعضاء المؤتمر.. ويعتقد هذا الاتجاه أيضاً بإمكانية الاتفاق على النقاط العامة، التي تحدد السياسة الثقافية والنقابية للاتحاد، وضرورة أن يقر الجميع بوجود الآخرين، وبأن هناك أكثر من عامل لا بد أن يؤخذ بعين الاعتبار عند السعي إلى "الترتيبات" التي يمكن أن تحقق النجاح للمؤتمر، منها ما هو إبداعي/ثقافي، ومنها ما هو سياسي/ وطني، ومنها ما هو جغرافي/ ديموغرافي، ثم منها ما هو نقابي.. على ذلك لا بد من توفي المناخ الموضوعي والديمقراطي، قبل وأثناء عقد المؤتمر، حتى نقدم صورة لأنفسنا وللأشقاء، تناسب تاريخنا وتطلعاتنا، فهل ننجح في حلمنا الأخير، أم نبقى محلقين في "حلمنا العربي" في سابع سماء، خارج مسارات الواقع، وخارج إطار أسراب الأحلام الواقعية والمعقولة؟

مجلة الحقيقة ـ غزة

اتحاد الكتاب: من الدلف للمزراب

على شاكلة انعقاد المجلس الوطني قبل شهرين، وربما في هذا السياق الانقسامي أنعقد اجتماع لهيكل من هياكل السلطة الفلسطينية المتداعية والآيلة للسقوط بفعل الترهل والشيخوخة، نقصد به اتحاد الكتاب الفلسطينيين، داخل فلسطين، حيث أعلن هكذا فجأة ودون سابق إنذار عن انتخاب أمانة عامة جديدة مكونة من واحد وعشرين عضوا، موزعين بين الضفة الغربية وقطاع غزة.

بالطبع لم ينعقد الاجتماع بشكل موحد، ولا حتى اجتمع المعنيون من الأعضاء في مقر اتحاد الكتاب بغزة، المغلق أصلا، ليس بسبب حماس، ولكن بسبب نفاذ الوقود، أي النقود، التي لا يتحرك دونها كتاب"أوسلو" منذ عام 1994 حتى اللحظة، وأقتصر الاجتماع على الواحد والعشرين المعلنين كأعضاء أمانة عامة، كما لو انه تم الإعلان عن تعيينهم في الوظيفة العمومية.

الفعل "التشاوري" الوحيد الذي سبق إعلان الأمانة العامة الجديدة هو ما حدث من تداول تنظيمي داخل حركة فتح، سمي "برايميرز" داخلي، لتسمية أعضاء فتح في الأمانة العامة، ثم أضيف إليهم بعض المحسوبين على فصائل أخرى، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

لم يحدث مؤتمر ولا بأي شكل، فلم تدعى العضوية العامة، ولم يتم التدقيق في النصاب، ولم يعلن على العضوية العامة أو حتى على الملأ، لا موعد انعقاد "المؤتمر" ولا الوثائق التي يفترض أن يناقشها، كما لم يفتح باب الترشح لعضوية الأمانة العامة، التي تمت زيادة عضويتها من 18 إلى 21، هكذا بفعل فاعل خفي.

وفي غزة حيث هناك اتحاد للكتاب يتبع حركة حماس، أي أن الإعلان عن انعقاد "مؤتمر" لاتحاد كتاب باسم قائمة الوحدة الوطنية دون حماس والجهاد الإسلامي، ومع وجود اتحاد في قطاع غزة، يعتبر تكريسا للانقسام، تماما كما فعل انعقاد المجلس الوطني قبل شهرين، هذا الهدف يبدو هو الدافع إلى الإعلان عن أمانة عامة جديدة وعن وجود اتحاد كتاب في هذه اللحظة وبهذا الشكل وهذه الطريقة المفاجئة، إضافة إلى هدف آخر، له طبيعة انقلابية، وهي سحب المفتاح أو طرد الأمين العام السابق من منصبه، دون مواجهته ومحاسبته.

كان"مؤتمر" اتحاد الكتاب في الدورة السابقة انعقد بمثل هذه الطريقة البهلوانية، أي بترتيب تنظيمي قام به مفوض التعبئة والتنظيم في حركة فتح، وأسفر عن تسمية أعضاء أمانة عامة، تقاتلوا لاحقا فيما بينهم على "فتات الموائد"، إلى أن احتفظ الأمين العام بالصندوق وأغلقه "بالضبة والمفتاح" وظل يقاتل ليل نهار من أجل الميزانية الخاصة المدفوعة من مالية السلطة، بما ينزع الصفة النقابية عن الهيكل المتداعي، ثم تحول الاتحاد خلال نحو عقد من السنين إلى مفتاح وختم، وضعهما الأمين العام السابق في جيبه، وتجول بهما أنحاء العواصم العربية، يظفر ببدل المهمات، ويقوم بتوزيع الأوسمة والعطايا على من أغلقوا الأفواه من كتاب أو مستكتبين.

لم يسأل "العرس الوطني" الذي أنعقد أمس عما فعله الأمين العام السابق بالمال العام، أو عن الذي فعله هو وأمانته للعضوية العامة، ولم يحاسب أحد على أي شيء، بل لم يناقش أي أمر من هذا القبيل لا تقارير العمل السابق ولا خطط أو برامج الفترة القادمة، فلا المجلس الوطني ولا المركزي ولا الاجتماعات عادت مناسبات للجدل أو الحوار أو المساءلة، بل كلها صارت مناسبات للمجاملة أو حتى لإظهار التوافق أو تقديم دلائل الطاعة والولاء للسلطان الوطني، الذي اختزلت به وله السلطة الوطنية!

لكن الأمانة تفرض علينا القول بأن الإعلان عن الأمانة العامة الجديدة، اختلف هذه المرة عن التوليفة السابقة التي أظهرت بشكل رسمي، أو مقنن عن التمييز الجغرافي وعن التبعية الفصائلية، فخلال الدورات السابقة كان "المحفل الوطني" يصر على أن يكون رئيس الاتحاد (صار لاحقا أمينا عاما، ربما احتذاء بحذو الفصائل) فتحاويا، حتى لو كان أقل قيمة وقامة من آخرين مستقلين أو محسوبين على فصائل أخرى غير فتح، وعلى أن يكون من الضفة الغربية، وكانت الهيئة الإدارية لاتحاد الكتاب منذ عام 1994 المكونة من 15 عضوا، توزع على قاعدة الأغلبيةبواقع 9 من الضفة الغربية، والأقلية بواقع 6 من قطاع غزة، وعلى أن يكون الرئيس حصرا من الضفة الغربية، ثم خصص لاحقا منصب نائب الرئيس لقطاع غزة!

وهذا بمجمله دال على وعي متهالك لدى الكتاب بعد أن تحولوا إلى دمى بيد الحركية ومفوضية التعبئة والتنظيم، أي بعد أن تحول المبدع إلى تابع للبيروقراطي الحكومي، وهو الذي بشّر بالثورة، وانطلق بها، وحافظ على الهوية الوطنية وخاض معركتها مع العدو الصهيوني مباشرة، وبالسلاح الأبيض، حين خرجت ظاهرة شعراء المقاومة مطلع ستينيات القرن الماضي من معطف الصراع المباشر بين شعبنا في مناطق 48 والعدو، ثم صار في سبعينيات القرن الماضي مع تشكيل الاتحاد العام وتولية الميلشيات الثقافية زمام أمر الاتحاد، عام 72 الكاتب التابع للفصيل، أو الكاتب الفدائي المقاتل، ثم كاتب

السلطة أو كاتب أوسلو، والآن تحول إلى متسول تماما، يلتقط ما تبقى من فتات الموائد الفقيرة.

لكن الحق يقال بأن ما أعلن عنه مختلف قليلا عما حدث في المرة السابقة، ففي المرة السابقة تم الإعلان عن الأمين العام كمنتخب من المؤتمر مباشرة، عملا بقاعدة السلطة وفق النظام الرئاسي، أما هذه المرة فلم يكن الأمر كذلك، رغم أن أوساط الفتحاويين الجهويين تقول بأن من حاز على أعلى أصوات البرايمريز الفتحاوي هو الذي سيكون الأمين العام أو رئيس الاتحاد، وما هي إلا لحظة وتظهر حقيقة الأمر، حيث لن تخرج النتيجة عن أن يكون الرئيس فتحاويا ومن الضفة الغربية، وسيتواصل العمل بقاعدة "فتح تقود والفصائل ملاحق"، ثم بعض من الوقت، ويحتفظ رئيس الاتحاد الجديد بمحاكاته للرئيس السابق فيحتفظ بالصندوق في جيبه ويغلق عليه بالقفل والمفتاح، ثم يبدأ رحلة ابن بطوطة، منطلقا كما يشاء، فما دام باب بيت الكتاب مخلوعا، فلا يلومن احد أحدا على سرقة ماله العام أو تمثيله ولا عن شل فاعليته.

أحوال البلاد 7 تموز 2018

مقالات ثقافية نشرت بجريدة الأيام

الجزيرة تدعو إلى الحيرة

قبل نحو عشر سنوات، انطلقت قناة الجزيرة الفضائية، في ظل انطلاق وتعاظم ثورة الاتصالات في العالم، لتحتل مكانة اعلامية متقدمة على المستوى العربي، رغم انها لم تكن الاولى التي يتم اطلاقها كفضائية، فقد سبقتها محطات اخرى، مثل شبكة الاخبار العربية (ANN) وأبو ظبي وسواهما.

لكن ما اعتمدته الجزيرة من تخصص كمحطة اخبارية، تقدم نشرات الاخبار المتتابعة، ثم البرامج الاعلامية والسياسية، دون البرامج الاجتماعية، الفنية أو الثقافية، من دراما تلفزيونية وسواها، ثم استنادها إلى مستوى احترافي، أهّلها لأن تصبح القناة "الاولى" التي يشاهدها الجمهور العربي، وجاءت الفترة التي رافقت اطلاقها كمحطة لتعزز مكانتها بعد حرب الخليج الاولى، ثم حرب البلقان، فحرب افغانستان، والانتفاضة الفلسطينية الثانية، ثم اعتمادها على شبكة واسعة من المراسلين الممتازين، لتدفعها إلى توسيع نطاق عملها الذي شمل عدة محطات متخصصة، جعلت من الجزيرة مجموعة اعلامية ناجحة.

ثم كانت بعض البرامج "الاشكالية" التي اثارت الجدل، من خلال تقديمها لصورة الاوضاع السياسية في كثير من الدول العربية، أحد أهم الاسباب التي دفعت لاثارة اللغط حول الفضائية ذاتها، وبالتحديد حول كيفية انشائها وهوية أصحابها والقائمين عليها، ثم مستوى التوظيف السياسي

والاهداف التي تسعى القناة لتحقيقها.

وقطر، دولة المنشأ للقناة، إمارة خليجية صغيرة، لم تتمتع منذ استقلالها بمكانة اقليمية مؤثرة، لا على الصعيد العربي ولا على الصعيد الخليجي، فيما جاءت الجزيرة ذاتها لتحقق شهرة أكبر حتى من شهرة الدولة ذاتها، التي تجاور دولة اقليمية مهمة، تتمتع بمكانة سياسية واقتصادية كبيرة، نقصد السعودية التي تتزعم منفردة دول الخليج، وتتزعم الدول العربية بالشراكة مع دول اخرى كمصر، وتجاور دولة نهضت وتقدمت سياسياً واقتصادياً بفضل سياسة متزنة ومتوازنة اقليمياً وعربياً قادها الشيخ زايد بن سلطان في ابو ظبي، ومحمد بن راشد في دبي، وحققت مكانة محترمة للامارات العربية

المتحدة، وجدت قطر اذاً ضالتها في تجاوز مكانتها السياسية المتواضعة من خلال هذه المحطة الفضائية، التي جاء اطلاقها في ظرف اقليمي متوتر وانتقالي، بعد ان دخلت المنطقة مرحلة ما بعد الانظمة القومية، ذات الحكم المركزي القوي، وفي ظرف دولي ما بعد الحرب الباردة وما عرفته من استقطاب ثنائي، فتح الباب للعولمة الكونية، التي بات الاعلام وثورة الاتصالات أحد أهم أدوات تحققها.

وكما هو الحال مع وسائل الاعلام الخليجية الاخرى، استند إنشاء وتأسيس فضائية الجزيرة إلى المال القطري، في عصر بات فيه الاعلام صناعة يمكن من خلالها "تسليع" الخبر والمعلومة والتحليل، فلم يكن نجاح المحطة ممكناً لولا القدرة الشرائية التي اهلت مالكيها للتعاقد مع أفضل الاعلاميين العرب من معدي ومقدمي نشرات وبرامج إلى مراسلين وتقنيين وإداريين.

وما كان الاسم الذي وشى بتوسيع دائرة البث والارسال إلى المشاهدين في الجزيرة العربية، ليتوقف عند هذه الحدود، بل ويصل إلى عموم المشاهدين العرب، في الدول العربية والمهاجر، ثم كانت الخطوة التالية، وإن جاءت اقل مما كان متوقعاً بتحويلها إلى محطة عالمية، من خلال القناة الناطقة بالانكليزية رغم النجاح الاعلامي والمهني الذي حققته فضائية الجزيرة، عبر عشر سنوات مضت، خاصة مع وصول مراسليها إلى مواقع الحدث الملتهبة، استجابة لكرم القيادة القطرية على محطتها التي باتت بمثابة الابن النجيب، الا أن القناة سرعان ما وقعت في كثير من المطبات والمثالب الناجمة عن التوظيف السياسي، الذي حاد في كثير من الاحيان عن الحيادية، بل وعن الموضوعية الضرورية لاستمرار نجاحها.

وإذا كان البقاء في القمة أصعب كثيراً من الوصول اليها، فإنه يمكن القول الآن بأن المحطة التي ظلت تعتبر فضائية العرب الاخبارية الاولى على مدار عقد، باتت الان عرضة لانفضاض مجاميع المشاهدين عنها.

ليس للامر - في تقديرنا - علاقة حاسمة بظهور منافسات جديات مثل "العربية" لكن لما يمكن ان يُسجل من مثالب واضحة في أداء المحطة القطرية، ذلك ان المحطة التي كانت جريئة جداً في تسليط الضوء على مئات القضايا الداخلية في العديد من الدول العربية، بدافع خطب ود مواطني تلك الدول الذين يعانون من قصورٍ في الديمقراطية، لوحظ انها لم تجرؤ ولم تقدم على التعرض إلى ملف خليجي واحد مع ان هذه الملفات مثيرة جداً وساخنة للغاية.

وهناك قضايا مثل توظيف عائدات النفط، في البنوك الاوروبية والغربية، وهناك قصص وقضايا مرتبطة بالاسر الحاكمة فاحشة الثراء، وكثيرة المشاكل، وهناك قضية الديمقراطية المعدومة تقريباً في كل دول الخليج، ثم مكانة المرأة والحريات العامة والمدنية. وهناك قضايا القواعد الاجنبية خاصة الاميركية، وهناك انتهاكات حقوق الانسان خاصة العرب المقيمين، ومنهم الفلسطينيون الذين تعرضوا إلى التطاول الفظيع على حقوقهم كمقيمين لعشرات السنين بعد حرب الخليج الاولى، وما زالوا هم وسواهم يتعرضون للتمييز وانتهاك الحقوق الانسانية كعاملين مقيمين، وكذلك الاجانب والآسيويين الذين يتعرض بعضهم إلى وضع يشابه ما يمكن وصفه بالرق العصري.

ثم هناك ظاهرة انتشار العاملين في المحطة المحسوبين على ايديولوجيا الاسلام السياسي، بحكم الوجود "التاريخي" والحالي القوي للاخوان المسلمين في قطر، ثم رغبة القيادة القطرية في مناكفة الجارة الخليجية الكبرى، كذلك وجود المفارقات الغريبة، حيث في الوقت الذي تبدو فيه المحطة كنصير لحق العرب والمسلمين في مواجهة الغرب، تقبع على مرمى البصر القواعد الاميركية في السيلية وسواها، ثم كانت الجزيرة بالذات اول من فتح باب التطبيع الاعلامي، حيث تقدم نفسها في الموضوع الفلسطيني/ الاسرائيلي كمحايد، وكانت أول فضائية تضع في كادرها الفضائي محللين، بل وناطقين اعلاميين رسميين اسرائيليين.

الجزيرة إذاً اعلامية تقدم رسالتها إلى المواطنين العرب، من خارج منطقة الخليج، وبدرجة اولى ليس للمواطنين القطريين، وكأنها الناطق باسم المعارضة للانظمة العربية الاخرى، وهذا يعني أنه بقدر ما كان كثير من المشاهدين العرب بحاجة اليها ووجدوا فيها متنفساً لهمومهم، كانت هي نفسها تغطي على "الدور" السياسي الذي تقوم به دولتها الراعية، التي تعاملت مع السياسة القومية كلعبة كرة القدم، التي تعتبر الحقل الثاني الأكثر أهمية في اهتمامات مجموعة الجزيرة الاعلامية.

جريدة الأيام 3 تموز 2007

باب الحارة: حنين أهل البلد

اعتادت شركات انتاج الدراما التلفزيونية العربية، ومنذ سنوات، على إعداد مشاريعها الإنتاجية من المسلسلات بحيث تكون جاهزة للعرض، في شهر رمضان المبارك، لما يتميز به ذلك الشهر من قدرة على استقطاب المشاهدين، الذين بدورهم يمثل لهم الشهر الفضيل مناسبة لمراجعة النفس والتزود من رحاب التعبد بالزاد المعنوي والاخلاقي، الذي يكون قد تبدد خلال العام.

ومنذ سنوات ايضاً، وبعد طول احتكار لحقل انتاج الدراما التلفزيونية من قبل شركات الانتاج المصرية، ظهرت شركات انتاج سورية، كان لظهورها نتائج ايجابية على جودة صناعة الدراما، وعلى متعة المشاهدين العرب، الذين اضافت لهم تلك الدراما المتعة البصرية بعد متعة السرد التي كانت قد تحققت عبر سنوات من اقتصار انتاج الدراما التلفزيونية على الشركات المصرية، ووصل حال المنافسة بين مدرستي الدراما التلفزيونية في العالم العربي ذروته قبل بضع سنوات، حين وقفت الحكومة المصرية وراء انتاج مسلسل "أم كلثوم"، في محاولة منها لإعادة جمهور المشاهدين لما تنتجه شركاتها من مسلسلات بعد أن "خطفتهم" الدراما السورية ببريق أعمالها التي وسمت بالفنتازيا التاريخية.

وفي الحقيقة فإن الحديث عن الانتاج الفني في مصر وسورية، ليس حديثاً من قبيل الترف، بل تشير التقديرات إلى المكانة المتزايدة في الأهمية بالنسبة لهذا الحقل في دعم الاقتصاد المصري، والذي يجيء بعد قطاعات مهمة كالسياحة وقناة السويس، بعد أن مضى عهد انتاج القطن والأرز وما شابه، خاصة ان هاتين الدولتين العربيتين تختلفان عن شقيقاتهما النفطيات، في كون الطاقة البشرية تمثل اهم عناصر الاقتصاد الوطني.

المهم في الامر، ان هذا العام شهد تحولاً انتاجياً ذا مغزى ودلالة وأهمية بالغة، تمثل في نجاح الدراما المصرية، وهي تواصل حرصها على كسب منافسة شقيقتها السورية، تنافساً شريفاً بالطبع، في استقطاب أو احتواء عدد من عناصر الانتاج الدرامي السوري، من خلال "تشغيل" عدد من المخرجين والممثلين السوريين الأساسيين في صناعة الدراما السورية حديثة العهد بالمقارنة مع شقيقتها المصرية.

وقد حقق ذلك هدفاً مزدوجاً، الاول في عدم خروج الدراما السورية بعدد من المسلسلات المنتجة بأموال سورية، والثاني تشغيل عجلة الدراما المصرية بنقود انتاجية اقل، بما يسهل عملية التسويق ويحقق أرباحاً أكثر.

وبالنظر إلى ان الدراما المصرية، ومنذ سنوات ايضاً تعتمد الموضوعات التي لا تتطلب كلفة انتاجية باهظة، كالموضوعات التاريخية، أو التصوير الخارجي وما شابه، وتعوض عن الإبهار البصري بتوظيف هالة النجم، لذا فقد دارت اعمالها حول نجوم الشاشة السينمائية، بحيث استندت إلى نجوم "سوبر ستار" يتنافسون كل عام فيما بينهم على تقديم اعمالهم السنوية!

هذا العام، ارتكزت الاعمال المصرية على عدد قليل من المسلسلات، المحمولة على شهرة نجوم صف اول (نور الشريف، يسرا، فاروق الفيشاوي)، ولم يشارك بالطبع نجوم آخرون كيحيى الفخراني، أو فيفي عبده أو نبيلة عبيد، المهم ان ذلك يظهر ضعفاً انتاجياً، يشير إلى ان قطاع الانتاج التلفزيوني قد يلتحق بالسينما التي تكاد تختفي بسبب أزمة الانتاج، وما تقديم الاعمال العابرة، ذات الموضوعات "الترفيهية" الا دليل على ذلك.

النجاح في "اصطياد" نجوم الدراما السورية من مخرجين وممثلين (حاتم علي، تيم الحسن، جمال سليمان وسلاف فواخرجي"، لم يؤثر فقط على المنافس على الجهة المقابلة من معادلة الانتاج وحسب بل وكما قالت الفنانة نيرمين الفقي، وفر ممثلين جيدين وبأجور اقل من نظرائهم المصريين، هؤلاء النجوم الباحثون عن الشهرة بدورهم، والتي يجدونها في القاهرة - عاصمة الثقافة العربية ومركز الشهرة والانتشار - ولو كان ذلك على حساب الدراما الخاصة بوطنهم، يشفع لهم في ذلك انتماء قومي، وذهاب إلى مستقبل فيه تجاوز للقطريات، يحقق حلماً عربياً، بأن ينال العرب حصتهم من "العولمة" في تجاوز الحدود القطرية - سياسياً وجغرافياً.

على الرغم مما تحقق للدراما المصرية من نجاح في حرمان الدراما السورية من نجوم الصف الاول (جمال سليمان، أيمن زيدان، تيم الحسن..) الا ان المفاجأة جاءت من البوابة الخلفية "باب الحارة" الذي كانت تنتظره الناس بفارغ الصبر، رغم ان نجومه، حتى هذا العام، يعتبرون من الصف الثاني، رغم موهبتهم الفذة (عباس النوري وسامر المصري)، لدرجة ان الناس كانت تنتهي من صلاة التراويح على عجل - هنا في فلسطين - حتى لا تفوتها مشاهدة "باب الحارة".

ولم يشفع بريق حسن نصر الله، ولا احتجابه عن العيون منذ أكثر من خمسة عشر شهراً مضت، للناس حتى تضحي برؤية حلقة واحدة من هذا المسلسل الشعبي، الذي

يتناول حقبة لم توغل بعيداً بعمق التاريخ، لكنها تتمتع بالأخلاق الشعبية العامة، بكل ما فيها من نخوة ومن تكافل، تذكر بأجواء الانتفاضة الفلسطينية الاولى في سنواتها الاولى.

نجح "باب الحارة" اذاً، دون أن يتقصد ذلك، في أن يأسر قلوب المشاهدين، لأنه كان عملاً شعبياً، فيه صورة لماض ليس بعيداً، وبساطة غير متكلفة، وفن سهل ممتنع، لا حضور فيه للياقات المنشاة ولا للشعارات الصاخبة، تذكر بحبل ود بين أهل الحارة الواحدة، صار منقطعاً هذه الايام لأكثر من سبب.

في إقبال الفلسطينيين بالذات على "باب الحارة" احتجاج صامت على ما فعلته السياسة الفلسطينية العابثة بالثقافة الشعبية العامة وما ألحقته من ضرر بالنسيج الاجتماعي، من وحدته الاولى "الأسرة" وليس انتهاء بمجمل المصير الوطني، مع ذلك فإن الواقع يبقى واقعاً عنيداً بحاجة إلى "قوة" لتغييره، فيما يبقى "الفن" شيئاً من الوهم الذي يحقق متعة نفسية، بعد أن يحقق "توازناً" نفسياً ايضاً بين ما هو مأمول وما هو قائم.

جريدة الأيام 16 تشرين الأول 2007

الفرح الفلسطيني
من عرس الجليل إلى عرس النتيل

قبل نحو خمسة عشر عاماً تقريباً نجح المخرجان السينمائيان السوريان الكبيران محمد ملص وأسامة محمد، استناداً إلى كونهما عضوين في ادارة مهرجان دمشق السينمائي، في دعوة المخرج الفلسطيني المبدع ميشيل خليفي للمشاركة في عرض أفلامه، ولكن على هامش المهرجان!

حيث كانت تعقيدات السياسة تحول دون حتى عرض فيلم أسامة محمد نفسه، الذي كان قد فاز بجائزة قرطاج في تونس، والمنتج من قبل المؤسسة العامة للسينما في سورية "نجوم النهار" الا على هامش المهرجان، الذي يعتبر مناسبة تعقد دورياً كل عامين، في دور السينما السورية نفسها! عرض ميشيل خليفي في تلك الدورة، أو بمعنى أدق على هامشها، اي خارج اطار المسابقة، وخارج دائرة المساءلة الرسمية عدداً من أفلامه، كان منها "نشيد الحجر"، الذي اخرجه بمناسبة الانتفاضة الاولى، والفيلم الشهير "عرس الجليل".

وعرس الجليل هذا له حكاية مع المخرج ومع الناس، لكن حكايته الأبلغ في دلالتها، كانت قصته التي حاكت قصة واقعية اظهرت مفارقة نظام الحكم القائم على القمع والتمييز، بعد مرور أكثر من اربعين سنة على اقامة "دولة" اسرائيل، حيث كان يخضع المواطنون العرب الفلسطينيون لأنظمة الحكم العسكري/ العرفي، والتي من ضمن ما كانت تشترط عليهم، ضرورة الحصول على اذن مسبق من الحاكم العسكري، حين يرغب المواطنون في اقامة اي تجمع شعبي، ومن ضمن ذلك الأفراح.

اشترط الحاكم العسكري على أب العريس الفلسطيني، حتى يوافق على اقامة العرس ان يحضر شخصياً، ومعه بالطبع عدد من الجنود والمجندات، ما أحاط مناسبة فرح الفلسطينيين في الجليل، بإطار من المفارقة ووضعها في دائرة من التوجس والقلق.

كيف يمكن للفلسطينيين ان يطلقوا العنان لمشاعر الفرح في حضرة الحاكم العسكري وجنده المدججين بالسلاح، ربما كان ذلك سبباً في ظهور حبكة قصة الفيلم، حين عجز العريس عن القيام بواجبه تجاه عروسه في تلك الليلة. وفي قراءة الفيلم من هذه الزاوية ذهبت التأويلات بعيداً في اسقاطات الرموز، لتصل إلى حدود القول ان اجهزة الدولة الاسرائيلية تشل الحياة الطبيعية للمواطنين العرب، في محاولة منها لتشويه ثقافتهم

وتراثهم، الذي يجد في مناسبة العرس فرصة لإظهار لوحة ثقافية، يستعرضون من خلالها كل جماليات هذه الثقافة.

المناسبة التي دعتني إلى تذكر قصة عرس الجليل، وحكايته مع مهرجان دمشق السينمائي، هي ما تعرض له جار لي، حين عزم على اقامة عرس لأخيه، وهو من آل النتيل، حين فوجئ بقوة التنفيذية تطلب منه الذهاب إلى مركز الشرطة للحصول على ترخيص بإقامة العرس!

ضمن موجبات الحصول على الترخيص المسبق، هناك ما هو حق عام، وهناك ما يستند إلى الرغبة في "ضبط" ما يتخلل العرس من "أغانٍ" لا تروق لأولي الامر من سلطة تنفيذية، بعد تجربة يعرفها الجميع، تتعلق بعدد من حوادث الاحتكاك بالناس في مناسبات أعراسهم، لما يشدون به من أغانٍ أو أهازيج تندرج في اطار سياسة الفريق المناوئ لسلطة الامر الواقع.

هذه السلطة التي بدأت عهدها، ليس فقط بمجابهة "نخب" من كوادر أو عناصر تنتمي للتنظيمات الاخرى، ولكن في مواجهة حالتين شعبيتين، كلتاهما تعكسان مشكلة في التعامل مع الحالة الشعبية العامة: الاولى تتمثل في الأعراس والثانية في صلاة العراء. واذا كانت مثل هذه المجابهات تشير إلى ان المشكلة تكمن في طبيعة الإدارة، وفي طريقة حكمها، فإنها في الوقت ذاته تؤكد ان الحالة العامة لا يمكن ان تخضع ضد مشيئتها ورغبتها بالقوة، وكل من يعتقد بغير ذلك، فإنه يخسر الناس، هذا اذا لم يجد نفسه كل يوم على الطرف المقابل في مواجهتهم.

من الجليل إلى غزة، تختلف الدوافع وربما الاسباب، لكن الصورة الفلسطينية تصر على إكمال عناصرها، في تحديد حجم التحديات التي تواجهها داخلياً وخارجياً، ليبقى الإصرار الشعبي العظيم على ممارسة الحق في الحياة، وعلى كفاح الفلسطينيين الدؤوب من اجل انتزاع لحظة الفرح، مهما تعاظمت المعيقات التي تقف في طريقها.

فهل تلخص خلاص الفلسطينيين وكفاحهم في كلمة سر بسيطة، وهي البحث عن موجبات الفرح؟ ربما كانت الإجابة مرتبطة بالمآل النهائي لنتائج الكفاح السياسي من اجل الحرية والاستقلال، بتعميم الحرية على جميع المواطنين، لكن هذا - وقد أثبتت ذلك التجربة - لا يتوقف عند حدود الخلاص وحسب من قهر الاحتلال.

فعلى الطريق إلى الفرح النهائي والحرية المطلقة، كفاح فلسطيني داخلي لإقامة دولة واحدة موحدة، محكومة بنظام حكم تعددي، نظيف، وشفاف، معتدل، يجد الجميع فيه مكاناً لهم، على قاعدة المساواة والاحترام المتبادل. وإذا كانت الثقافة الوطنية قد تأكدت

بالحفاظ على التراث، وعلى الهوية في مواجهة كل محاولات التبديد، فإن الحفاظ على الذات، وعلى الهوية الوطنية، يتطلب ايضاً اقامة نظام حكم متوازن، على كل قطعة أرض من فلسطين يتم تحريرها، أو ينحسر عنها الاحتلال، حتى لو كان الحديث

يدور عن "مجرد" حكم ذاتي، أو حتى عن ادارة مجالس محلية.

في الصلاة يتساوى المواطنون أمام الله، وفي العرس تكون المناسبة لتجاوز الأحقاد ولمّ شمل العائلة والحارة والقرية، دامت الأفراح عامرة في بلادنا، ما دام إصرارنا على الحياة ما استطعنا اليها سبيلا، وما دمنا نرص الصفوف على الصفوف، ونجاور الأكتاف بالأكتاف ونشبك الأيدي بالأيدي، رحماء فيما بيننا أشداء على الآخرين.

جريدة الأيام 26 تشرين الأول 2007

القاهرة /طهران
تراشق بالأفلام!

إلغاء مباراة كرة القدم التي كانت مقررة بين منتخبي مصر وإيران، رغم انه لا ينطوي على تأثيرات مهمة على الرياضة في البلدين، كونها كانت مباراة ودية، تجيء ضمن تحضير الفريقين لنهائيات كأس العالم 2010، الاّ ان تأثيراتها على جهود التقارب بين البلدين اللذين لا توجد بينهما علاقات التبادل الدبلوماسي منذ ثلاثة عقود كبيرة، بما لا يبقي فقط على علاقة الفتور السياسي بينهما، بل ربما يزيدها تعقيداً.

فمع نهاية عقد السبعينيات، ذهبت كل من القاهرة وطهران في اتجاهين سياسيين متفارقين، وفي عام واحد (1979م)، عقدت القاهرة اتفاقية كامب ديفيد مع تل ابيب، فيما شهدت طهران ثورة الخميني، التي وضعت حداً لعلاقة التحالف بين إيران والغرب التاريخية، حين كانت إيران تحتفظ بسفارة اسرائيلية في عاصمتها، وهكذا في الوقت الذي كان فيه الحرس الثوري الايراني يغلق السفارة الاسرائيلية في طهران، كانت القاهرة تفتح سفارة اسرائيل على اراضيها.

وعلى مدى العقود الثلاثة الماضية، قادت القاهرة خط الاعتدال السياسي العربي، فيما تحولت طهران إلى قبلة لقيادة خط التشدّد السياسي في عموم المنطقة، وبحكم مكانة مصر، حتى مع الخلاف العربي معها على اتفاقيات كامب ديفيد، فقد مثلت القاهرة، رغم بُعدها الجغرافي عن طهران عقبة كأداء في وجه الطموح الايراني لتصدير الثورة في الشرق العربي، وقد تعزز ذلك، مع عودة القاهرة التدريجية خاصة بعد حكم الرئيس حسني مبارك المتوازن إلى القيام بالدور الريادي التاريخي لمصر في المنطقة العربية.

لم تنجح طهران، رغم مرور السنين بالكامل في "بسط نفوذها" السياسي على المنطقة، بسبب دور ومكانة القاهرة التي نجحت في تشكيل محور اعتدال عربي، أثمر اتفاقيتي سلام فلسطينية واردنية بعد اتفاقية السلام المصرية، رغم نجاح طهران في التقدم من خلال التحالف مع سورية وفصائل المقاومة - خاصة حزب الله، وهكذا يمكن القول بأنه إزاء كل محاولة لحل أي من ملفات التوتر في المنطقة (العراق، لبنان، فلسطين) تجد التأثيرات على الجانبين المتعاكسين بين طهران والقاهرة.

في الماضي كان الأمر أكثر حساسية، حين استضاف أنور السادات الرئيس المصري الراحل شاه إيران المخلوع في أيامه الأخيرة، حيث دُفن بعد ان مات في

القاهرة، فكان الرد الذي ما زالت ذاكرة المصريين تحتفظ به حتى الآن، طوال أول عشر سنوات من حكم الرئيس مبارك، مشاكل أمنية داخلية، عانت منها السياحة المصرية، التي تُعتبر من أهم دعائم الاقتصاد المصري.

رغم كل محاولات التقارب بعد ذلك بين البلدين، ظلت العلاقة متعثرة، ولم ينجح الطرفان في تحويلها إلى طبيعية باعادة التبادل الديبلوماسي رغم ان الأمر كاد يصل إلى ذلك قبل نحو عامين، والسبب في تقديرنا يعود إلى الدور الاقليمي الذي يلعبه البلدان في ساحة باتت مشتركة بينهما، لذا فان تأجيجه مجدداً، له علاقة بالمستجدات السياسية من جهة، ثم بالعودة إلى "رموزه" من جهة ثانية.

"إعدام فرعون" فيلم وثائقي منتج منذ أربع سنوات، وعرضه الآن، يؤكد توظيفاً ايرانياً واضحاً ورسالة سياسية واضحة إلى القاهرة التي سرعان ما استلمتها بانفعال، من خلال الرد عليها بالتحضير لانتاج فيلم "الخميني إمام الدم" على عجل، في اشارة إلى حرب سياسية مفتوحة، فضّل الطرفان الدخول اليها بأدوات غير معتادة، رغم انهما يمتلكان فيها الخبرة اللازمة من خلال صناعة السينما المتقدمة في كليهما.

كان يمكن بالطبع تجاوز الاستفزاز الايراني من قبل القاهرة، بطلب اعتذار رسمي، لكن الامر كان سيبدو وكأنه بمثابة اظهار عجز مصري على الرد المناسب من ذات "القلم" أو "الكف" الايراني، لذا فقد أجمع المصريون حتى الذين عارضوا انتاج فيلم "الخميني إمام الدم" من فنانين ونقاد سينمائيين على "الرد السينمائي" لكن من خلال رد الاعتبار للرئيس السادات بفيلم "محترم" يظهر سذاجة السينما الايرانية وتفوق مصر الفني/الحضاري عليها.

وإذا كان عرض الفيلم الايراني جاء في سياق التوظيف السياسي الرسمي، فان الفيلم المصري يجيء من خلال انتاج رسمي صريح، عبر مؤلف الفيلم محمد الألفي، رئيس تحرير جريدة "الوطني اليوم" لسان حال الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم، فيما جاء الاعلان عن اسم محمد فاضل كمخرج للعمل بمثابة رافعة فنية لفيلم "سياسي" مرتجل.

محمد فاضل نفسه أعلن انه يفضل ان يتم انتاج فيلم كرد على العرض السينمائي الايراني عن السادات من اكتوبر/ تشرين اول 1970 - منذ توليه السلطة إلى الضربة الجوية 1973م، التي اعتبرت ذروة الانتصار والتفوق العسكري المصري في حرب العام 37م.

أما لماذا جاء تفجير الأزمة في هذا الوقت بالذات، فإننا نعتقد بأن السبب المباشر يعود إلى تزايد حجم التأثير المصري على أحد أهم حلفاء إيران الذين كانت وما زالت

تراهن عليهم طهران، في حربها السياسية مع التحالف الأميركي/ الإسرائيلي وتحضيراته التي قد تصل إلى حرب عسكرية مفتوحة في أي وقت قادم، ونقصد بذلك حركة حماس، التي تعاظمت أهميتها خاصة بالنسبة إلى طهران في مناسبتين الاولى تحقيقها الفوز في نتائج الانتخابات العامة 6002، والثانية في سيطرتها على قطاع غزة.

اشارات مصر السياسية خلال الأشهر الماضية، كانت واضحة وصريحة، باظهار تخوفها من ازدياد النفوذ الايراني، من خلال المجموعات العسكرية الموجودة في قطاع غزة، حين كان المسؤولون المصريون يقولون بأن ايران على حدود مصر، ايران لم تقدّر حجم القلق المصري وحساسيتها تجاه حدودها الشمالية الشرقية، وهي حساسية تاريخية منذ أحمس الأول، مروراً بقطز والظاهر بيبرس وحكم المماليك وحروبهم كما حروب صلاح الدين في فلسطين.

النجاح المصري المتمثل في ازدياد مستوى التقارب مع حماس، وصولاً إلى تفاهمات التهدئة، اعتبر انجازاً لمصر، في الوقت ذاته تراجعاً في التأثير الايراني في هذا الموقع المتقدم (قطاع غزة) وهكذا يمكن القول بأن "مماحكات" سياسية عديدة ستشهدها المنطقة خلال الاشهر القادمة، وهي ناجمة عن حالة الترقب واعداد الاوراق، قبل الدخول في مواجهة عسكرية، يتم من خلالها التراشق بالصواريخ، أو سياسية عبر التلاعب بأوراق النفوذ السياسي، وما بينهما لا ضير من التراشق بالأفلام حتى، ما دامت حالة "الفوضى الخلاّقة" قائمة وسيدة للموقف.

جريدة الأيام 18 تموز 2008

محمود درويش
حروفٌ من ذهب

رغم أن للموت جلاله، الذي ينثر غلالات الحزن على الناس، فإنه يمكن القول بأن رحيل محمود درويش، لن يمثل سوى تحقيق للقدر الالهي، بنهاية كل انسان، النهاية الطبيعية، أما درويش الذي قهر الموت بمعناه المجازي، منذ أطلق قصيدته الاولى، فإنه سيبقى عصياً على الغياب.

ودرويش الذي وضعته موهبته، ثم مثابرته الابداعية الاستثنائية، في مكانة الرمز والعنوان، منذ خطّ بقصائده الاولى ابجدية الوعي الوطني الفلسطيني، ثم ملأ الدنيا وشغل الناس، كما سبق ان فعل المتنبي قبله بأكثر من ألف سنة، سيبقى حاضراً وفاعلاً على الأصعدة كلها، الوطنية، الثقافية والانسانية.

لقد شكّل درويش منذ قصيدته "سجّل أنا عربي"، وهو ما زال يافعاً على مقاعد الدراسة الثانوية، أول حرف في أبجدية الوعي الوطني الفلسطيني، الذي مثّل بدوره محتوى الهوية الفلسطينية المعاصرة، بعد ان تعرضت إلى مخاطر التبديد جرّاء النكبة العام 1984م.

وهكذا وجد نفسه الفتى الشاعر، ومنذ ان تفتحت قريحته الشعرية، في مكانة موضوعية، لازمت لاحقاً بين تجربته الشعرية وبين مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية بأسرها، وبعد ان خطت المرحلة الاولى من تجربته الشعرية باعث الهوية وصوت فلسطين المغتصبة، شكلت المرحلة التالية "تسجيلاً" حيّاً ومتطوراً لمحطات الثورة ذاتها، التي أحاطتها تجربته، بحيث صار صوت الفلسطينيين الرافض للاستسلام وللغياب، فكانت تل الزعتر/ احمد العربي، وبيروت خيمتنا الأخيرة، حتى انتهت المرحلة بالخروج من بيروت العام 1982م.

لينطلق بعدها الشاعر في تجربته المتطورة والمتجاوزة لذاتها ولتجارب غيرها، بعد اقامته في باريس، ليبدع شعراً انسانياً عظيماً، وضعه في مصاف الشعراء العالميين، في الوقت الذي منح فيه القضية الفلسطينية بعداً انسانياً عميقاً تجاوز سذاجة الشعار، ومباشرة ردود الفعل متجاوزاً بذلك إرث الشعرية العربية بأسرها.

هكذا ساهمت الموهبة الفذة والمثابرة المستمرة، والاجتهاد في عمق التجربة، بتأكيد حضوره الذي تجاوز حالة التعاطف مع كونه فلسطينياً أو شاعراً للمقاومة، التي اجترح

لها، عبر التجربة الشعرية ذاتها مفهوماً أعمق وأبعد من الكلمة/ الرصاصة، أو القصيدة المقاتلة.

وبعد مرحلة الاعتراض الشعري على الاغتصاب، جاءت مرحلة الاشتباك الثقافي/ الانساني، التي استمرت في فضح البعد الظالم والظلامي لمشروع الاقتلاع الصهيوني ولممارسات الاحتلال، فكانت "عابرون في كلام عابر" التي أثارت حفيظة الاسرائيليين الذين لم يجدوا ما يفعلونه للرد على القصيدة، سوى فرض الحظر والمنع على الشاعر وشعره، بعد ان نوقشت "القصيدة" وأبعادها في الكنيست.

ظل درويش اذاً ملتصقاً بشعبه وقضيته، رغم حالة التطور المستمرة في تجربته الشعرية، وهذا ما يفسر استمرار حضوره وفاعليته، بعد ان قبض ليس فقط على ناصية الحرف الشعري، الذي صار من فصيلة الذهب، بعد ان صار سيدُه سيداً للكلام، بل على المعادلة الصعبة، بالجمع بين الجماهيري والمتقن، فهو من جهة يقدم شعراً متطوراً يحظى بتقدير النقاد والمختصين، في الوقت الذي يجد فيه القبول الواسع من عامة الجمهور، ليس الفلسطيني وحسب، بل والعربي أيضاً.

محمود درويش، الذي تخرجت أجيال ابداعية، وليست شعرية فقط في فلسطين وسواها من الأقطار العربية من عباءته منذ ستينيات القرن الماضي، تحول ومنذ وقت مبكر إلى واحد من أهم الشعراء العرب، الذين حملوا راية الشعر الحديث، لكنه ومع مرور الوقت تحول إلى أهمهم على الاطلاق، لانه ظل حاضراً ومتجاوزاً وفاعلاً.

ليس أدل على ذلك من ملاحظة حضوره حتى أيامه الأخيرة، وفي كل العواصم العربية، من الرباط إلى دبي، مروراً بتونس، القاهرة، عمان، دمشق، بيروت، ثم رام الله، وفي ظل طغيان ثقافة الصورة، ظل درويش يغرد وحيداً في حضوره، حيث تتجمع الآلاف للاستماع اليه، في كل مكان، وهذا يظهر من خلال عدد وحجم الأمسيات المصورة - تلفازياً - والتي تشكل مادة اعلامية، بالغة الأهمية، تعد شكلاً جديداً ومستجداً، في تغطية فاعليات ومناسبات العزاء والتأبين.

الآن وبعد رحيله، وقد كان رمزاً موحداً للفلسطينيين المختلفين في الايديولوجيا والفكر والسياسة، والمتناثرين على لوحة الجغرافيا، والموزعين في الوطن (الـ 48 غزة، القدس والضفة)، وكل أماكن اللجوء والشتات، لن يحضر درويش لشخصه، ولن يضيف بعضاً من قصائد جديدة، لكنه ترك إرثاً وتراثاً عظيماً، تجاوز الثلاثين كتاباً، بين ديوان شعري ونثري، يمكن للمؤسسة الثقافية الرسمية والمؤسسات الثقافية غير الرسمية المختلفة ان تجعل منه باعثاً مستمراً للهوية، وللوطنية الفلسطينية، حتى تقبض الأجيال

الفلسطينية المتتالية على روح فلسطين، التي شكل الراحل درويش رمزاً فريداً من رموزها، لا يختلف عليه اثنان، تماماً كما العلم الوطني والنشيد القومي.

جريدة الأيام 12 آب 2008

هيفاء وهبي بين حرمة الفن وتحريمه!

قبل عدة سنوات، سئلت الفنانة القديرة السيدة أمينة رزق، عن رأيها في تحجب بعض الفنانات (ارتدائهن الحجاب واعتزالهن الفن) - وقد ظهرت كموضة أو كحالة في وقتها- فأجابت بأنها ترى الفن رسالة وقد عملت طوال عقود في مجال الفن على هذا الأساس، لذا فإنها لا ترى موجباً يدفعها للاعتذار أو الاحتجاب، فهي لم ترتكب أخطاء لتكّفر عنها، من يرى الفن غير ذلك، أو من يمارسه أو تمارسه كعيب أو حرام، ربما يجد وقتاً أو تجد وقتاً للتراجع والاعتذار، وربما ""التوبة"، وفي ظل الافتراق في المجتمعات العربية حول منظومة كاملة من القيم، فإنه يبدو ان الخلط في المفاهيم، وكذلك الخفة وربما الاستخفاف في اطلاق الاحكام والمواقف وحتى التنظيرات، هنا أو هناك، ممن هم ليسوا من ذوي اختصاص أو العلم أو الدراية، بات ممكناً وظاهراً وملحوظاً.

ولمناسبة حلول الشهر الفضيل، انشغل المواطنون العرب بترقب ما سيعرض من برامج ومسلسلات خلال الشهر الكريم، الذي تشير الاحصائيات إلى انه شهر استهلاك اقتصادي بامتياز، فيه تزداد المبيعات من المأكولات بكل أنواعها، وفي نهايته الملابس وحتى تداول العملات النقدية، كذلك يتضاعف عدد المشاهدين للمحطات الفضائية، حيث بات التقليد ومنذ سنوات، ان تقوم شركات الانتاج بإعداد المسلسلات لتعرض للمرة الاولى بالتزامن مع حلول شهر رمضان.

وإذا كان الممثلون من الفنانين، يحضرون بقوة أمام أعين المشاهدين فإن المطربين من الفنانين، لا يحتملون أو بعضهم على الاقل الانتظار حتى يحل العيد، ليقيموا "حفلاتهم" ويملؤوا جيوبهم بمئات ألوف الدولارات، لذا فقد ظهرت ظاهرة الخيام الرمضانية، حيث يقيم المغنون والمغنيات حفلاتهم مقابل مبالغ طائلة.

ي هذا السياق، أطلت الفنانة اللبنانية هيفاء وهبي، وتقدمت "فتوى" تعتقد فيها بانه لا يجوز الغناء في شهر رمضان، وأنها هي شخصياً، وفي ردها على كل من عرض عليها الغناء في الخيام الرمضانية، وآخرهم منتج البوماتها الغنائية محسن جابر، قالت انها

ستعتكف خلال شهر رمضان، وانه لا يجوز من وجهة نظرها الغناء في هذا الشهر الكريم!

لم توضح بالطبع الفنانة الشهيرة، الثرية بفضل حفلاتها وعوائد (كاسيتاتها)، كيف ستعتكف في الشهر الفضيل، وان كانت ستقضيه في صلاة التراويح أم في قراءة القرآن، أم انها ستؤدي العمرة مثلاً، وماذا عن المستمعين هل عليهم ان يعتكفوا، فلا يسمعوا اغانيها؟!

ليس هذا هو المهم، لكن الخفة والسهولة في إطلاق الحكم "الشرعي" الذي هو شأن "العلماء" الذين كان يمكن، بل ويفضل ان يعود اليهم كل من يشكل عليه موقف بإعطاء الفتوى وحكم الدين الحنيف، في الوقت الذي نعتقد فيه، كما سبق وقالت السيدة أمينة رزق، بأنه ليس كل الفن على الشاكلة نفسها، فنحن لا نعتقد بان اغاني مارسيل خليفة أو أم كلثوم حرام، وماذا عن أداء التواشيح والاغاني الوطنية والقومية، التي رافقت عبور الجنود المصريين خط بارليف في رمضان العام 1973م.

ربما كان لون من الغناء، بل وحتى من الأداء، الذي يخدش الحياء العام، غير مقبول، ليس في الشهر الفضيل وحسب، ولكن في كل شهور السنة، ذلك ان الفن الذي يساهم في الارتقاء بالذائقة والوعي، يؤدي رسالة نبيلة وفي غاية الاهمية، وهذا ما فعله الشعراء من المتنبي إلى درويش والمطربون منذ زرياب إلى عبد الوهاب، والسينمائيون من يوسف شاهين إلى ميشيل خليفة، التشكيليون والروائيون والمسرحيون على مدار التاريخ وفي كل مكان.

لكن على هامش الفن، كما على هامش الحياة، هناك من يرتزقون من الفن، فلا يتخلدون بقدر ما يغتنون، ولا يقابلون بالاحترام بقدر ما يقابلون بالاهتمام، ويحظون بالمكانة لدى العامة أكثر مما يجدون لهم مكانة بين الخاصة، لذا فإنهم يخططون بأنفسهم أو بفعل غيرهم إلى توظيف اعمالهم توظيفات ليس بالضرورة ان تتقاطع مع قيم لا خلاف حولها، بل توظف في صلب المناطق الخلافية.

هنا تكون التوظيفات السياسية والمالية وما إلى ذلك، وهنا كما المرشح في الانتخابات العامة، يكثر من الوعود وإطلاق الشعارات التي "ترضي" جمهور الناخبين، أكثر مما ترضي الضمير أو منظومة القيم والاخلاق وحتى العقل، يمكن ان يظهر كاتب أو فنان، أو من يعمل في حقل الابداع عموماً، ليحظى بالمال أو الشهرة أو الحماية، أو حتى صرف النظر عمّا يفعل!

على أي حال وفي كل الاحوال، فإنه لا يمكن توجيه اللائمة لمن يركب الموجة، بل إلى التيار الذي يذهب بالموجة هنا وهناك، واذا كان هذا هو حال المجتمعات العربية،

التي تقابل مسلسلاً تركياً (من نمط نور ولميس) لا لون له ولا رائحة، كذلك "باب الحارة" الضعيف في بنيته الدرامية - بكل هذا الترحاب، تماماً كما تقابل المهرج الذي لا يقول شيئاً، لانها تعبت واستسلمت وما عادت ترغب فيما يُعمل فيه العقل، فإن حاضراً ومستقبلاً مظلماً ينتظر هذه الأمة التي كانت - يوماً- خير أمة أُخرجت للناس، وما ارهاصات التداعي والتفكك والتراجع في كل المجالات وعلى كافة المستويات الاّ نذائر شؤم تدل على مكانة متواضعة ستكون عليها أُمتنا العربية الاسلامية بين الأمم وفي القريب المنظور.

جريدة الأيام 2 أيلول 2008

القدس : فاتحة الكلام

لم تكن إمارات الكرك، دمشق، حمص، حلب، الرها إلى بيروت، إلاّ سواراً يحمي مملكة القدس الصليبية، ويقف حاجزاً بينها وبين مضارب العرب الذين ما كفّوا عن التطلع إلى أولى القبلتين طوال مائتي عام تقريباً، ظلت فيها المدينة المقدسة أسيرة الاحتلال، إلى أن جاء صلاح الدين ووحّد مصر وبلاد الشام، فصارت "إمارات السوار" عبئاً على درّة التاج، فتحررت بعد واقعة حطين.

بقدر ما تمثل القدس هدفاً فإنها تشكل باعثاً لإعادة الحياة، ومحرضاً على الحرية، وهي تعيد بذلك الكلام إلى فاتحته الأولى، حين يجتمع العرب على كلمة واحدة، قد تشكل مناسبة اعتبارها عاصمة للثقافة العربية العام القادم2009 مدخلاً لها، على قاعدة إعادة الاعتبار إلى ثقافة عربية ناهضة موّحدة، يمكن ان تشكّل على كل حال، رغم هشاشة السياسة، التي ظلت بحكم تباين الأنظمة وصراعاتها الخفية، عامل فرقة رغم الشعارات هنا أو هناك.

يتدافع العرب إلى القدس، إلى أن يدخلوها، ليعيدوا لها الحرية ولذاتهم الاعتبار، وحتى يكون الأمر كذلك، فلا بد من إطلاق الثقافة من عقالها على أرض فلسطين، حتى يأخذ المثقف الفلسطيني دوره كفاعل في إطار الثقافة العربية، وكفاعل ايضاً في مركز الفعل الفلسطيني ايضاً، وفي الوقت ذاته.

في خلفية الفعل وفي إطاره، تتفاعل مفردات الثقافة فيما بينها، لتفعل في إطار محيطها، وهكذا يمكن للمناسبة التي ستستمر طوال عام كامل أن تشكل رافعة لاعادة

اعتبار الثقافة الفلسطينية بالسياسة الفلسطينية لتصحح مسارها، وتعيد توحيدها، وتعمق من وعيها بذاتها وبمشروعها كما كان حالها في دورتها الأولى قبل نحو نصف قرن.

وهذا يتطلب إعداداً جيداً وأفقاً واسعاً ومتسعاً، يضع في إطاره جميع المفردات، لإعادة إحياء أمل الناس بالحياة والحرية، حيث يمكن للمناسبة أن تكون فرصة ليس فقط لتنشيط الحياة الثقافية في فلسطين، ولكن أيضاً لاحياء الاتحادات والتجمعات والأطر النقابية، والأهم توحيد "اشتات" الثقافة الفلسطينية ذاتها، على طريق تحقيق واحدٍ من أهم وأنبل الأهداف الفلسطينية التي تعجز السياسة حتى لو نجحت في المدى المنظور بتحقيق هدف إقامة الدولة المستقلة، وهو توحيد الثقافة الفلسطينية، التي تحيط بالفلسطينيين أينما كانوا وأنى حلّوا وأقاموا.

وثوب الثقافة أوسع وأشمل من ثوب السياسة، ليس ضمن إطار التقسيمات والتصنيفات السياسية وحسب، ولكن الجغرافية والموضوعية أيضاً، فهي مناسبة إذاً ليعيد الفلسطينيون في كل مكان انتماءهم لأنفسهم، وليعيدوا إحياء تراثهم الثريّ جداً على صعيد الثقافة، كذلك ليعيدوا رسم المستقبل بعد أن شوشت السياسة وخلافاتها صورته الجميلة، التي شكلتها القصائد واللوحات، الأقلام والروايات والمسرحيات.

قد لا يتسع المكان، وقد تضيّق إجراءات الاحتلال، على المناسبة قدرتها على فعل "المستحيل"، لكن نبالة الفكرة وإطلاق الأحلام لا يزال ويبقى أمراً ممكناً، فعبر هذه الفاعلية، ستدرك الثقافة الفلسطينية مجدداً أنها ليست منقطعة الجذور، وأنها ليست على أرض يباب، وأنه يمكنها أن تجترح المعجزة، كما سبق وفعلت في عدة مناسبات، حين بشرت بالثورة المعاصرة.

من القدس إذاً وفي محيطها ستدبُ الحياة في أوصالنا، شرط أن نحسن صنعاً في المناسبة، وأن نحسن توظيف المشاركة العربية، حتى نعيد لأسوار القدس رونقها، وحتى نحلم بزوال الغيمة عن قببها في قادم الأيام، لا محالة.

وفي مواجهة الحدث، على كل من يؤمن بثقافة الحرية أن لا ينتظر قرارات أو تسهيلات أو ما شابه من إطار رسمي هنا أو هناك، وعلى الأطر الثقافية الشعبية أن تدفع باتجاه أن تجعل من المناسبة فرصة لإعادة الثقافة إلى مستواها الشعبي، فعلى كل اتحاد ونقابة ومركز ثقافي في كل مدينة وقرية ومخيم أن ينظم كل ما لديه من طاقات وأن يعدّ برنامجه لنشر ثقافته وتفعيلها على مدار العام، ويمكن لكل القطاعات الثقافة: شعر، قصّ، مسرح، سينما، فن تشكيلي موسيقي والى ما هناك، أن تبدأ في جمع أشتاتها عبر الاتصال الفردي والجماعي، حتى تكون المناسبة فرصة لتجاوز الآثار السلبية الفادحة التي نجمت

عن نكبة العام 84 بتشتيتها، هنالك من وسائل اتصال حديثه ما يمكنه أن يساعد على تحقيق هذه المهمة.

لو بقيت النظرة وظل التفكير في كيفية إحياء مناسبة القدس عاصمة للثقافة العربية 2009 حبيسة المستوى الرسمي، لظلت الفاعليات ضمن إطار وإسار المهرجانات الموقعية والاحتفالات ضمن إطار اللجنة وما إلى ذلك، لكن تحويل المناسبة إلى رافعة لإطلاق المكنون الشعبي لتحقيق أهداف بعيدة المدى، بات شعبنا ومجتمعنا بحاجة ماسة اليها وعلى أكثر من صعيد، ولو بقيت المناسبة ضمن إطار العلاقة الرسمية، لظلت المشاركة العربية خجولة ومحدودة، خاصة وأن هناك أسبابا تحول دون حضور المبدعين العرب إلى داخل القدس.

بقدر ما نعيد الاعتبار لرمزية القدس ولمكانتها، وبقدر ما نحرر النظرة من إطار التوظيفات قصيرة المدى، بقدر ما نجعل من القدس عاصمة حقيقية للثقافة العربية، ونجعل منها ايضاً عاصمة للهوية الفلسطينية، وعنواناً لا يختلف اثنان عليه أبداً، تعيد القدس الاعتبار لنا بقدر ما نعيد الاعتبار اليها، والأمر لا يتوقف عند حدود الشعارات الكاذبة أو الساذجة، بل يحتاج إلى فعل دؤوب ومنظم والى عقول متفتحة مع قلوب مفتوحة، حتى يعود الكلام مفهوماً بيننا، لا بد أن تكون القدس فاتحته وعنوانه، إلى أن تعود مدينة للسلام والوئام، حين تعود لها السيادة العربية، كما كان حالها منذ أن فتحها عمر، ومنذ أن أعاد لها هويتها صلاح الدين.

جريدة الأيام 12 تشرين الأول 2008

مسرحيون انفصاليون

من الصعب الحديث عن الواقع الفلسطيني الراهن، الذي بات لا يسُر صديقاً ولا يغيظ عدواً، بمعزل عن سوء الأداء العام، وحيث انه لم يعد ممكناً على من اعتاد تقديم الاعذار بتبرئة الذات، مما تتعرض له من تدمير، بتعليق الاسباب "على الطليان"، فانه أيضاً لا يمكن مواصلة الحديث عن ان السبب في حالة الانقسام الراهنة، تتحمله القوى السياسية، رغم انها تتحمل المسؤولية الأساسية والمباشرة.

فمنذ ان أطلق الفلسطينيون مشروعهم الوطني، وللثقافة والمثقفين دور بارز وأساسي في رعاية هذا المشروع، وفي الوقت الذي شكلت فيه المنظمات الشعبية إحدى أهم ركائز م.ت.ف، الاطار الذي جسد ذلك المشروع، بعد ان بشر به مثقفون ومبدعون، صاغوا الهوية الفلسطينية، وقادوا معركة الدفاع عنها ضد حملات التبديد والمصادرة، حتى تحقق ذلك المنجز العظيم الشعري والسينمائي، المسرحي والتشكيلي والموسيقي، لدرجة انه وخلال مسيرة المنظمة الطويلة والحافلة، كان مؤتمر الاتحاد العام للكتّاب والصحافيين الفلسطينيين يمثل "بروفة" المجلس الوطني، وهذا ما تأكد في دورة الاتحاد التوحيدية بالجزائر العام 87، التي فتحت الطريق لدورة المجلس التوحيدية التي عقدت بعد ذلك بأسابيع قليلة في نيسان من العام نفسه.

انسجاماً مع هذا الإرث الثقافي/ النقابي، ما زال يتطلع المثقفون الوحدويون، ومعهم شرائح واسعة شعبية إلى دور فاعل للمنظمات الشعبية، وعلى وجه الخصوص تلك التي لها علاقة بالشأن الثقافي، لما تتمتع به من وعي متقدم، لمساهمة حاسمة في التأكيد على ثقافة الوحدة، وفي المشاركة بالجهود الوطنية العامة، لوضع حدٍ لحالة الانفصال القائمة.

هذا ما تتطلع اليه احتفالية القدس عاصمة الثقافية العربية 2009، من خلال رفعها لشعار القدس توحد ولا تفرق، وما يسعى اليه مثقفون كثر من خلال الحفر في الصخر، لتنشيط الحالة الثقافية، على اعتبار ان "الانفصال" يستمد قوته من ثقافة ظلامية، أو على الاقل يستند إلى ثقافة لم تنتجها الثقافة الوطنية، المتحققة عبر العقود الماضية، معتمدين في ذلك على عوامل عديدة، منها التطور التكنولوجي، الذي فتح الابواب واسعة للتفاعل الثقافي والاعلامي، بين كل البشر، وليس فقط بين الفلسطينيين، الذين يعانون - دوناً عن كل البشر- من شتات، حال دائماً في الماضي، دون تفاعل الكتّاب والفنانين الفلسطينيين، المتواجدين والموزعين على أرجاء المعمورة.

في سياق البحث عن تجاوز مثالب عمل المنظمات الشعبية الفلسطينية، في السنوات السابقة على ثورة الاتصالات، نشأت حالة من التواصل، عبر الفيديو كونفرنس، وعبر الاتصالات الهاتفية والالكترونية، التي تساعد الفلسطينيين على تجاوز الحواجز التي يضعها الاحتلال الاسرائيلي قسرياً وبشكل مقصود ما بين الفلسطينيين، ليس بين اولئك المقيمين في الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة، وحسب، ولكن أيضاً تلك المرتبطة بحواجز الجغرافيا/ السياسية بين الداخل وبين داخل الداخل، والداخل والخارج.

اعادة تفعيل الاتحادات والنقابات، وفي مقدمتها اتحادات وروابط الكتّاب والمسرحيين، السينمائيين والتشكيليين والموسيقيين: لا تنطوي على وجاهة تفعيل وتحديث م.ت.ف، وحسب، ولكن تنشيط الحياة الديمقراطية، وتفعيل شرائح فاعلة في المجتمع، كانا وسيبقيان دائماً على درجة بالغة من الأهمية. لذا فانه لا يمكن النظر إلى عقد مؤتمرات واجتماعات هذه الاتحادات والاطر النقابية الاّ بروح التشجيع والتأييد والدعم.

من هذه الزاوية، كان بودي ان أُبارك للزملاء المسرحيين في الضفة الغربية، الذين عقدوا مؤتمراً عاماً، قبل أيام لمجرد قيامهم بهذا الاستحقاق الديمقراطي الداخلي، الاّ ان الشكل الذي خرج به المؤتمر حال دون ذلك، لأن المجتمعين من أعضاء الهيئة العامة لرابطة المسرحيين الفلسطينيين في الضفة الغربية، ذهبوا إلى انتخاب هيئة ادارية لرابطة المسرحيين الفلسطينيين، بما أخرج - وعلى الأغلب بحسن نية- الاطار النقابي، على انه يمثل المسرحيين الفلسطينيين!

لو أن الزملاء الذين اجتمعوا في الضفة الغربية، اعلنوا انهم يمثلون فرعاً من فروع الرابطة، لكان الأمر سوياً، لكن ان يخرج بهذا الشكل، مسرحيون من الضفة الغربية لاعلان رابطة المسرحيين الفلسطينيين، يذهب إلى ثقافة انفصالية، بكل معنى الكلمة، التي لا يمكن ان يكون لها معنى آخر، هنا حديث الوحدة الذي يجب ان يضم على الأقل - وحدات الوطن موضوع الدولة- أي الضفة والقطاع والقدس، يمكنه ان يتسع حتى للمسرحيين الفلسطينيين في مناطق الـ 48، والاردن والشتات.

من الممكن التعلل بالأعذار ذات الطابع التنفيذي، أي الحديث عن مشاكل حالت دون ان يجتمع فرع قطاع غزة مثلاً، أو انه يمكن لمسرحيي القطاع ان يجتمعوا لاحقاً، كما حدث في الدورة السابقة، لكن ما لا بد من توضيحه، حتى لا نكرس ثقافة الانقسام، دون ان ندري، ان المؤتمر الذي انعقد في الضفة الغربية، وان هيئته الادارية التي نتجت عنه، ما هما الاّ فرع من فروع الرابطة، رغم انه كان يمكن، ولا بد من التفكير منذ الآن،

بامكانية اللجوء إلى التقنيات الحديثة في عقد الاجتماعات العامة، الفيديو كونفرنس، والهواتف ووسائل الاتصال الالكترونية.

في كل الاحوال، ممنوع على الفلسطينيين، وفي طليعتهم المثقفون، العودة بالثقافة الفلسطينية إلى الوراء، فان لم يكن ممكناً أو كان متعذراً توسيع دائرة الاتحادات والأطر النقابية لتشمل الفلسطينيين، اضافة إلى الداخل ومن هم بالخارج أيضاً، فليس أقل من الحفاظ على تقاليد العمل الراهنة، وما كان يجب ان تمر حادثة تشكيل رابطة المسرحيين الفلسطينيين - بهذا العنوان- في الضفة الغربية، فقط، دون ان تثير اهتمام وانتباه المهتمين بالشأن الثقافي الوطني، وما تفسده السياسة - من فعل انقسامي- على الثقافة ان تصححه، وهذا أضعف الايمان.

جريدة الأيام 24 شباط 2009

أخيراً : انفتحت جبهة الثقافة؟!

كانت فلسطين بأسرها، على موعد مع صفحة جديدة، يوم السبت الماضي، الموافق للحادي والعشرين من آذار، فقد كان المشهد في بيت لحم مشرقاً، كأنه الربيع. وكيوم الكرامة، وكبهاء الأم الفلسطينية، التي غطّى ثوبها صفحة الأرض المقدسة، من شرقها إلى غربها، ولم يكن بهاء ساعتين، أعلنت خلالهما لجنة احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية، مجرد حدث يعلن عن البدء بفعاليات الاحتفالية التي ستمتد على مدار ما تبقى من العام الحالي وحسب، ولكنها مثلت مفتتحاً ربما يكون بالغ الأثر على مجمل تطور الحالة الفلسطينية في المستقبل.

فاذا كان المشهد بالغ التأثير في اظهاره وحدة الفلسطينيين، في الضفة والقدس وغزة والـ 48والشتات حول العنوان - القدس- فان فتح جبهة الثقافة - أخيراً- يدل على ان الفلسطينيين قد وضعوا مجدداً اصبعهم على عودة متجددة للكفاح الوطني كما يجب ان يكون - في إطار وحدة الفلسطينيين في كل مكان، حول القدس عنواناً ومركزاً للكفاح، وابتداءً من جبهة الثقافة، التي ظلت مغيبة خلال سنوات ليست قليلة مضت.

هذه الجبهة التي تضع الصراع في سياقه الحضاري والانساني، هذا السياق الذي يكسب من خلاله الفلسطينيون المعركة لا محالة، على اعتبار ان الهجمة الصهيونية ارتبطت بحركة عنصرية فاشية، أفضل مكانٍ يمكن ان تفضح فيه هو هذا الإطار، الذي يستند فيه الفلسطينيون إلى تراث ثقافي/ حضاري عريق، يمتد آلاف السنين، وقد أوضحت الصورة، انه يمكن وراء وحدة الفلسطينيين حول العنوان المركزي ان يوحدوا العرب والمسلمين والمسيحيين والانسانية بأسرها. ويفتحوا الباب واسعاً لمعركة رابحة دون أدنى ريبٍ أو شك.

منذ البداية أدرك د. رفيق الحسيني، قائد الحملة الثقافية أبعاد المعركة حول القدس، وفي إطار جبهة الثقافة، حين رفع شعار إطلاق حرب العصابات الثقافية، ذلك انه على مدار عام، سيجد الكتّاب والمبدعون الفلسطينيون انفسهم في "حالة حرب" مع الهمجية الاحتلالية، حول كل فاعلية، وتجاه كل فعل ثقافي - من الامسية الشعرية إلى عرض الفيلم أو اقامة المعرض، وليس انتهاء باطلاق الاغنية التراثية.

لن يجد الكتّاب ولا الفنانون الفلسطينيون بعد ذلك الافتتاح عذراً أو مبرراً لا للتقاعس ولا للانزواء عن تلبية نداء الوطن - نداء القدس- بالانضواء في إطار هذه المعركة التي

لا تعيد الاعتبار الانساني لهم فقط، ولا حتى للفلسطينيين جميعاً، بل للانسانية بأسرها، بما في ذلك كل من يقطنون على تراب هذه الأرض المقدسة، أرض السلام، التي هي أحوج البلاد الآن إلى السلام، الذي لا يتحقق الاّ بالحاق الهزيمة بالاحتلال، الاحتلال الاسرائيلي الذي يدنس عاصمة الايمان والثقافة، مدينة السلام، بأبشع الصور والممارسات.

عام بأكمله يمثل فرصة لكتائب الثقافة ان تمارس دورها، فعلها وواجبها الوطني والانساني، ولا عزاء لمن لا يقتحم الحدود الوهمية، جغرافية كانت أم سياسية، فاذا كان الاحتلال سافراً في عدائه لجوهر الحالة فان المبدع بجوهره الانساني، لا بُد ان يكون واضحاً أيضاً، وعليه ان لا يختبئ وراء أية مبررات، تسوقها ملاحظات ذات طبيعة ادارية هنا أو هناك، أو ذات طبيعة سياسية، وقد حسمت العفوية الثقافية كل ما يمكن ان يلحق بالمبدعين من تردد أو تثاقل، حين جاءت الناصرة إلى القدس/ بيت لحم، وحين ردد مار الياس اغنيات العودة، وحين هتفت غزة - لبيك يا قدس!

هي فرصة لتصحيح الأوضاع السياسية أيضاً، ذلك انه على مدار أربعة عقود مضت، لم يول الفلسطينيون كثير أو جُل الاهتمام لوحدة الفلسطينيين في مربعات الداخل، ثم بين الداخل والخارج الاهتمام الكافي، حيث لا يعقل ان يشارك في معركة أو حرب الفلسطينيين من اجل الحياة ما استطاعوا اليهما سبيلا - على هذه الأرض- سيدة الأرض- التي تستحق الحياة، بعض الفلسطينيين - في غزة والضفة- من أجل دولة مستقلة عليهما، دون ان يتسع المشروع الوطني لكل الفلسطينيين حيثا كانوا واينما حلّوا.

إدارة ناجحة وواعية لفعلٍ ثقافي خلال هذا العام، وفي هذا الإطار، لا تحرك فقط الأوصال التي تيبست بفعل التقاعس والخمول، لكن أيضاً تفتح الباب واسعاً لاعادة تصويب العلاقة بين الثقافة والسياسة، بما يفعل الأولى ويطورها، ثم يوحدها، وبما يصوب الثانية، وينتقل بها من دائرة العلاقات العامة، إلى دائرة العقل المخطط والمبرمج وفق اهداف استراتيجية.

يمكن للفلسطينيين وعليهم ان يتفاعلوا في الثقافة فيما بينهم أولاً، ثم فيما بينهم وبين الثقافة العربية والعالمية ثانياً، يمكنهم خلال هذا العام ان يتعرفوا إلى جوقة الغناء العظيم الذي ينطلق من الجليل، وعلى السينما المبدعة التي تنتجها الناصرة، على مسرح القدس ورام الله، وعلى لوحة تشكيلية شابة تخرج من غزة، وعلى شعر وسرد وثقافة فاعلة، تنتشر وتتوزع على كل أماكن وجودهم في الشتات.

ذلك انه دون وحدة ثقافية فلسطينية، لن ينفتح الباب لوحدة سياسية حتى لو كانت متنوعة ومتعددة، ودون وحدة فلسطينية، لا مكانة لائقة للفلسطينيين - لا كأفراد ولا كمجموعات- في هذا الكون المتفاعل- ولدى الفلسطينيين ميزة لا تتوفر لدى الكثير من شعوب العالم، وهي توزعهم الجغرافي/ السياسي، الذي يمكن ان يتحول - عبر فتح آفاق التفاعل فيما بينهم- من مثلبة أو عقبة، أمام التوحد في دولة مستقلة، إلى ميزة تضعهم على صلة بالمتنوع والمتعدد الكوني.

هذا يشترط ان يتفاعلوا فيما بينهم أولاً، وان ينفتحوا على ذواتهم، وان يشكل المدخل الثقافي بوابة لحوار داخلي واسع وعميق، يحول دون مغامرات السياسة الاستمرار في متاهة الانفصال، أو بامكانية العودة اليها مجدداً في مناسبات قادمة.

بعد افتتاح احتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية، على هذه الصورة البهية، وبهذا الشكل الذي يليق بالقدس وبكفاح الشعب الفلسطيني، لن تستكمل الصورة، بل لن يكون لها معنى، سوى الذهاب إلى الارشيف، والاستقرار كصورة في الذاكرة، ما لم يتحول الافتتاح إلى مفتتح لورشة تفاعل مفردات وتجمعات الثقافة الفلسطينية فيما بينها، وفيما بينها من جهة وبين المجتمع من جهة ثانية.

وبعد عام من فاعليات ناجحة ومستمرة ومتواصلة، يمكننا حينها ان نحصد ما زرعنا خلال عام، من اعادة اللياقة والوحدة للثقافة الفلسطينية، التي حينها ستؤثر على نخبة السياسة لتصويب أدائها، وربما باطلاق مشروع وطني/ متجدد، يزج هذه المرة بعشرة ملايين فلسطيني في اطار كفاح وطني/ انساني، سينجح لا محالة بوضع فلسطين على خارطة العالم الحديث/ العصري./ المتفاعل، وبنزع غلالة الاحتلال عن وجه القدس المقدس.

مرحى للدكتور رفيق الحسيني ورفاقه الذين كافحوا على مدار أشهر مضت، في ظل ظروف محلية وعربية بالغة ونجحوا في اخراج افتتاح لائق، وكل الدعم والتشجيع لهم، حتى يستمروا في مواصلة تنفيذ فاعلياتهم، خاصة بين اسوار المدينة المقدسة، وفق حرب عصابات ثقافية، هي الطريقة الأصوب لمواجهة احتلال المدينة البغيض.

جريدة الأيام 24 آذار 2009

الفن مسؤول أيضاً!!

كان من المؤسف جداً أن تنتهي المواجهة الكروية بين مصر والجزائر، بأحداث الشغب في أم درمان، وكان من المثير للحنق خروج بعض الاصوات المسؤولة أو المؤثرة لتؤجج الحقد بين الشقيقين اللذين تربطهما بشكل خاص علاقات تاريخية وثيقة ترسخت منذ ثورة التحرير الجزائرية وبعد اقامة دولة الجزائر، التي رعتها مصر كشقيقة كبرى، بكل ما اوتيت من قدرات وامكانيات وعلى كافة المستويات، خاصة على صعيد التعليم الذي تصدى لمهمة التعريب لطي صفحة "الفرنسة" التي استمرت على مدار 130سنة خلت.

من بين ما لفت الانتباه بالمعنى الايجابي عرض واحدة من القنوات المصرية الفضائية للفيلم المصري "جميلة"، الذي يروي قصة البطلة جميلة بوحيرد، لبث رسالة الاخوة بين الشقيقين، واخراج المنازلة الكروية من دائرة الشحن، ذلك ان المسؤول الإعلامي عن القناة استشرف بحسه الفني ما يمكن ان ينجم عن "التعبئة" من مخاطر ومشيراً ربما إلى بعض الدوافع غير الرياضية وغير المسؤولة للغلواء في التحشيد وما إلى ذلك.

بعد ما حدث من أحداث شغب، وللحفاظ على كرامة المصريين، كان يجب اللجوء للوائح "الفيفا"، ومعالجة الامر بهدوء وتروٍّ، واذا كان مستوعباً غضب الناس في الشارع - فإن ما يصدر عن بعض الشخصيات المسؤولة والمؤثرة، هو ما يثير علامات التساؤل، ولأن الفن مسؤول ويعتبر اصحابه مؤثرين، خاصة اذا كانوا مشاهير، مثل الفنانتين نانسي عجرم وهيفاء وهبي، اللتين تعتبران فنانتين من اصحاب الملايين، اي من اهم الفنانات اللواتي أثرين سريعاً وبشكل فاحش، كما لم يحدث مع بتهوفن ولا بيكاسو، بل ولا حتى مع أم كلثوم وعبد الحليم حافظ، لذا فإن الفن المسؤول يحتم على اصحابه ان يتخذوا المواقف العاقلة، التي تصلح بين الاشقاء. هذا ما فعله الفنانون المصريون، وهذا ما يفعله دائماً الفنانون العرب بشكل عام، والمواطن العربي بحسه العام، يفرق بين ما ينتج عن الفنان من فن، وما يقوم به من مواقف، رغم ذلك يبقى لكل فنان إرثه وتراثه من انتاج فني ومن مواقف تؤكد إن كان فناناً نظيفاً أو انتهازياً، وهذه لا تتطابق على تلك، فكم من فنان موهوب ومبدع، كان انتهازياً، وكم من فنان اقل موهبة، كان يتحلى بالمواقف الشجاعة والنظيفة.

في سياق مشابه، وحيث يمكن النظر إلى زيارة بعض الفنانين السوريين إلى غزة، من زاوية حسن النية، وعلى انها تعبير عن الحب والتعاطف مع بعض الفلسطينيين - المقيمين في غزة - المحاصرة، منذ ثلاث سنوات، لكن على هؤلاء ان يتفهموا سلفاً، اذا لم يقم الفلسطينيون من اهل القطاع، عن بكرة أبيهم، أو إذا لم يخرجوا خفافاً لعناقهم واستقبالهم، ذلك ان الفلسطينيين الذين لديهم خبرة طويلة في الكفاح الوطني، يعلمون أكثر من غيرهم معنى الحصار، وان المجاملات على حلاوتها، لا تزيل عنهم طوبة واحدة من جدار الحصار، كذلك هم كالمسجون الذي رغم انه يفرح بزيارة بعض اهله، اقاربه، أو اصدقائه له في السجن، الا انه يفضل ان يخرج من السجن.

والفلسطينيون في غزة، يعلمون الآن، أكثر من غيرهم بأن الطريق إلى انهاء الحصار ودك جدرانه، انما يبدأ من بوابة المصالحة، وليس لديه أوهام بل ربما ولا حتى رغبة في تحقيق ما هو أسمى من إتمام المصالحة، كما ان الفلسطينيين في غزة، ورغم ما هم فيه، الا انهم وبروح التضامن الوطني، التي تجلت على أنصع ما يكون في الانتفاضة الاولى العام 1987م، يفضلون ان يتركز التضامن والدعم كله للمقدسيين، ولمواجهة الاستيطان، فغزة رغم حصارها، محررة من الاحتلال، لن تتبخر، ولن تندثر، والمعركة الآن مع الاسرائيليين حول القدس، من أجل تحريرها وتعريبها، ومن أجل تحرير الضفة الغربية من الاحتلال ومن المستوطنين.

والكل يدرك أن أهل غزة، بعض من الفلسطينيين، والفلسطينيون يميزون تماماً بوعيهم، بين من يحب بعض الفلسطينيين ومن يحب كل الفلسطينيين.

وقد كان هذا العام بالذات - القدس عاصمة للثقافة العربية 2009- مناسبة اظهرت مكانة القدس ومكانة فلسطين لدى معظم المثقفين العرب كتاب وفنانين، الذين انخرطوا بعيداً عن الإعلام، وعن الإثارة، بعيداً عن بؤر التجاذب، التي يمكن ان تحشر الثقافة في دوائر التوظيف الحزبي والسياسي، حين تحولت المناسبة إلى فعل ثقافي، ترددت عبره القدس بكل معالمها في كل العواصم العربية، لدرجة دفعت الفنان السوري الكبير عباس النوري لأن يطالب - في موقف عظيم - بإعلان القدس عاصمة أبدية للثقافة العربية.

يحتاج الفلسطينيون إلى فتح جبهة الثقافة في وجه الاحتلال، ويحتاجون إلى المبدعين العرب - كتاباً وفنانين -، ولكن ليس من بوابة التضامن العابر، ولكن من خلال برامج عمل، تضع الثقافة العربية "في ظهر" الثقافة الفلسطينية لتثبيتها في حرب المواجهة ولتدعيم أركانها، وتحتاج البرامج إلى أدوات وإلى ميزانيات ايضاً، والى مشاركة كل أجناس الإبداع الأدبي والفني، وهذا يتطلب - بصراحة - قدراً من الالتزام، وكثيراً من الرؤية، ويحتاج ايضاً إلى تضحية، لأن هذا الفعل، لن يكون فعلاً تجارياً مربحاً.

هنا يمكن ان يظهر الفارق بين فن ملتزم، وفن يلهو، فن يكتفي بالعائد المعنوي، وآخر يحدد موقفه بناءً على معيار الربح والخسارة التجاري، فن ينحاز إلى قضايا الشعوب ويرى في القضية الفلسطينية بالذات قضية شعب فلسطيني محتل ومشتت، يحتاج دولة موحدة تجمع شتاته، وتؤكد هويته الوطنية، وفن يجامل الانظمة والاحزاب أو القوى السياسية. والشعب الفلسطيني خبر عبر تاريخه، بأن من وقف معه على مدار ستين عاماً كانت القوى الشعبية والدول ذات الانظمة الشعبية، من حركات التحرر والمعسكر الاشتراكي، ثم الإطار العربي وعدم الانحياز بشكل عام، فيما لا تنتابه الثقة بأنظمة تقهر شعوبها، وبعضها حاول توظيف الشعار حول فلسطين من أجل تعزيز سيطرة ظالمة أو تحقيق حضور غير مسؤول.

جريدة الأيام 24 تشرين الثاني 2009

القدس 2009 تكشف عورة النخبة!

بقدر ما شكلت القدس باسمها الذي يحيل إلى كل ما هو رفيع ومقدس وروحاني، بقدر ما شكلت النشاطات التي ارتبطت بها، ونفذت تحت عنوانها فعلاً حيوياً، اخرج الفلسطينيين إلى حدود واضحة من حالة التعب وحتى القنوط، ومن جملة الاحباطات التي قادتهم اليها سياسات عابثة ومرتجلة وحتى غير مسؤولة.

وعلى مدار عام مضى، شكلت الثقافة التي تحركت مفرداتها وقوتها الكامنة، ضمن إطار القدس عاصمة للثقافة العربية العام 2009 باعثاً يجدد الحياة في اوصال الفلسطينيين اينما وجدوا، بما يوحدهم وجدانياً ووطنياً، وبما يطرح اسئلة المستقبل على مصراعيها، مع انتهاء المناسبة، وفي مقدمة هذه الاسئلة ماذا بعد؟

هل ينتهي أمر هذا الحراك الثقافي عند تلك الحدود، ثم تعود "ريما إلى عادتها القديمة" ام انه يتوجب على المهتمين والمتابعين ان يجلسوا ليراجعوا جدياً ما حدث، ثم يقوموا بالبناء عليه والتخطيط لما يمكن ان يقوموا به لاحقاً، بما يضمن استمرار هذه الحالة بتفاعلاتها، التي يمكن ان تتحول إلى شيء نوعي؟

خلال عام، وكما لم يحدث من قبل، وكما من الصعب ان يتكرر فيما بعد، جرت فاعليات ومن ثم تفاعلات ثقافية عديدة، ومتعددة ومتنوعة، شملت كافة القطاعات من انتاج وعروض في المسرح والسينما، الشعر والادب، الفن التشكيلي والموسيقي، وشهدت فلسطين والجاليات الفلسطينية في الشتات مئات النشاطات وكان من ضمنها فعاليات تحدث لاول مرة وذات طابع نوعي - نقصد بذلك المهرجانات والتظاهرات السينمائية والمسرحية.

وبقدر ما حركت هذه الفاعليات المشهد الثقافي وحتى المجتمعي، خاصة في مناطق محاصرة - مثل قطاع غزة - وبقدر ما اشرت اليه من اهمية الفعل الثقافي وعودته ليأخذ دوره ومكانته في معركة الفلسطينيين على طريق انتزاع حقوقهم الوطنية، بقدر ما كشفت من زاوية اخرى عودة ما يسمى بالنخبة السياسية، الثقافية والمجتمعية، والذي على ما يبدو، انها - اي النخبة- وهي ليست معزولة عن الحالة العامة المأزومة، لا تشكل في طبيعتها الراهنة مفتاحاً ولا حتى عاملاً من عوامل الحل أو علاج الحالة، بل على ما يبدو ان ذلك الحراك شكل مناسبة للذهاب إلى القول بأن اخراج الحالة الفلسطينية الراهنة من مأزقها، لا يتطلب اجتراح آليات عمل وتنظيم الاداء العام، وحسب، ولكن ايضاً اطلاق

التفاعلات الثقافية/ السياسية والمجتمعية بهدف انتاج نخبة قيادية جديدة، قد لا تخرج من عباءة تجديد ما هو قائم، بقدر ما ستخرج بنخبة جديدة تماماً.

تكفي الاشارة هنا إلى مستوى الاهتمام الذي اظهرته النخبة بإقامة جملة التفاعلات المشار اليها، ففي سياق التفاعل والاهتمام بعشرات الفعاليات الثقافية في قطاع غزة - على سبيل المثال لا الحصر - وحيث توجد نخبة تعدد بضعة آلاف من قادة فصائل وعمل ميداني، ومن كتاب وصحافيين وإعلاميين، ثم قادة مجتمع أهلي ومدني، ورجالات دولة ومجتمع وعاملين في المنظمات الاهلية، كان من تفاعلَ مع التظاهرات التي لفت بعضها انتباه الناس على بعد آلاف الاميال، لا يعد على اصابع اليدين إن لم نقل على اصابع اليد الواحدة.

ولم يقتصر الامر على غياب الحضور الشخصي والتفاعل الذي يفيد حتى بالمعنى الشخصي، وذلك انه لا يمكن لقائد سياسي ان يدعي قيادته لشعبه وهو يجلس في بيته، لا يهتم إلى ما يشكل ثقافة هذا الشعب أو ما يثير اهتمامه، كما لا يمكن لمبدع، فنان، أو مثقف ان يبرر تقدمه بانتاجه الابداعي، فيما هو لا يهتم بابداع الآخرين، كذلك لا يمكن تفسير عدم اهتمام منظمات المجتمع المدني، باقامة معارض الفن التشكيلي، أو العروض السينمائية أو المسرحية، وفي الوقت ذاته نستمر بالادعاء انها تسعى إلى اقامة مجتمع مدني تبدو اقامة الفعاليات الثقافية إحدى أهم أدوات تدشينه.

بالتفاصيل يمكن الاشارة وعلى سبيل المثال، فقط إلى اقامة تظاهرة فنية كانت الاولى من نوعها، ولم يجد القائمون ع ليها، سوى قائد حزبي واحد، في الوقت الذي يتسابق فيه "القادة" إلى الفضائيات والى وسائل الاعلام، لتقديم أنفسهم، وكأنهم باتوا نجوم سينما أو مسرح، لكن المسرح هنا ليس وهمياً، ذلك ان التراجيديا التي تظهر عليه، انما تجسد عذابات الناس. ولأن الاعلام ايضاً، هنا والآن، في فلسطين، هو اعلام حزبي مسيس فانه قد هزّ اكتافه ازاء فعاليات تعيد الاعتبار إلى وحدة الشعب وعلى دعم سياسته العارية والساذجة بالبعد الثقافي الذي يمنحها الكثير من شرعية تفتقدها الآن.

هناك استثناءات محدودة تؤكد القاعدة العامة ولا تنفيها، لكن من الواضح ان هناك حالة خواء أحد اسوأ عناوينها - النخبة - التي لم تعد نقدية ولا مسؤولة بالمعنى الاستراتيجي، تستهلك جهدها ووقتها حالة العلاقات العامة من غير المعقول ان تواجه النخبة الشارع الذي على العكس تماماً عبر عن وعي اعلى وأعمق من خلال تفاعله الملحوظ والمثابر والمتواصل للفعاليات الثقافية وعلى مدار العام، بمثل هذه اللامبالاة التي تؤكد عدم جدارتها باحتلال مواقعها التي تحتلها الآن.

وللاشارة فقط، نقول أنه وفي الوقت الذي لا يتطلب فيه التفاعل مع الفعل الثقافي - في غزة بالتحديد- اي عناء، فالعروض مجانية، كما انها قريبة، حيث غزة كلها من شمال القطاع إلى جنوبه، اقل من خمسين كيلو متراً، تقول انه في الوقت الذي تفاعلت فيه اذاعات مونت كارلو، الـ BBC وفضائيات الحرة والاخبارية والـ LBC، صمتت الاذاعات المحلية - باستثناء ألوان- كذلك الفضائيات التي "تصدح" ليل نهار بجمل السياسة المتجاذبة!

من يصدق أن غزة التي قدمت "هاملت" العام 1963، تجرجر الآن ذاتها الممزقة حيث بالكاد ينجح مبدعون شجعان في تقديم عرض مسرحي عابر، وإذا كان موشي ديان - وزير حرب اسرائيلي سابق - قد قال يوماً بأنه يخشى الفلسطينيين حين يراهم قد نجحوا في الاصطفاف بنجاح على طابور الخبز، نقول بأن هدف إقامة الدولة المستقلة، يبدو ممكناً حين نرى الفلسطينيين على استعداد لدفع "شيكل واحد" مقابل شراء كتاب أو قرص مضغوط ثقافي، أو مقابل مشاهدة عرض مسرحي أو فيلم سينمائي.

جريدة الأيام 18 كانون الأول 2009

غزة تنتفض ثقافياً

كان العام 2009عاماً ثقافياً بامتياز على قطاع غزة، انتجت خلاله عدة مسرحيات وأقيمت جملة من معارض الفن التشكيلي، كذلك عشرات الأمسيات والقراءات الشعرية، هذا إضافة إلى تظاهرات سينمائية وفاعليات ثقافية يشهدها القطاع لاول مرة في تاريخه.

ويكفي للدلالة على ذلك الاشارة إلى انه وخلال اسبوعين فقط، يشهد قطاع غزة ثلاث تظاهرات سينمائية، تعتبر بمجموعها على قدر بالغ من الاهمية، لما تحدثه أولاً من حراك ثقافي يفعّل المشهد، ويلقي عن كاهل غزة المحاصرة، عبء الحصار، وكثيراً مما تعاني جراءه وكنتيجة لحالة الانقسام التي انعكست بالسلب، مباشرة على سكانه ومواطنيه.

بذلك فإن المبدعين الفلسطينيين، الذين اثبت نفر منهم، ونقصد بذلك كتيبة المصورين السينمائيين، خلال انتفاضتين، وبخاصة خلال الحرب المجرمة التي شنت على غزة قبل عام، انهم كانوا في مقدمة حالة المقاومة، ورفض الاستسلام أو القنوط لاستهدافات الحصار، وبشل طاقة أو قدرة الشعب الفلسطيني البطل على اجتراح المعجزات على طريق انتزاعه لحقوقه الثابتة في الحرية والاستقلال.

ولقد كان مدخل القدس عاصمة للثقافة العربية، خلال هذا العام 2009 بمثابة الرافعة الرئيسية لهذا الحراك، الذي تميز بأنه ينتج بتمويل وطني، ربما للمرة الاولى، لذا فإنه يحقق اهدافاً وطنية مباشرة، تؤكد على ان القدس كعنوان كانت توحد الفلسطينيين، وكذلك مع رفع شعار ان الثقافة توحد ولا تفرّق، ما بث روح الوحدة والامل العام، بأن الثقافة تشكل مدخلاً للخروج من مأزق الانقسام، وأنها تعيد الاعتبار لأحد أهم ادوات الكفاح الوطني، التي طالما اعتمدها الفلسطينيون في تأكيد هويتهم الوطنية وفي تحديد اطار كفاحهم الوطني المتواصل وعبر جبهة غزة الثقافية بالذات، اقيمت لأول مرة التظاهرات السينمائية التي اظهرت اهمية الكاميرا في مقارعة الاحتلال وفضح جرائمه المتلاحقة بحق شعبنا، كذلك انتجت لأول مرة وخلال عام واحد حوالي خمس مسرحيات بتمويل وطني، اي على عكس العادة التي جرت خلال العقود الماضية، والتي ربطت بين الدراما ومؤسسات المجتمع المدني.

وكان لافتاً ان تبادر غزة بالذات إلى تقديم جائزة واسطة عقد الثقافة الفلسطينية المعاصرة - محمود درويش، للشعراء الفلسطينيين، بما يؤكد وحدة الثقافة الفلسطينية، حيث ذهبت الجائزتان الاولى والثانية لشعراء فلسطين في الشتات وداخل مناطق الـ 84.

وفي الوقت الذي تعذرت فيه مشاركة المخرجين السينمائيين والمسرحيين كذلك الأدباء الفلسطينيين في المهرجانات والمؤتمرات العربية التي دعوا اليها في الدول العربية، بسبب الحصار واغلاق المعابر، استطاعت الثقافة ان تخترق عبر ادوات الاتصال الحديث حالة الحصار بارسال الافلام والمداخلات لتلك المهرجانات والمؤتمرات، بما أحدث أعمق الاثر لدى الاشقاء العرب.

ثم واصلت الثقافة المسؤولة فعلها الذي يؤسس لثقافة استراتيجية في رؤاها ودورها ومكانتها، بأن احدثت فجوة اضافية في جدار الحصار من خلال وصول فنانين عرب إلى فلسطين، إن كان في قطاع غزة أو في الضفة الغربية أو من خلال عروض الافلام والنتاجات الثقافية العربية في المدن الفلسطينية، وذلك تأكيداً لاهمية العمق العربي في اسناد الثقافة الفلسطينية وهي تواجه تقافة التزوير والالحاق الاسرائيلية. ومن ثم دفعت مكانة القدس والفاعليات التي ارتطبت باختيارها كعاصمة للثقافة العربية التي ملأت الدنيا وشغلت الناس طوال العام، ليس في فلسطين وحسب، ولكن في كل مكان من الوطن العربي وحتى في القارات الخمس، العديد من المبدعين العرب للمطالبة باعلان القدس كعاصمة ابدية للثقافة العربية، ذلك ان ثقافة فلسطينية فاعلة، تشكل رأس حربة للثقافة العربية المقاومة لمحاولات التبديد والتسطيح والالحاق، تعيد الاعتبار مجدداً لمكانة كانت عليها الثقافة الفلسطينية على مدار عقود مضت، كروح للثقافة العربية وحتى الانسانية الفاعلة على طريق العدالة والمساواة والانسانية جمعاء.

في الوقت ذاته فإن هذا الحراك، خاصة الذي يحدث في غزة ويقاوم الحصار ويرفض الانقسام، والذي يسير على طريق ارساء ثقافة التعايش الداخلي والتعدد الثقافي الذي وسم الثقافة الفلسطينية المعاصرة، على مدار عقود، لا يتحدى حصاره فقط، بل وامكاناته المتواضعة، ليؤكد ان الثقافة الانسانية لا تفسدها الاموال، بل تحتاج إلى ارادة والى رؤية ومثابرة، فعروض الافلام والمسرحيات تجري في غزة، رغم عدم وجود دور عرض سينمائي ولا حتى مسارح حديثة، بل وبعد ان قامت طائرات الحرب الاسرائيلية المجرمة بالحاق الدمار في ما كان في غزة من مؤسسات تشهد عبر مسارحها غير المتخصصة، مثل مسرح الهلال في غزة، ومسرح الهلال في خان يونس.

على طريق إعادة تفعليها وتطويرها تحتاج الثقافة الفلسطينية إلى سياسة ثقافية ذات طابع استراتيجي، يلحظ الحراك والفعل الثقافي الذي يقوم به المبدعون الفلسطينيون في

كل مكان في داخل الوطن: غزة، الضفة، القدس، الـ 84، وفي الشتات والمنافي القريبة والبعيدة، على قاعدة الذهابإلى وحدة الفلسطينيين الثقافية، التي تجتاز كل عوامل الفرقة- ان كانت سياسية أو جغرافية - ثم التطور المستحدث في الثقافة الاقليمية والكونية، بما في ذلك وسائل الاتصال الحديثة، والتي باتت معها مخططات فرض العزلة والحصار امراً غير ممكن التحقق، خاصة مع وجود ارادة التحدي، كما يحدث الآن مع المبدعين الفلسطينيين ومع عموم الشعب الفلسطيني.

جريدة الأيام 11 كانون الأول 2009

جنون المونديال

لا يكاد العالم يجتمع على الاهتمام بحدث مثلما يحدث مع مونديال كرة القدم الذي يقام دورياً كل أربع سنوات مرة. وكانت قد جرت العادة أن يقام المونديال مرة في واحدة من دول القارة الأوروبية، فيما يقام في المرة التالية في واحدة من دول أميركا اللاتينية، وحيث تناوبت القارتان بذلك على الظفر بكأس البطولة فيما بينها، وحيث سجلت البطولات السبع عشرة التي أقيمت على أراضيهما فوز دولة أوروبية بالكأس إذا ما أقيم في بلد أوروبي، وفوز بلد لاتيني به إذا ما أقيم في بلد لاتيني، ولم تشذ عن هذه القاعدة سوى البرازيل التي فازت بها حين أقيمت في السويد عام 1958.

أرست دورات المونديال الثماني عشرة التي أقيمت قبل المونديال الحالي في جنوب أفريقيا جملة من التقاليد، التي تشكل ثقافة كروية عالمية، بثت الروح الرياضية خلالها روح التعايش والتفاعل بين الأمم والشعوب، لدرجة أن ملايين البشر، خاصة أولئك الذين لا يمتلكون منتخبات منافسة أو تتأهل عادة لنهائيات المونديال، يشجعون منتخبات دول لا تمت لهم بصلة وحتى أنها تبتعد عنهم آلاف الكيلومترات، لدرجة التعصب والجنون.

حتى الآن وعلى مدى ثماني عشرة بطولة سابقة، لم تفز بالكأس سوى 7 دول، تساوت فيها أميركا اللاتينية وأوروبا بمعدل تسع بطولات لكل قارة، تصدرتها البرازيل بخمس بطولات ثم ايطاليا بأربع فألمانيا بثلاث، ثم بطولتان لكل من الأرجنتين والأوروجواي، وبطولة واحدة حين أقيمت البطولة على أراضيهما، أي حين استضافت كل من فرنسا وانجلترا البطولة على أرضها.

بعد ست عشرة بطولة تناوبت فيها أميركا اللاتينية وأوروبا على استضافة الحدث العالمي والفوز به، أقيمت البطولة السابعة عشرة في آسيا على أرض كل من اليابان وكوريا الجنوبية، فيما تقام البطولة الحالية لأول مرة في القارة الأفريقية، البرازيل فازت بالبطولة التي أقيمت في آسيا، لذا ربما يعني ذلك أن البرازيل فقط هي التي يمكنها أن تفوز بالكأس خارج دائرة قارتها، كما سبق وان فعلت الاستثناء بفوزها بالبطولة في السويد.

من تابع جولتي الدور الأول ونصف مباريات الجولة الثالثة، يلاحظ تفوق الأداء اللاتيني الذي يوحي بأن فرق الأرجنتين والبرازيل وحتى المكسيك والاورجواي وتشيلي، كأنها تلعب على أرضها، وربما يعود السبب إلى تشابه المناخ الأفريقي مع

مناخ أميركا اللاتينية، وربما أيضاً لان أجواء العالم الثالث تخيم على القارة السوداء، وليس هناك من ممثل للعالم الثالث على الصعيد الكروي خير من البرازيل والأرجنتين ومجمل منتخبات أميركا اللاتينية.

أظهرت منتخبات آسيا وأفريقيا ومعظم منتخبات أوروبا ملامح ضعف وتعثر، وإذا كان ظهور منتخبات آسيا باستثناء كوريا الجنوبية، أقوى فرق آسيا، والى حدود ما منتخب اليابان، بعد أن وصلت كوريا في المونديال الآسيوي عام 2002 للمربع الذهبي مخيباً، فان تواضع الظهور الإفريقي، بدءاً من منتخب الدولة المضيفة ـ جنوب أفريقيا، مروراً بمنتخب الكاميرون ونيجيريا، ثم ساحل العاج فالجزائر، بهذا الشكل المتواضع كان هو المفاجأة السيئة، خاصة بعد أن اعتادت دول أفريقيا الظهور بشكل قوي أمام المنتخبات الأوروبية، خاصة في الدور الأول، وبعد أن وصلت منتخبات الكاميرون وغانا في مناسبات سابقة إلى دور الثمانية.

طبعاً كانت البطولات السابقة تشهد مفاجآت تحدثها المنتخبات الصغيرة في الدور الأول، كما فعلت الجزائر عام 1982 حين هزمت ألمانيا في اسبانيا التي وصلت للنهائي، لكن لم تحدث عملياً مفاجآت قوية في هذه البطولة، حتى حين هزمت صربيا ألمانيا، سرعان ما تجاوزت ألمانيا العثرة وتصدرت مجموعتها إلى الدور الثاني، بذلك ربما تكون أهم المفاجآت في الدور الأول هي ما حدث في المجموعة الأولى، حيث خرجت فرنسا من الدور الأول، كما حدث معها في بطولة 2002 التي دخلتها وهي حاملة اللقب، فيما سجلت جنوب أفريقيا سابقة بخروج الدولة المستضيفة من الدور الأول لأول مرة.

كذلك عادت آسيا لتسجل أسوأ النتائج بهزيمة كوريا الشمالية امام البرتغال بنتيجة 7/ صفر، تقريباً كما حدث مع السعودية عام 2002 حين هزمت من ألمانيا بنتيجة 8/ صفر.

إذاً كوريا الجنوبية استثناء آسيوي وغانا استثناء إفريقي، في هذه البطولة التي انفتحت منذ الدور الأول المواجهة فيها بين منتخبات أميركا اللاتينية وأوروبا، فيما يرجح الأداء وثقافة المونديال وتقاليده وكذلك ظهور الفرق في الدور الأول فوز واحد من منتخبات أميركا اللاتينية بالكأس، المرشح لها كالعادة دائماً البرازيل أولاً ثم الأرجنتين هذه المرة وربما العكس، فيما تظل منتخبات البطولة مثل ألمانيا منافسة، لكن إقامة البطولة خارج حدود القارة العجوز لا يصب في مصلحتيهما، وان كان يمكن توقع ظهور أحدهما في النهائي.

في هذه البطولة تراجعت المشاركة العربية التي كانت تشمل أكثر من منتخب، وصل في بعض المناسبات إلى 3 فرق، وفي كثير منها إلى اثنين واحد من عرب آسيا والآخر من عرب أفريقيا، واقتصر على منتخب وحيد هو الجزائر، الذي كافح دون أن يسجل حضوراً مشرفاً كما حدث معه عام 1982 أو كما حدث مع السعودية عام 1994 وتونس عام 1978. لذا اهتم الإعلام السعودي بالوجود الوحيد على صعيد التحكيم بخليل جهاد الغامدي، الذي ربما تسبب تحكيمه لمباراة سويسرا وتشيلي بأزمة علاقات عربية مع دولة عدم الانحياز الأوروبية، خاصة بعد التوتر بينها وبين ليبيا، حيث حمل 74% من السويسريين الحكم السعودي مسؤولية هزيمة منتخب بلادهم من تشيلي وربما يصبح التحريض مثيراً إذا ما خرجت سويسرا من الدور الأول.

بعد ذلك لابد من الإشارة إلى ما يبعثه التفاعل مع الحدث الكروي من تداخل وتفاعل يتجاوز حدود الانتماء القومي، رغم ما يحدثه من تعصب، صار اقل حدة عما كان عليه في السنوات السابقة، لكن لا بد من القول إن اهتمام ملايين البشر، خاصة في الدول العربية التي لا تشارك منتخباتها في الحدث الكروي يعبر عن ثقافة عدم المشاركة السلبية، حتى وان المشجعين لا يوجدون في الملاعب، أي أن تشجيعهم لا يؤثر ولا بأي شكل على سير المباريات، وهم يشجعون الفرق القوية المرشحة للفوز، بما يحقق زهواً نفسياً لبشر يعانون من القمع والاستلاب.

جريدة الأيام 25 حزيران 2010

تواضع "أبو زيد"

كان العام 1990 ربما أو انه كان بعد ذلك بعام أو اثنين، لا اذكر بالضبط ـ ليس ذلك المهم ـ المهم انه في ذلك العام أقامت الجبهة الشعبية حدثاً مهماً ـ كنا نطالب به دائما، نحن معشر المثقفين ـ أسبوعاً ثقافياً على شرف ذكرى الراحل غسان كنفاني، وذلك في قاعة المركز الثقافي الروسي، ودعت له من سورية: عبد الرازق عيد وجمال باروت، ومن لبنان محمد دكروب، ومن تونس الدكتور بكار، واسيني الأعرج من الجزائر والمصريين رضوى عاشور ونصر حامد أبو زيد.

أنا شخصياً وبحكم اهتمامي وبدافع رغبتي الخاصة، قمت بإعداد نفسي لإجراء مقابلات مع الكتاب/ الروائيين، واذكر كيف حضرت لإجراء المقابلة مع واسيني الأعرج، حيث قرأت كل رواياته الصادرة حتى ذلك الوقت، وأعددت لها الأسئلة النقدية التي أثارت حفيظة الرجل، لاحقاً، وقد كنت بدأت اقرأها قبل لقائه بحوالي ثلاثة أسابيع ـ تقريباً وعلى ما أذكر ـ وبذلك كنت أشعر بارتياح شديد وكأن غسان معنا وبيننا ـ حيث كنت أعمل محرراً في "الهدف" ووفرت لي المناسبة فرصة لإعداد المواد الثقافية الدسمة التي ما كانت تهم الكثير من قادة الجبهة، خاصة العسكريين منهم!

كان كل هذا أمراً عادياً، لكن ما قض مضجعي أو أثار النار في أوصالي هو طلب "هيئة التحرير مني إجراء الحوار مع د. نصر حامد أبو زيد"، وكان يومها حسب "الرفيق" ملوح، بحق، أهم المدعوين ـ على أهمية النخبة التي حضرت للمشاركة ـ والتي تعد نخبة المثقفين والكتاب والأكاديميين العرب، الذين اختارهم بدقة وعناية الفلسطيني العظيم فيصل دراج. كان نصر حامد أبو زيد قد نشر حديثاً عدداً من كتبه، في مقدمتها "تأويل النص" الذي أثار يومها زوبعة من الجدل والحوار على صعيد عموم المنطقة.

ما كان بإمكاني أن أفعل مع أبو زيد ما فعلت مع الأعرج، لذا قمت بتحضير أسئلة سياسية تدور حول الإسلام السياسي، ولا تجادل قراءته للنص متداخلاً مع لحظته التاريخية، ثم ذهبت لأبحث عن الرجل الذي لا اعرفه، وهنا كانت المفاجأة لي.

كان من الطبيعي أن يذهب المصريون، اقصد ضيوفنا منهم معاً إلى قاعة المركز الروسي، ويعودوا إلى باحة الفندق سوية أيضاً، وحيث أني اعرف السيدة رضوى عاشور "أم تميم" البرغوثي وزوجة مريد، وقبلهما وبعدهما هي تلك الروائية من الصف

الأول وتلك المناضلة المعروفة التي انحازت إلى الفقراء وهي ابنة "العائلة" وهي على مقاعد الدراسة الجامعية، فقد توجهت إليها لأسأل عن الدكتور نصر حامد أبو زيد. في الحقيقة لفت انتباهي رجل متوسط العمر يميل إلى السمنة بإهماله منظره وشكله، حتى ظننت انه "عامل الفندق" أو ما شابه، لكننا في سورية وليس في مصر، فما الذي يجيء بعامل فندق من مصر إلى سورية، أيعقل أن تحضر السيدة معها عامل فندق من هناك؟

كانت المفاجأة المدوية أن ذاك الرجل السمين، المتواضع، الذي يهمل شكله ومنظره ما هو إلا ذو الصيت الواسع وصاحب الاسم الذي يملأ الدنيا والعالم الذي يعيد الناس إلى أيام الفارابي ويذكرهم بطه حسين، ما هو إلا الأستاذ في جامعة القاهرة الدكتور نصر حامد أبو زيد.

وددت لو أقبله، لو احضنه فقد اثبت لي أو أكد لي بالملموس ما اسمعه منذ صغري ولم اعرف معناه بجد حتى اللحظة "تواضع العلماء". ثم كانت دماثة الخلق بعد ذلك في الحوار، حيث احترم الرجل اجتهادي، وأبدى إعجابه حين قال لي "يجي لك ولد أو بنت في الجامعة عايز يعمل لقاء، يقول لك قدم لي نفسك يا أستاذ، أو يسأل أسئلة تلاميذ ساذجة". ظفرت بلقاء صحافي دسم أيضاً من الرجل الذي كان مجرد اللقاء معه يفتح شهية القراء لمجلتنا الغراء.

ثم غابت بنا السنون إلى أن كان حديث "الحسبة" يومها تألمت كثيراً ليس لهذا الرجل الذي يغار من رجاحة عقله ومما "أتى" به من علم كل عاقل، ولكن لما وصلت به الحال بأمتنا العربية التي صارت طاردة للعلماء والمفكرين وحاضنة للسذاجة وربما حتى للتفاهة، التي تنام في أحضانها قريرة العين صاحبة الفيديو كليب وأخواتها فيما يضطر عالم كنصر حامد أبو زيد لان يذهب لهولندا ـ تلك الأراضي المنخفضة ـ ليس لشيء إلا لأنه أعاد فتح واحد من أهم أبواب الإسلام التي أغلقها منذ سنين طويلة الإمام الشافعي، وهو الاجتهاد ـ كما قال في أطروحته ـ تحت وطأة "الحسبة" التي كان بإمكان صاحبها ـ وريث الشافعي وحفيده بعد ألف سنة ـ أن يرد على الكتاب بعشرة لو كان ديمقراطياً، آه لو كان ديمقراطياً لما كان الحال هو الحال أصلاً، ولو بقي على حال سبيله فمن كان يدري لربما ثم حرق أبو زيد وليس كتبه فقط.

صدفة وفي لحظة انتابتني فيها السعادة تابعته في لقاء تلفزيوني، لا أنسى فيه بساطته التي تجعلك لا تنسى الأفكار بسهولة، حيث انتقد العقل العربي الكسول الذي هو كذلك لأنه غير منتج، بما يذكر بكتابات محمد عابد الجابري، الذي رحل عنا أيضاً قبل أشهر قليلة واذكره وقد قال للمذيع: يا أخي، العرب لا يجتهدون ولا يعملون عقلهم في شيء ما

تقريباً، ليس هم فقط من لهم تراث، وحين يواجهون بأسئلة العصر، بدل أن يديروا الجدل والحوار حول هذه الأسئلة، يلجأون إلى التراث، وضرب مثلاً بذلك سؤال

الديمقراطية، حيث دون اجتهاد أو إعمال عقل يقولون: الشورى!

يرحل نصر حامد أبو زيد بعد أن قدم مشروعه مكتملاً، حيث لا شك أن الحاجة إليه ستظهر قريباً بعد أن يهدأ دوي المدافع، وبعد أن تشرع الأمة العربية بأسرها في ترميم ذاتها وتدخل في ورشة العصر الحديث، ليس من خلال الهامش وليس من خلال "لعبة الأطفال" عبر الانترنت، ولكن من خلال لعبة الكبار، لعبة الأمم، لعبة العولمة. حينها سنترحم جميعاً على أبو زيد ومن قبله الجابري وكل الكبار الذين قدموا لنا ما ينفع الناس في الأرض، وليس أنا العبد الفقير إلى الله فقط.

جريدة الأيام 16 تموز 2010

بكيني دينا حامد وباب حطة

لا أدري حتى اللحظة ما هي العلاقة بين بكين العاصمة الصينية ولباس البحر النسوي من قطعتين، المثير عادة، كما لا أريد أن أدخل في تقديرات أو تفسيرات أو تأويلات عديدة، تنفيها أو تؤكدها المعلومة البسيطة والواضحة، والتي قد تشير حتى إلى أن الأمر ليس له أية علاقة، لا من قريب أو من بعيد، اللهم إلا تشابه الاسم، وحتى أن هذا الشبه، إنما يقتصر على اللغة العربية المعروفة بكثرة مترادفاتهاومحسناتها البديعية التي جعلت منها واحدة من أصعب اللغات في العالم على غير الناطقين بها.

قبل خمسين عاماً كانت النساء ترتدي ملابس السباحة، من قطعة واحدة، وبعضهن من قطعتين، في المدن العريقة نسبيا، الساحلية بالطبع مثل بيروت والإسكندرية، وكانت المسابح تشهد اختلاطاً بين الجنسين، كما الجامعات وأماكن العمل المختلفة، وكان الاختلاط جزءاً من ثقافة حركة التحرر، والثورة السياسية/ الاجتماعية الناهضة، التي كانت تدرك أنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن تتحرر الدول من الاستعمار ما لم يتحرر المجتمع من الجهل والتخلف والانغلاق، وأنه لابد أن تترافق الثورة السياسية بثورة اجتماعية، لذا خاضت قوى التحرر حرباً مركبةً ضد مثلث الاستعمار والإقطاع والرجعية السياسية/ الثقافية. وكانت السينما والتلفزيون، كذلك الإذاعة وكل أدوات الإعلام وسائل أو أطراً لاحتضان هذه الحالة، حيث كانت الصورة في السينما تتطابق - إلى حد ما - مع الصورة في الواقع. فكانت تظهر الممثلات في السينما بالبكيني دون أن يعتبر ذلك مثيراً للرأي العام، وكانت سينما الستينيات تبيح ما لا يبيحه الرقيب الآن.

انتكاسة حركة التحرر العربي سياسياً ومن ثم اجتماعياً، ثم انهيار معسكر الثورة العالمية، مع ثورة المعلومات والتقدم التقني الهائل في الاتصالات فتح الباب واسعاً أمام العولمة، لدرجة أن العالم يقترب من أن يكون مجتمعاً واحداً، حيث إن المجتمعات والدول تنفتح على بعضها اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً، على أكثر من صعيد، وبشكل متسارع، يتجاوز قدرة الحكومات والأنظمة السياسية على التحكم بهذه العملية، وبعد أن تداخلت المجتمعات فيما بينها من خلال حركة التثاقف، والهجرة المستمرة منذ عقود من الجنوب والشرق إلى الشمال والغرب، بما قلل من الحواجز والفروق بين الأثنيات والأديان والطوائف، على الرغم من أن الصراع بين الأغنياء والفقراء ما زال باقياً، لكن العالم يكاد يتداخل فيما بينه وبين نفسه، ليشكل مجتمعاً كونياً واحداً، موحداً، وتظهر آثار

ذلك في ردود فعل شعوب الكرة الأرضية على حروب القمع والقهر وحروب الإبادة التي مورست بحق شعوب ضعيفة، انكشفت للقوى الإمبريالية بعد انهيار المعسكر الذي كان يحميها أو يشكل لها سنداً وداعماً، كما حدث في العراق ويوغوسلافيا وأفغانستان وما زال يحدث في فلسطين.

في هذا السياق من التداخل العالمي، نجد أن معظم دول وشعوب العالم تتنافس في المشاركة بالإنتاج والاختراع، والمساهمة في التقدم الحضاري، إلا جل العرب ومعظم المسلمين، الذين يعتبرون بغالبيتهم شعوباً، ليست متخلفة اقتصادياً واجتماعياً، سياسياً وثقافياً وحسب، كما كان حالها منذ قرن تقريبا، حين فوجئت بالغرب يعيد توزيعها كمستعمرات فيما بين دوله المركزية، بل غير منتجة أصلاً، لذا فهي على عكس نمور آسيا مثلاً، ودول شرق آسيا (اليابان، كوريا الجنوبية، تايوان) والاهم الصين التي أصبحت خلال النصف الثاني من هذا العام ثاني أهم واكبر اقتصاد في العالم بعد الولايات المتحدة الأميركية، متقدمة على اليابان، التي كانت مثلها تحسب على العالم الثالث، لكن حالها تغير خلال نصف قرن مضى، بسبب تنفيذها خططاً طويلة المدى للتنمية، وانخراطها في ورش الإنتاج الداخلي.

الصين تعتبر نموذجاً مهماً للغاية، ذلك أنها - كمثل كل دول شرق آسيا - التي تقدم اقتصاداً يتقدم الآن على أوروبا - لا توجد فيها موارد طبيعية فائقة القيمة، توفر لها السبب لان تبني اقتصاداً متقدماً، كما هو حال دول الخليج وبعض الدول العربية (مثل ليبيا والجزائر)، بل اعتمدت على الطاقة البشرية، حيث وضعت جانباً الشعارات، وثارت على الثورة الماركسية، وبهدوء بنت اقتصاداً متقدماً لا هو رأسمالي تماماً ولا هو ماركسي، يمكن المقارنة هنا بينها وبين روسيا التي تمتلك مكانة وثروات طبيعية (النفط في سيبيريا) وحتى تقدماً تكنولوجياً كان متقدماً على الصين، "في مجال الفضاء والصناعة العسكرية".

جل العرب ومعظم المسلمين، لا ينتجون شيئا، وحيث كان يمكن لبعضهم أن يعتمد على صناعة النفط ليلحق بركب العالم المنتج ويغادر دائرة الاستهلاك، إلا أن ذلك لم يحدث، لذا فهم لا ينتجون سوى الشعارات، ويجدون أنفسهم الآن، كما كان حال الفلاحين الألمان عند منتصف القرن التاسع عشر، ضد الثورة البرجوازية من الباب الخلفي، أي كثورة رجعية، تضامن معها الثوريون لكنهم كانوا يدركون أنها ثورة مهزومة لا محالة.

هل يعقل أن يرد بعض العرب وبعض المسلمين على العولمة بابن لادن؟ وهل يعقل أن تهزم أفغانستان النظام العالمي؟ لم تجد العولمة رد فعل عنيفاً في هذه النقاط

(أفغانستان، اليمن، الصومال، غزة، العراق) ألأنها مناطق متميزة في تقدمها الحضاري؟ أم لأنها مناطق فقيرة ومتخلفة ومعزولة ومنغلقة على ذاتها؟.

المشكلة تكمن في بنية المجتمعات العربية والإسلامية، التي ترفض أن تنخرط في " ورشة التقدم العالمي" وتجد أن الجلوس على الهامش أكثر راحة لها، وأنها متخلفة وليست لديها الرغبة في مغادرة التخلف، أي أنها تراجعت حتى عن محاولة التقدم التي حدثت في سياق حركة التحرر خلال خمسينيات وستينيات القرن الماضي، وتعود الآن لحالة الانطواء والانكماش كما يفعل "القنفذ" الذي يغلق على حاله ويخرج أشواكه لتدافع عنه ضد الغرباء. يفعل هذا سنة جهاديون (قاعدة وغيرها) ويفعل هذا شيعة وعلويون (إيران، حزب الله، سورية) فيما هناك مسلمون يفترض أن يكونوا مثالاً على الانفتاح، ونموذجاً على ما يحتاجه المسلمون من اجتهاد فقهي، يصل إلى حدود الثورة - على شاكلة البروتستانت - مثال ماليزيا، الجاليات المسلمة في أوروبا - خاصة فرنسا - وتركيا التي تقاتل من اجل الانضمام للاتحاد الأوروبي، مقابل القاعدة والممانعة (الممانعة بالمناسبة ليست حركة تحرر بل على أحسن تقدير ثورة مضادة للعولمة) اللتين تقاتلان من اجل العزلة والانغلاق.

مناسبة كل هذا الحديث، هي أن كثيراً من المصريين غاضبون لان دينا (أو دنيا) حامد التي ستشارك بعد أيام قليلة في مسابقة ملكة جمال العالم، ستضطر إلى ارتداء البكيني، لان ذلك شرط في المسابقة، ولأنها - أي حامد ذهبت للمسابقة بطموح الفوز وليس بشرف المشاركة، لدرجة أن آلافاً من الشباب المصريين يصممون المواقع على الفيس بوك للتنديد بسفور حامد! وان طاقم "معا" الذي ذهب أول أيام رمضان للبلدة القديمة في القدس ليعد برنامجا عن عادة السحور، قوبل كما ينبغي بالحفاوة في شارع الواد... فيما كان الأمر مختلفاً في باب حطة حيث قوبل الطاقم بالشتائم والحجارة والبيض، احتجاجاً على "سفور" فتاتين من الطاقم أحدهما متضامنة بولندية. هذا التراجع في الاستعداد للتعايش مع العصر، والتزمت، لم يعد حالة هامشية، بل خطراً يهدد جل العرب ومعظم المسلمين، إما بالانتحار أو التلاشي، والجلوس على قارعة طريق الكون المنتج. وإذا لم يجد الشباب ما يقومون به على صعيد العمل المنتج، فإنهم لن يجدوا بديلاً عن تفريغ طاقتهم في أمور لا معنى لها ولا قيمة، من مثل الشعارات والبطولات الوهمية، التي تذكر ببطولات دون كيخوت المضحكة.

جريدة الأيام 20 آب 2010

العرب في انتظار الثورة الإلكترونية

لابد من الاعتراف بأن كثيراً من مظاهر الحياة المدنية الحديثة التي يتمتع بها عشرات ملايين العرب، ليست من صنع أيديهم، ولا من نسج خيالهم، ولا كانت بفضل ما تمخضت عنه بنات أفكارهم أو نتيجة اعمال عقولهم، والحديث هنا لا يدور عن استخدام تكنولوجيا العصر الحديث من الكهربائيات إلى الالكترونيات، ولكن أيضاً عن جملة من القيم والمفاهيم التي لها علاقة بتنظيم حياة البشر والعلاقات المتعددة والمتشعبة بين الناس، وعلى أكثر من مستوى، من العلاقة بين الرجل والمرأة، إلى حقوق الإنسان، وحقوق الطفل، إلى الديمقراطية، والحريات العامة.

وفي الحقيقة، رغم كل ما كنا نقوله عن الاستعمار، ورغم كل الحروب التي خضناها ضده ورغم طبيعته الاستغلالية، إلا أن رؤية الأمور من جانب واحد ومن زاوية رؤية أحادية دائماً، كانت تؤدي إلى تحديد موقف ورسم سياسات كانت في مجملها حادة وغير متوازنة، وربما أيضاً انفعالية، لم تحقق الهدف، المتمثل بالتقدم بمجتمعات سبقتها مجتمعات اخرى، ولا بد لها من اجل ان تكون مجتمعات فاعلة، وممنوعة عن ان تكون مستلبة، لابد لها ان تتقدم بسرعة مضاعفة لردم الهوة والفجوة بينها وبين المجتمعات العصرية/ الحديثة، نقول رغم كل ما فعلناه ضد الاستعمار الحديث، إلا أنه لا بد لنا من الاعتراف بأنه كان سبباً وبدافع من طبيعته البرجوازية وأهدافه في تحقيق الربح والاستغلال ونهب ثروات العالم الثالث، فإنه ساهم في محو أمية مجتمعات العالم الثالث، وتقدم بها درجة ما على طريق دخول الحالة الرأسمالية، حيث كانت تعيش حالة المجتمع الاقطاعي وحتى ما قبل ذلك أحياناً.

في الحقبة التالية، التي نعيش الآن، لابد من الاعتراف بفضل العولمة على شعوب عديدة في مقدمتها الشعوب العربية، حيث كان لثورة الاتصالات ولفتح الحدود بين الدول والمجتمعات، فضل في تجاوز المجتمعات العربية حالة التخلف والانغلاق الشديد التي كانت عليها قبل عقد أو أكثر قليلاً من الآن، ولعل كل ما قيل عن مرحلة التحرر طوال نصف قرن مضى ما كان الا كلاماً شعارياً جميلاً، لم يحقق تقدماً يذكر، مقارنة بما تفعله حالة الانفتاح بين الشباب العربي والشعوب العربية، حيث حققت ثورة الاتصالات وعياً وحالة اتصال، شكلت حلماً دائماً بالوحدة بين العرب، الذين يكرسون الآن وحدتهم الثقافية، من خلال حوالي 500 محطة فضائية، تقدم انتاجها لكل الجمهور العربي (أكثر من 300 مليون مواطن) وآلاف المنتديات والمواقع الاكترونية، التي اجتاز من خلالها

الشباب والمثقفون والمبدعون والمواطنون العرب حدوداً مغلقة، كرسها النظام الجمهوري العربي، الذي كان يفترض فيه ان يكون نظاماً تحررياً.

ليس ذلك وحسب بل ان فشل النظام القطري الذي نجم عن "تحرر" معظم الدول العربية قبل نحو نصف قرن من الآن، في تحقيق مجتمع حديث، ديمقراطي، يعرف فيه المواطن حقوقه وواجباته، وبعد فشل ذلك النظام في اقامة دولة المؤسسات، حيث لم يختلف نظام ملكي أو سلطاني، أو اميري عن نظام جمهوري أو جماهيري، لا في بقاء الملك والرئيس مدى الحياة ولا في نظام التوريث الذي بات يشمل أيضاً النظام الجمهوري الذي ثار وتمرد وحاول ان يتميز عن النظام الملكي الذي كان يصفه بالرجعية من قبل، في هذا الشكل من الحكم، يعوضه الآن التقدم التقني الذي شمل العالم ومن ضمنه عالمنا العربي، فبضل ثورة الاتصالات بات المواطنون العرب يعرفون حقوقهم أكثر، ولم يكن ذلك نتيجة كفاحات القوى الديموقراطية أو الشغيلة، أو تحالف العمال والفلاحين، بل نتيجة التقدم في حالة الانفتاح والتعايش الانساني في العالم بأسره.

ربما لأجل ذلك نجد ان الدول العربية بشكل عام هي أكثر الدول التي تمارس الرقابة على الشبكة العنكبوتية، لأسباب أمنية بالدرجة الاولى وليس لأسباب اخلاقية كما تحاول ان تبرر تشددها الامني، لدرجة ان بعض الدول العربية تلاحق اصحاب المدونات الخاصة بشكل فظ، كذلك هناك بث الاشاعة ضد شبكة الفيس بوك، وهناك امتعاض عام من كثير من المواقع لدرجة تكبيلها بالقوانين، التي تقيد البث، والقوانين الرقابية المختلفة. في الحقيقة هناك مشاكل ومخلفات حقب طويلة من الركود والتخلف بحاجة إلى حلول، حيث لا يقتصر الأمر عند حدود اغلاق الحدود بين المواطنين العرب، ومنع ازدواج الجنسية، لمواطن عربي، مع انه يسمح له بأن يزاوج بين جنسية بلد عربي وآخر أجنبي، اذا هذا "القانون" العام الذي صاغته الجامعة العربية بحاجة إلى تعديل ملزم لكل الانظمة العربية، جوهره ومضمونه اعتبار جنسية اي بلد عربي، كافية للمواطن العربي ليدخل أي بلد عربي دون مطالبته بفيزا دخول مسبقة، أو بأية اجراءات للإقامة بالمدة الزمنية التي يريدها، اي لا بد من فتح الحدود بين الدول العربية، على طريقة الاتحاد الاوروبي.

كذلك لابد من التفكير جدياً، ليس فقط بدمقرطة الانظمة العربية القائمة، وليس فقط بالعمل على انتشار ظاهرة التعدد السياسي، وتداول سلمي للسلطة التنفيذية، ولا بسيادة القانون، وحماية سلطة القضاء والتشريع وحسب، ولا بحماية الحريات العامة وإباحتها، ولكن ايضاً، تصحيح مفهومنا للديموقراطية الذي في جوهره هو حماية حقوق الاقليات السياسية والعرقية، الطائفية والثقافية، لابد ان يعرف كل طفل عربي ان النسيج الاحتماعي مكون من متعددات اثنية/ قومية من عرب وبربر، و كرد،... ومن متعددات

دينية/ طائفية: مسلمين، مسيحيين، سنة وشيعة ودروز... وان البشر مختلفون في المعتقد، حيث هناك مؤمنون، علمانيون، لادينيون... وان هناك مشاكل تكون بسبب الجيرة. حيث لنا مشاكل لا بد من حلها بطرق واشكال عصرية وسلمية، موضوعاتها: فلسطين، الجزر الثلاث الاماراتية، عربستان، لواء الاسكندرون، سبتة ومليلة، وان هناك مشاكل داخلية، حول الصحراء المغربية، جنوب السودان، مياه النيل، داخل العراق، داخل لبنان، وفلسطين.. وان النظام القائم بكل مكوناته عاجز عن حلها، بل حتى عن وقف تدهور الامور أكثر مما هو قائم، لذا فان "ثورة" عربية الكترونية، ربما تلوح في الافق. قد تضع احلاماً مرت عليها السنون الطويلة موضع التنفيذ والتحقق.

جريدة الأيام 26 تشرين الأول 2010

"الجزيرة":عيديد إعلامي

.. لأن كثيراً من النقد لا يهدف أو لا يحقق "التقويم" أو "التصويب"، فقد ظهر في الفلسفة علم نقد النقد، ولأن اجتزاء الأشياء من سياقاتها يعكس المعنى ويقلب الغاية، حذر كثير من الفقهاء من العمل وفق منطق "ولا تقربوا الصلاة.." دون إكمال الآية الكريمة.. "وأنتم سكارى".

هذان المعطيان يناسبان تماماً ما قامت به فضائية "الجزيرة" القطرية عبر تقديم برنامج "كشف المستور.. سنوات المفاوضات" فهي أعلنت على الملأ ألفاً وستمائة وثيقة من ملفات التفاوض الفلسطيني الاسرائيلي عبر عشر سنوات، ليس بهدف تقويم أو تصويب الأداء التفاوضي الفلسطيني، وهو بحاجة لها، ولكن عبر المؤسسات الوطنية الفلسطينية، وكذلك وفق معالجات تقرأ الوثائق كاملة وفي سياقاتها وتواريخها.. مع الأخذ بالاعتبار أولاً وقبل كل شيء أمرين مهمين وأساسيين هما: أن المفاوضات آلية عمل سياسي، لا يسقطها أحد من فعله السياسي من حيث المبدأ، وكل الشعوب التي كافحت من أجل انهاء الاحتلال واستقلالها لجأت للمفاوضات من الجزائر إلى فيتنام، والثاني أن وضع الجانب الفلسطيني الرسمي على الطرف الثاني من طاولة التفاوض، كان هدفاً فلسطينياً تحقق بقوة الانتفاضة الأولى وبفضل الإرادة الفلسطينية، وكأحد عناوين خلق الاقرار الدولي وحتى الاسرائيلي بالوجود الفلسطيني السياسي، بعد أن رفض اسحق شامير رئيس حكومة اسرائيل عشية مؤتمر مدريد العام 1991، بشدة وبعد ثماني جولات قام بها جيمس بيكر وزير خارجية جورج بوش الأب في ذلك الوقت، الذي رفض أي وجود سياسي فلسطيني في مدريد، وتحت الضغط الأميركي بوقف قرض البناء في المستوطنات، وكانت قيمته مليارات الدولارات، وافق على وجود فلسطيني من الداخل ليس له علاقة بـ م.ت.ف في مدريد.

وكان من نتيجة التفاوض إقامة السلطة نفسها، التي بفضلها وضمن سياقات هي جزء منها، تحكم حركة "حماس" الآن قطاع غزة، ويتحدث العالم كله مع عنوان سياسي للفلسطينيين، وتكرس في الوعي العالمي ضرورة إقامة دولة مستقلة.

لكن نشأة السلطة والحراك السياسي الفلسطيني منذ عقدين وحتى الآن، إنما هو محكوم بجملة من التطورات الإقليمية والدولية، بعد انتهاء الحرب الباردة، لذا فإن طبيعة الدولة وشكل الصراع حولها ومن أجلها يتأثر بهذه العوامل العديدة، ومنها وجود

محورين سياسيين في المنطقة، حيث لم يعد يقتصر أمر المواجهة الفلسطينية للاحتلال الاسرائيلي على اسرائيل فقط، وبعد أن كان الفلسطينيون مدعومين بشكل تلقائي ودائم بالعالم العربي والاسلامي، باتوا يواجهون حالة التجاذب والانقسام العربي، حيث لم يجتمع العرب ولا المسلمون على الفلسطينيين، كما كان الوضع في السابق، وأبعد من ذلك، ساهم ومن ثم شجع وجود محوري ممانعة واعتدال في الانقسام الفلسطيني نفسه.

لذا لا بد من قراءة برنامج الجزيرة من حيث التوقيت على قدر عال من الاهمية، ذلك ان إعداد البرنامج بدأ منذ نحو الشهرين، اي بعد ان أصر الفلسطينيون على رفض التفاوض مع استمرار الاستيطان، وبعد أن قالوا: لا لإسرائيل وأميركا، وبعد ان شرعوا في االتحضير للهجوم السياسي على اسرائيل في أروقة الامم المتحدة، في الوقت الذي يذهب فيه لبنان إلى حرب طائفية بين السنة والشيعة، حيث يغلب على المحور الاول "الممانعة" الطابع الشيعي والمحور الثاني – الاعتدال – الطابع السني، من هنا فإن كل الاحاديث والتقديرات وحتى التسريبات عن وجود خطة ايرانية – سورية مدعومة بمائتي مليون دولار للانقلاب على الحريري في لبنان، وعلى عباس في فلسطين، تستند إلى هذه الفرضية، ان جانبتها المعلومة أو الوثيقة المؤكدة.

تخطئ حماس وربما لا تهتم قطر – حيث لا يمكن التقدير بأن الجزيرة ترسم سياستها الإعلامية خارج سياق السياسة الخارجية القطرية – إن اعتقدت ان اسقاط السلطة في الضفة الغربية سيكون لصالحها أو لصالح برنامجها، الا اذا كانت توافق على القيام بدور سلطة الحكم الذاتي، أو الدولة المؤقتة، أو حتى روابط القرى، ذلك انه ليس في مصلحة اسرائيل اسقاط السلطة في الضفة الغربية لصالح بديل أكثر حرصاً على المصلحة الوطنية الفلسطينية من السلطة الحالية، وإن لم يكن اسقاط السلطة في الضفة الغربية هدفاً ومصلحة اسرائيلية بالدرجة الاولى، فإن اسرائيل وأميركا ستسعى إلى الابقاء على حالة الضعف والانقسام قائمة، إلى أن "ترضخ" هذه السلطة للإملاءات الاسرائيلية – الاميركية.

هذا ما يدركه المواطن الفلسطيني، الذي هو على درجة عالية من الوعي السياسي، لذا فإن "جزيرة" قطر، تخسر كثيراً وهي تغامر برصيدها الإعلامي لأنها تخرج عن الموضوعية دائماً، بل وإن فتح ملف الجزيرة وملفات الإمارة الخليجية الحافلة بالمفارقات والملفات الملتبسة، بات أمراً واجباً لكشف الدور والوظيفة التي تقوم بها هذه الإمارة على غير عادة جاراتها، والتي تحكمها منذ انقلاب الابن على أبيه طموحات اقليمية، تشكلت وفق ثقافة انقلابية، هدفها إحداث الفوضى، وخلط الاوراق واختراق المحرمات على كل المستويات.

فقطر التي بدأت عهدها الحديث بانقلاب الابن – حمد – على أبيه خليفة، اخترقت ما هو محرم في الثقافة العربية – الاسلامية، من عقوق الوالدين، ثم وضعت رأسها برأس كل ما هو قائم، والتحالف مع الشيطان ضد العرب الذين تقودهم السعودية ومصر – والشيطان هنا كان أعداء وخصوم محور الاعتدال – من إسرائيل إلى إيران!!

وقطر هي الدولة الخليجية الوحيدة التي تقبع فيها سفارة اسرائيلية بالتجاور مع مكتب الشيخ يوسف القرضاوي، وقاعدة عيديد الاميركية في السيلية على بعد 35كم من العاصمة – الدوحة – هذه القاعدة التي هي اكبر القواعد الاميركية خارج الاراضي الاميركية والتي استخدمت لشن الحرب على أفغانستان، وكانت مقر القيادة العسكرية في الحرب على العراق العام 2003، والجزيرة هي رائدة التطبيع الإعلامي، حيث اعتادت على استضافة المحللين والناطقين الرسمين باسم رئاسة الحكومة ووزارة الخارجية الاسرائيلية، بالتزامن مع استضافة ابو عطوان وحمامي وقادة "حركات المقاومة".

لكن الجزيرة اكتفت وعبر برامجها المتعددة، وفي مقدمتها "الاتجاه المعاكس" على كشف ملفات دول بعينها – مصر، الاردن، المغرب، السلطة الفلسطينية – ولم تقدم يوماً على فتح ملف قطري واحد، ولا حتى ملف خليجي من ملفات الفساد وادارة وتوظيف الاموال، أو العمالة الآسيوية، ولا حتى ملف من ملفات القمع وممارسة نظام حكم الفرد، في سورية أو ليبيا، ولا حتى ملفات تعتبر مثيرة وجريئة، لو كانت الجزيرة تسعى حتى إلى الإثارة الإعلامية، يمكن أن تكشف من خلالها المفارقة والتزوير والالتباس، الذي تقوم به حركات ترفع شعار المقاومة، وتسعى إلى فرض سلطتها بالقوة العسكرية، وتقوم بكل الافعال المنافية للقانون من مثل الاغتيالات السياسية وفرض العضلات السياسية، كما يفعل حزب الله في لبنان. وكان يمكن ان تتحلى الجزيرة بقدر من الموضوعية لو أنها كشفت في الوقت ذاته،أو وعدت بمراجعة ملف الانقسام الفلسطيني، أو ادارة الحكم في غزة، وما يحدث عبر 4 سنوات، اي ان لا تستمر بالرؤية عبر عين واحدة فقط.

لكن الجزيرة وعلى مدى نحو عقد من الاداء الإعلامي، احدثت خلاله ضجة إعلامية، بعد أن وظفت الطاقات الإعلامية العربية المتميزة، وقد اعتادت أو تصورت ان المجد يشترى بالمال، حتى المجد الكروي، من شراء سبياستيان سوريا – اللاعب البرازيلي بالنقود ومنحه دون أن يتقن حرفاً عربياً جنسيتها – إلى رشوة الفيفا لاستضافة مونديال 2020، كانت بمثابة عيديد إعلامي، مثل حصان طروادة، تزيد من جروح العرب، كما يفعل الماتادور الاسباني في الثور، حتى يخر صريعاً، في لعبة دموية، تؤكد ليس فقط عقوق الوالدين، ولكن التنكر لصلة الدم وكل معاني الاخوة العربية.

جريدة الأيام 28 كانون الثاني 2011

الدراما العربية
أوهام ثقافية

منذ نحو عقدين من السنين ظهرت الدراما التلفزيونية السورية كمنافس قوي للدراما المصرية على سوق المشاهد العربي، بعد ان قامت بتوظيف كل ما لدى المنتج السوري من مهارة تجارية، ومن مقومات الفن والأبداع والثقافة، حيث تجمعت كل مكونات العمل الفني الناجح من النص إلى الأخراج مرورا بالتمثيل والتقنيات المختلفة، وقد خرجت الدراما السورية في أطار من الأبهار البصري من خلال تقديم عدد من المسلسلات التي اندرج تصنيفها فيما سمي ب" الفنتازيا التاريخية " والمقصود اعمالا توحي بان زمنها الممثل، اي الذي وقعت فيه الأحداث، انما هو زمان ماضي، بل وقد جرى قبل مئات أو آلاف السنين، دون ان يتم تحديد مكان أو زمان محدد، وفي ذلك أحتيال، على الحقيقة التاريخية أو هروبا منها، حتى لا يتم الألتزام بها، لكن المهم هو ان تلك الأعمال قدمت فكرة سياسية، ذات طبيعة قومية، أساسها توحد العرب ضد الغزاة من الأعداء الخارجيين، كما انها صورت بيئة مختلفة عما يعيشه الناس الان، أو قدمت صورة غير معتادة لدى العين، فأدهشتها، وكسرت من حدة رتابة الدراما المصرية.

الدراما السورية تلك،أستفادت من حرب الخليج الأولى، ذلك ان اعتمادها على التصوير الخارجي وعلى المجاميع قد كلف الأنتاج كثيرا، وبذلك فان انتاجها كان مغامرة انتاجية بحد ذاته، لم يكن التاجر الدمشقي الشاطر ليقدم عليها لولا تحقق السوق سلفا، والسوق هنا هو الخليج الثري بالمال النفطي، وقد تحققت الفرصة بمشاركة سوريا في ذلك الحين بتحالف " حفر الباطن "، وبذلك فان التحفظ الخليجي، السياسي والثقافي على سوريا قد تراجع، وان كان إلى حين في ذلك الوقت.

ما انتج من مسلسلات سورية خلال عقدين مضيا من السنين، هو ما يمكن ان يشكل مادة الدراما السورية الحقيقية، اما بالنسبة للدراما المصرية، فهي كما هو معروف أكثر عراقة، وابعد شأنا، لكنها تقليدية بالأساس وهي تعتمد على قوة النص، والمؤلف فيها اهم من المخرج، وهي تستند في الترويج والتسويق على النجوم أو " السوبر ستار " الذي يحمل العمل، ويتلقى جزاء كبيرا من ميزانيته، لذا فان الدراما السورية ظهرت كمنافس للدراما المصرية، وكدراما مختلفة عنها،فهي اعتمدت الصورة بدلا من النص، وقادها المخرج بدلا من المؤلف، وكانت بطولتها جماعية بدلا من الأعتماد على النجم المتحقق

في السينما، وهكذا كان من شأن التنافس بين دراما متحققة واصيلة ودراما ناشئة وشابة ومبدعة ان ظهرت مجموعة من الأعمال الدرامية الكبيرة خلال السنوات الماضية أو خلال عقدي التسعينيات والألفين.

وفي سياق الصراع التجاري،سعت الدراما المصرية إلى " احتواء " منافستها، وكان ذلك متابعا من قبل اعلى مستوى سياسي في البلاد، وفي سنة ما قبل بضع سنوات، وفر قطاع الأنتاج المصري كل امكاناته لانجاح مسلسل "أم كلثوم"، بعد أن تقدمت الدراما السورية في انطلاقتها الأولى التي قادها نجدت انزور، ثم لوحظ سعي المصريين إلى ضم النجوم السوريين، ممثلين ومخرجين لأعمالهم، حتى يقوموا بوقف عجلة الأنتاج السوري، وفي عام توقع الكثيرون ان تختفي الدراما السورية، بفعل هذةالأجراءات المصرية، ولكن ظهر فجاة " باب الحارة " ليظهر ان الحضور الدرامي السوري، حتى ولو بعمل فيه مشاكل درامية في البناء والحبك، قد حقق مكانته لدى المشاهد العربي دون رجعة.

طبعا لابد من الأشارة إلى أن الدراما التلفزيونية العربية، تستثمر شهر رمضان الكريم، لتقدم جل أعمالها، حيث بات من شبه المستحيل، ومن النادر جدا أن يتم عرض مسلسل لأول مرة في وقت آخر غير شهر رمضان، وذلك طبعا لان وقت المشاهدة يكون نموذجيا، فمعظم الأسر العربية، وبسبب من الصوم تجلس في البيوت اطول فترة ممكنة، خاصة منذ ما بعد الأفطار- بعد آذان المغرب - وحتى الفجر، تقريبا، وهي تشاهد التلفزيون، الذي يتفوق في هذة الفترة على كل منافسيه بمن فيهم الأنترنت!

خلال العامين الماضيين، وبعد ظهور الربيع العربي، الذي أخذ في اطاره اهم دولتين عربيتين تنتجان الدراما التلفزيونية: مصر وسوريا، توفرت فرصة لدول أخرى ان تقدم دراما تلفزيونية تسد الفراغ الأنتاجي الناجم عن انشغال المصريين والسوريين بأسقاط انظمتهم الداخلية واعادة ترتيب واستقرار الأوضاع الداخلية، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، ولهذا اسبابه بتقديرنا، والتي تعود إلى عدم توفر المقومات الأنتاجية في الدول العربية الأخرى مثل العراق والمغرب وتونس،، ومع ان الخليج (الكويت والأمارات) حاولتا الأستفادة من هذا، الاولى عبر انتاج اعمال كويتية والثانية اعمالا مشتركة، تقدم فيها نموذج التعايش بين العرب في الامارات، الا ان الفراغ كان ملحوظا!

خلال رمضان الحالي، يكاد المرء لايجد عملا يروي غليله من المتعة البصرية والثقافية، وحتى العمل التاريخي " عمر " يكاد لا يقدم شيئا بعد ان شاهدنا السيرة أكثر من مرة، لذا فان التكرار يظهر جليا، ولا ينفع ان تقدم السيرة مرة عبر خالد ومرة عبر عمر!

السذاجة كلها تظهر في محاولة اظهار بطولة افتراضة من خلال " فرقة ناجي عطا اللة " ولو كان الأسرائيليون على هذا القدر من السذاجة لما بقيت أسرائيل حتى اللحظة موجودة، هي بطولة أفتراضية تعوض العجز الواقعي، ثم هي تكرار سمج لظهور بات مملا لنجم خفت كثيرا بريقه، وصار على شاكلة الزعماء الذين يرغب الشعب في أسقاطهم بعد ان مل رؤيتهم!

ربما لأجل هذا، وربما بهدف البحث عن ما هو جديد، يذهب المشاهدون إلى التركي والمكسيكي، رغم ان طولهما لا يناسب ذائقة " تيك اواي "،أخيرا يبدو ان الثقافة العربية الان في حالة مخاض، كما هو حال سياستها، وانه لابد من انتظار بعض الوقت حتى يتبين خيط درامي أبيض جديد من خيط درامي رمادي، مضى، وبات جزءا من الماضي القريب، لكنه المتلاشي.

جريدة الأيام 3-8-2012

الترامال فني ضد الأحباط

لو فاز المشارك في برنامج الأم بي سي "آراب أيدول" الفسلسطيني محمد عساف، كما هو متوقع بالمسابقة المعربة عن البرنامج الأمريكي الشهير، فإن جنون بعض الفلسطينيين، سيملأ الدنيا، ولكن إلى حين، تماما كما سبق وأن حدث قبل بضع سنوات حين فازت الأردنية ديانا كرزون في نهائي صاخب من برنامج مشابه "ستار أكاديمي" كان بينها وبين السورية رويدة عطية، كاد أن يحدث "حربا فنية" بين سوريا والأردن، بعد أن تجند شعبا البلدين، كل إلى جانب مواطنته!

من يذكر الأم بي سي، يدرك أنها كانت مع "إي آر تي " رائدة العصر الفضائي العربي، إلى أن خطفت الأضواء منهما معا كل من الجزيرة والعربية، اللتين تخصصتا بالبرامج الأخبارية والسياسية عموما، إلى أن وصلتا إلى لعب الدور الرئيسي في أحداث الربيع العربي الذي أسقط أنظمة في غضون أسابيع، ومن ثم فتح عددا من المجتمعات العربية على حالة من الفوضى التي لم تنته بعد.

والملاحظ أن هذا البرنامج "آراب أيدول" يجيء بعد برنامجين سابقين، هما "سوبر ستار" و "ستار أكاديمي"، نجح من خلالهما عدد من الموهوبين العرب في الفوز بهما، دون أن يحققوا الكثير من الشهرة لاحقا، أو حتى الحضور الفني، ذلك ان حساب السرايا سرعان ما يتضح انه غير حساب القرايا، فعالم الفن الآن أنما هو عالم "بزنس" ليس بالضرورة أن ينجح فيه من يحصل على فرصة عابرة، وان كانت مهمة، لأن له شروطهوتفاصيله التي تحتاج إلى مؤسسات تصنع النجوم وفق مواصفاتها وبناء على الذائقة والشروط العامة.

وهنا نحن لسنا بصدد تعداد، أو استرجاع أسماء من فازوا بمثل هذة البرامج للتأكيد على ما نسعى إليه، بعد أن نجح مصريون ومغاربة، لبنانيون وحتى خليجيون،في مسابقات سابقة، بالكاد يتذكرهم من كانوا يتابعون البرامج طوال الأسابيع والِأشهر المتتالية، ويتدافعون للتصويت لهم، وكأنهم في حفل يانصيب أو في مباراة كرة قدم!

من الواضح أيضا أن هناك من يجد في مثل هذة البرامج من الفنانين المتحققين والمشهورين فرصته، ليملأ جيوبه بالمال، لقاء مشاركته وطلته التي تجلب الجمهور، وتدفعه إلى أرسال رسائل الجوالات القصيرة، والى الجلوس أمام شاشة الفضائية التي كاد الناس أن ينسوها طوال العام، ولعل حضور أحلام وراغب علامة، وتحولهما إلى

حديث الناس طوال الفترة خير دليل على هذا، حيث يمكن القول بأن البرنامج انما صار مناسبة لتستعرض أحلام "سطوتها الفنية" وتأكيد علامة على أنه بات مدرسة فنية،،،

المهم أن البرنامج تحول خلال أسابيع عرضه إلى ما يشبه أستراحة المحارب، بالنسبة لملايين البشر من العرب الذي أعيتهم مشاهد القتل اليومي التي تبثها الجزيرة والعربية من سوريا وليبيا ومصر والعراق،

ولابد من ملاحظة أنها تحولت إلى مناسبة لتأجيج الشعور "القطري" بين العرب، بعد ان فتحت لهم أحداث "الربيع العربي" أفق التوحد بالشعور القومي،حتى لو كان ذلك من بوابة المأساة، رغم ان الحدث السياسي نفسه، اظهر ان ما يفرق أبناء البلد الواحد أكثر مما يجمعهم، بعد الصراعات السياسية الداخلية على الحكم.

لكن ما يهمنا هنا، بمناسبة مشاركة عساف، هو ملاحظة الأهتمام الشعبي الفلسطيني، بدافع التعصب "الوطني" فمن يصوت له من الفلسطينيين، انما يفعل هذا لأنه فلسطيني بالدرجة الأولى، وليس لأنه موهوب فقط، وليس - قطعا - بدافع الأهتمام الفني، وسبق للفلسطيني عمار حسن أن تقدم في مسابقة سوبر ستار، ولكنه حين عاد إلى فلسطين، لم يتحول إلى فنان خارق للعادة، كما يتوقع كثيرون الآن لمحمد عساف، والأمر يؤكد توق الفلسطينيين إلى أن يعيشوا حياة طبيعية مثل اشقائهم العرب، ولكنهم يتقنون فنون القتال أكثر من فنون الغناء،والأستثناء هنا أنما يؤكد القاعدة، وذلك لا يعني انالفلسطينين لم يبدعوا فنا وأدبا، ولكن الفن الملتزم والوطني، وهذا ما فعله درويش وثلة من السينمائيين الفلسطينيين الذي وصلوا مشارف الأوسكار. وكنا نفضل أن يكون دافع الأنتماء لفلسطين هو أن فلسطين قضية تحرر، تشرف من ينتمي إليها، وليس لمن ولد فلسطينيا فقط.

ما لابد من الأشارة إليه، هو محاولة تفسير سبب الأهتمام الرسمي وأهتمام شركات ومصارف كبرى، بدعم حملة التصويت لعساف، بتقديرنا، أن السبب لا يعود إلى أهتماممفاجيء بالثقافة والفن، فعند تشكل الحكومة الجديدة سقط مقعد وزارةالثقافة سهوا، ولولا أحتجاج الخلايلة لما تم تكليف أحد بالوزارة، التي على أي حال لم تفعل الشيء الكثير طوال عشرين عاما للثقافة الفلسطينية الضرورية في مواجهة الأحتلال، وحيث يمكن الأهتمام بالفن بشكل عام وبكل الفنانين من خلال برامج عديدة، أقلها اقامة معاهد الموسيقى، والمسارح والمراكز الثقافية، ولكن يبدو أن التوقيت لعب دوره أيضا، فالحدث يجيء في وقت أثقل فيه الأحباط كاهل الفلسطينيين من جراء أخفاق فتح وحماس في وضع حد للأنقسام، وفي وصول المفاوضات إلى طريق مسدود، وفي تآكل قوة الدفع بعد فوز فلسطين بعضوية الأمم المتحدة قبل أكثر من نصف عام، وفي مواجهة الأحباط في غزة ينتشر تناول "الترامال" بين الشباب هناك، فأراد البعض أن يجعل من آراب أيدول

حبة الترامال فني، إن جاز التعبير، لنسيان إحباط عام يعم الفلسطينيين، الذين هم في كل الأحوال ليسوا بحاجة إلى أشارت تؤكد توحدهم، ليس في الضفة والقطاع وحسب ولكن في الداخل والخارج، لكنهم بحاجة إلى فعل حقيقي تقدم عليه فتح وحماس على طريق الوحدة وانهاء الأنقسام!

جريدة الأيام

2013/6/21

منال موسى ضحية البزنس الإعلامي!

دأبت فضائية إل أم بي سي، منذ سنوات على تقديم برامج غربية/ أمريكية معربة، تهدف للإبقاء على حضور الفضائية التي تعتبر واحدة من رواد الأعلام الفضائي العربي، لكنها وبسبب من كونها محطة خاصة، أي تجارية بالدرجة الأولى، ورغم تنوع محطاتها، إلا أنها لم تعد بقوة حضور أو تأثير العربية أو الجزيرة، مما يؤكد مجددا بأن النفوذ الإعلامي كما هو حال النفوذ السياسي والاقتصادي، ما زال في الدول والمنطقة العربية مملوكا للدولة، وان القطاع الخاص ما زال غير قادر على منافسة الدولة القطرية ولا بأي حال من الأحوال، ولا بأي مجال من المجالات.

قد يمكن القول بان الإم بي سي، لا تحقق حضورا يوميا، كما هو حال العربية والجزيرة، إلا أنها تحقق حضورا موسميا، ارتباطا ببرامج معينة، فقد كان الجمهور العربي يتابع وبشكل لا نظير له جورج قرداحي في برنامج "من سيربح المليون" وهو برنامج أمريكي تماما، وكان يقدم الإعلامي اللبناني الأصل نسخته العربية، وبالطبع فان الحصول على امتياز التعريب له مقابل مالي للشركات الغربية أو الأمريكية المنتجة، المهم في الأمر أن المحطة تتابع وخلال السنوات القليلة الأخيرة تقديم برنامج " أراب آيدول "، الهدف منه أنتاج مغنين جدد من أنحاء الوطن العربي، كما سبق وان تابعنا برامج "سوبر ستار" و "ستار أكاديمي"، حيث تقوم الفكرة على أساس جمع عشرات من المواهب الغنائية، تخضع للتصفية وفق مرحلتين: الأولى، يكون فيها الرأي ومن ثم القرار للجنة التحكيم، والثانية يكون فيها المعيار والحكم للجمهور و من خلال التصويتات التي تتلقاها المحطة الفضائية.

هنا لابد من ملاحظة أن المعيار التجاري، كان سببا في تسجيل الكثير من الملاحظات التي من شأنها أن تمس بنتيجة المسابقة، فأول ملاحظة يمكن إبداؤها على كيفية جمع المواهب، دون الاعتماد على مدارس أو معاهد أو أكاديميات الموسيقى والغناء (الأوبرا ومعهد الموسيقى العربية، على سبيل المثال)، بل إن البرنامج نفسه كان وما زال يمكنه أن يقيم بين الناس ما ينفعهم على الأرض، ونقصد إنشاء سلسلة معاهد لتعليم الموسيقى والغناء في أنحاء الوطن العربي، ثم طبيعة لجنة التحكيم، التي ربما كان أعضاؤها أنفسهم بحاجة إلى فحص وتأهيل، فالمحطة تعتمد معيار النجومية، لجمع اكبر عدد من المشاهدين والمتابعين، فلجنة التحكيم مكونة من أربعة أفراد، مطربتان ومطرب

ومنتج، وهم نجوم بالدرجة الأولى، أي قادرون على تحشيد المشاهدين والمتابعين، وكان يمكن، بل ربما من اجل رفع سوية البرنامج المهنية والاحترافية أن تتعدد اللجان لتشمل أساتذة موسيقى وملحنين كبار، أمثال حلمي بكر، هاني مهنى، مجدي الحسيني، ممن زاملوا الكبار والعمالقة، بل كان يمكن أن تتضمن اللجنة مطربين أهم وأكثر جدية ومهنية ووعيا، مثل: محمد عبده، ماجدة الرومي، سميرة سعيد، آمال ماهر، لطفي بوشناق، رابح درياسة، أو عبد الوهاب الدوكالي.

برنامج التصفية يتعمد تطويل فترة المتابعة لتستمر ما يقارب الثلاثة أشهر، أهم فترة منها وهي فترة الحصاد، فترة التصويت، حيث يتم إشعال روح المنافسة على أساس قطري، حين يتم الأخذ بعين الاعتبار تصويت مواطني دول عربية معينة لأحد مواطنيها المشاركين في المسابقة، وكثيرا ما لاحظنا، وفي كل عام أن مستويات السياسة تتدخل في دعم مرشحيها وكأنهم أبطال قوميون، وهذا حدث أيام المنافسة في سوبر ستار بين الأردنية ديانا كرزون والسورية رويدة عطية، كذلك العام الماضي في أراب آيدول، حيث تجند قادة الدول، ومن ثم تطوعت شركات، منها شركات الهواتف الخلوية لتقديم خدماتها مجانا، للتصويت لصالح مواطنها بالتحديد.

بالطبع يمكن أجراء حسبة بسيطة للقول بأن رسائل الأم أس التي ربما يصل عددها إلى ما يفوق الخمسين مليون هي من يمول البرنامج بالنتيجة، وتكسب المحطة، على الأقل الحضور والترويج والإعلانات، إضافة إلى الأرباح المالية. لكن النتيجة لا تكون مطابقة للجودة بالتمام والكمال، وربما كانت متابعة من فازوا في مسابقات عديدة، في برامج منها ما توقف مثل سوبر ستار، وستار أكاديمي، ومنها من بقي، وسيتوقف بعد عام أو عامين أو أكثر، بأن في الفن ليس هناك من مرتبة أو رتبة كما هو الحال في المؤسسات العسكرية أو السياسية أو حتى المؤسسات الإدارية أو الشركات، وأن الظهور ومن ثم التقدم ببرامج المسابقات وحتى الفوز فيها، قد يفتح الباب للمتسابقين والفائزين للتحقق والنجاح، ولكن هناك من قد يفوقهم نجاحا دون تحقيق الفوز، أي أن هناك عوامل أخرى تحقق النجاح الفني.

ما لفت النظار هذا العام في مسابقة أراب آيدول أنه وقبل عدة جولات من النهاية، طغى الطابع الذكوري على المتسابقين الستة المتبقين، كذلك أنهم انحصروا في المشرق العربي، والأهم كان الخروج الدراماتيكي للفلسطينية الموهوبة، وهي من عائلة فنية بالمناسبة، ونقصد منال موسى، والطامة الكبرى كانت أن التصويت لها تأثر سلبا، بسبب إشاعة تقول بأنها " إسرائيلية " نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا يؤكد مفارقة وسذاجة، طالما رافقت الوعي الثقافي حتى في أوساط النخبة الثقافية الفلسطينية والعربية،

التي لا تفرق بين الجنسية والهوية، فهناك ملايين العرب يحملون جنسيات دول عديدة، منهم كتاب وفنانون، وهذا انطبق على قادة مثل أبو عمار ورفاقه الذين كانوا يحملون جوازات سفر جزائرية ويمنية،وحتى أننا حتى اللحظة -نحن الفلسطينيين- بما فينا رئيسنا وكل قياداتنا السياسية نحمل جواز سفر سلطة الحكم الذاتي، وكان حال إميل حبيبي وسميح القاسم وتوفيق زياد وحتى رائد صلاح، هو حال منال موسى المناضلة بالفن من اجل انتصار هويتها الفلسطينية على جنسيتها الإسرائيلية المفروضة عليها، بحكم أن فلسطين محتلة، وتلك الحقيقة التي يرفض وعي عربي قاصر على إدراكها، حين يتعامل مع الثقافة والفن بقصر نظر، فيراها ساحة ضيقة أو ضعيفة فيحرّم عليها ما يحلله للسياسة، وهنا يمكن سرد عشرات المفارقات، التي لا يتسع مجال مقالنا لسردها، لكن ما لابد من قوله، بأن إقدام البعض على إغماض العيون عن الحقائق الفاجعة، أو دفن الرؤوس في الرمال كما تفعل النعام، لا يغير من واقع الحقائق المرة شيئا، لذا ربما كان درس منال موسى، ومن قبلها برواس حسين الكردية، التي تنتمي لقومية أنجبت صلاح الدين، حافزا لقيام الأم بي سي بمراجعة توازن بين ما هو تجاري/ تسويقي، وما هو مهني/ حرفي حفاظا على ما تبقى من أخلاق وقيم لأمة عربية تذبح من الوريد للوريد، وذلك في حقلي الفن والثقافة!

جريدة الأيام 28/ 11/ 2014

"حارة اليهود" تعيد لمصر كبرياءها الفني!

لا أظنني أبالغ أو أقول الكلام على عواهنه حين أقول بان مصر لم تنتج منذ سنوات طويلة عملا دراميا على قدر من الوعي والأهمية، الفنية والثقافية، كما فعلت في " حارة اليهود " العمل الدرامي الذي عرض في رمضان قبل أيام، ضمن حالة من " الانتفاض " في الإنتاج التلفزيوني، تشير إلى أن مصر عادت بعد سنوات عجاف، من كبوتها، لتقدم قدرا عاليا من الإنتاج الفني الذي تتميز به وتقدمه للجمهور العربي بأسره، خاصة بمناسبة الشهر الفضيل، الذي يجمع أكثر من 300 مليون عربي/ مسلم، أمام الشاشة الصغيرة، كل مساء، وطوال شهر رمضان المبارك بالكامل!

الأمر طبيعي تماما، فمنذ عقود طويلة ومصر تتميز بإنتاجها الفني، وحتى بعد أن دخل الإنتاج الدرامي السوري كمنافس قبل عقود قليلة، ظلت الدراما المصرية تحتل المكانة الأولى، لكن ومنذ عام 2011، وبسبب ما تعرضت له مصر، كذلك سوريا من مشاكل سياسية داخلية، تراجع أنتاجها الفني، خاصة على صعيد الدراما التلفزيونية، لكن من الواضح أن ما حدث لمصر من كبوة الجواد، قد صار وراءها، بدليل ما قدمته عبر الشاشة الصغير خلال رمضان الأخير من كم أنتاجي متميز وصل إلى مستوى رفيع عبر " حارة اليهود "!

أولا لابد من الإشادة بالفكرة، التي بحد ذاتها تعيد الاعتبار للوعي العربي، الذي ربما يكون قد فقد اتزانه " وعقله " في السنوات الأخيرة، حين انفتح التطرف خاصة الطائفي والديني إلى حدود لم تشهدها المنطقة من قبل، والى حدود غير معقولة ولا مقبولة.

كذلك الفكرة بحد ذاتها تعتبر جريئة وذكية، وهي تمثل مراجعة كانت واجبة منذ وقت، لمرتكزات وأساسيات الصراع العربي/ الإسرائيلي، ثم إن العمل قدم دراما إنسانية غاية في الجمال والروعة، كذلك من زاوية غير مطروقة من قبل، وهذا ما يضفي على العمل أهمية بالغة، رغم بعض المشاكل والأخطاء الفنية وحتى التاريخية، التي بالغ في تقدير أهميتها البعض، بل وجعل منها نافذة لمهاجمة العمل، محاولا الظهور بمظهر المهني أو الحرفي، بينما كان الدافع من مهاجمة العمل أو محاولة التقليل من شانه العظيم، هو موقفه السياسي، أن كان من زاوية الكشف عن حقيقة موقف الأخوان المسلمين في الصراع العربي/ الإسرائيلي أو من الثورة الناصرية، أو من زاوية الباعث الاستعماري لإقامة " دولة " إسرائيل.

حارة اليهود دراما تلفزيونية، تقدم مأساة عائلة اليهودي المصري، الكادح والمكافح والوطني هارون داوود، تاجر المانيفاتورة، الذي توفي كمدا وقهرا في الحلقة الثلاثين، بعد أن انشطرت أسرته نصفين نتيجة إقامة إسرائيل وظهور الصراع العربي/ الإسرائيلي، هذا في المتخيل الدرامي أما في الواقع فكانت عائلة العدل تفقد نجمها سامي!

طبعا قصة العمل الرئيسية ارتكزت على حب كان ممكنا، قبل اندلاع الصراع الناجم عن إقامة "إسرائيل" بين أبن حارة اليهود العربي/ المصري المسلم علي وجارته ابنة الحي العربية/ المصرية اليهودية ليلى، وصار مستحيلا بعد اندلاع الصراع، وهذه أشارة متقدمة في الوعي الإبداعي العربي عموما، بعد إشارة الشاعر الفلسطيني محمود درويش في قصيدة "ريتا" والتي ضمنها الفنان فراس إبراهيم في العمل الدرامي "في حضرة الغياب" وجعل منها أحد أهم ركائز العمل الذي عرض أيضا في رمضان ولكن قبل عدة سنوات.

لكن الإشارة الأهم والتي تدل على نضج درامي لدى الأخوة "العدل جروب" هي تضمين العمل مقولة ثقافية/ سياسية في غاية الأهمية، وهي فتح الباب لتخليص حالة الصراع مما علق بها من شوائب ناجمة عن التطرف وخارجة عن السياق الإنساني، حين دفع بليلى للهجرة إلى خارج مصر، ولكن ليس لإسرائيل، بل لفرنسا، وليس للأبد، ولكن إلى حين، أي إلى حين تسوية أو معاجلة هذا الصراع معالجة صحيحة تضع له حلا إنسانيا يستقيم وقيم العدل والعدالة، بان جعل الباب مواربا، على احتمال أن يكلل الحب بين علي وليلى بالنجاح في يوم من الأيام. أم علي تقول: شقة هارون هتفضل موجودة وليلى مصيرها ترجع!

لم يكن احد من أطراف الدراما، مكتملا وهذه حقيقة الحياة، فقد ظهر "موسى" كولد عاق ليس لأبيه فقط، ولكن كخائن لبلد عاش وتربى فيه كمواطن، وإن كان قد " جر " أمه معه، إلا أن أباه آثر الموت على فراق مصر، فيما اضطرت ليلى التي كانت احد أهم ضحايا هذا الصراع، بعد أن فقدت حبها وأباها، وأسرتها كاملة، للهجرة ولكن لفرنسا، كما ظهر حسن أبن خليل الطرشجي كمتطرف أخواني، معاد لأبناء حارته على أساس طائفي وبدافع فهم مغلوط للدين الحنيف، أدى به ليس فقط لأن يتورط مع جماعته في حرق محال اليهود ودفعهم للهجرة لإسرائيل، وحسب، بل والى أن يلحق العار بأسرة الحسيني، حين أغوى فاطمة بان تلتحق به كهاربين - بعد محاولة اغتيال عبد الناصر فيما عرف بحادثة المنصة في إسكندرية - إلى الصعيد!

كان الترميز واضحا حين اختار العمل علي وليلى كطرفي قصة الحب التقليدية، فيما نثر المؤلف جملة من القصص المكلمة، كما نثر مفردات الحارة المصرية بشكل رشيق

ومشوق، من خلال أسرة الفتوة فتحي العسال وابنته ابتهال، كذلك وجود صاحب المقهى،الطرشجي والفوال، أما اليهود،فكان منهم الجواهرجي "مزراحي" والقماش "هارون داوود" وكان بين هؤلاء المسيحي الأسطى فانوس الموظف الحكومي، الذي شارك في العمل الوطني أيضا واعتقل من قبل الإنجليز مع معظم أهل الحارة، وأسرته المكونة من الزوجة "تريز " والابنة مريم.

وخارج الحارة كان مجتمع الملهى الليلي الذي تديره المعلمة زينات، كذلك الإنجليز بجنودهم الذين يرتادون الحانة فيكونون صيدا سهلا للفدائيين، وعملاؤهم، أمثال "النطاط" والذين كانوا سببا لتأجيج الصراعات الدرامية التي تنشأ بين أفراد المجتمع لاعتبارات شخصية، لها علاقة بالطموح الشخصي، الذي وصل بأصحابه في نهاية المطاف للموت، كما حدث مع " زهرة " التي وشت بزميلاتها الراقصات اللواتي كن يساعدن في الإيقاع بجنود الإنجليز، والتي قتلتها زينات بذات "النبوت" الذي قتل فيه العسال النطاط، في إيحاء بتحول الفتوة للعمل الوطني!

نقول انه رغم وجود أخطاء فنية وحتى تاريخية ناجمة، ربما عن استعجال في تقديم العمل في رمضان، أو ناجمة عن غياب المتابعة النقدية أصلا لكل الأعمال، أو حتى كانت "مقصودة" أو معروفة ولكن الضرورة الدرامية سمحت بحدوثها، ومن مثل هذه الأخطاء الفنية، إضافة لما ذكر في الصحف، وفي مقالات سابقة لزملاء، كتاب وصحفيين، كانت هناك الإطالة المملة لمشهد حلق شعر ليلى من قبل المخابرات الإسرائيلية، كذلك ظهور اختلافات في المونتاج بين عرض وآخر، نقصد بين عرض قناة المحور مثلا وقناة دبي دراما، حيث كانت تظهر مشاهد أو مقاطع مشهديه هنا ولا تظهر هناك، خاصة بين فواصل الحلقات، وحدث هذا في مشهد حلق الشعر الذي تخللته مشاهد لكسر الرتابة من الذاكرة، في عرض واختلفت نفس المشاهد في عرض آخر ، كذلك في الفاصل بين حلقتي 26، 27، ولو قمنا بالتدقيق أكثر لوجدنا العديد من الأخطاء من هذا القبيل في العمل، نقول ان تلك الأخطاء لا تهوي بالعمل، ولا تجعل منه عملا رديئا.

وحيث أن المشاهد فجع بوفاة أحد أهم ممثلي العمل، واحد أركان العدل الجروب، طيب الذكر سامي العدل، والذي كان أداؤه في العمل يدل على حالته الصحية خاصة حين كان ينطق بصعوبة في بعض الأحيان، ويظهر عليه الإعياء، إلا أن تقديم العمل كان بمثابة خير خاتمة لمشوار الرجل الفني الحافل بالعطاء والتميز. وكان واضحا أن العمل تم الانتهاء من تصويره قبل انتهاء الشهر الفضيل، وليس خلاله كما يجري مع بعض الأعمال عادة، وإلا لما ظهر العدل في الحلقات الأخيرة والتي عرضت بعد وفاته بأيام.

لقد تميزت "حارة اليهود" بكرم الإنتاج الذي ظهر في معالجة حقبة زمنية مضت عليها 70 سنة، حيث صور حارة كاملة بكل تفاصيلها، من ذلك السيارة قديمة الطراز إلى الأغاني وأجواء تلك الفترة، كما أن العمل تضمن تصويرا خارجيا ومعارك وأماكن مختلفة، وكل هذا مكلف، وهذا على غير عادة المسلسلات المصرية التي تعالج قضايا اجتماعية حديثة وداخل الشقق والبيوت المقفلة، فلا يستند العمل على ميزانية إنتاج خارجي أو إخراجي بل على أجرة البطل/ النجم الذي يحمل العمل، وتضمنت " حارة اليهود " إعدادا مشهديا في منتهى الروعة، بحيث كان هناك رصد لعادات وثقافة اليهود المصريين حيث رأينا عرسا وطقوس دينية في الصلاة والمعبد، كما ظهر " شيكوريل "، محلات الذهب والمانيفاتورة، وكل ذلك كجزء من التراث الشعبي المصري. كما ظهر تحالف الإنجليز مع القصر والباشاوات، ومستوى الفساد الأخلاقي متمثلا ببيوت الدعارة، ونخبوية الحياة السياسية الليبرالية في ذلك الوقت، وان من بعيد!

بقي أن نشير إلى أن العمل الذي استند إلى نجومية منة شلبي التي تقوم ببطولة أولى لمسلسل درامي رمضاني، لأول مرة، إلى جانب نجم مسلسل " الجماعة " إياد نصار، قدمت نجوما برعوا في العمل وكان العمل بالنسبة إليهم تذكرة الدخول لعالم الشهرة، مثل "النطاط" و "موسى" ابن هارون، والوجوه الجديدة فاطمة ومريم، وأظن مارسيل أيضا، إضافة إلى حسن الذي كان اقل براعة من النطاط وموسى، في حين كرس العمل نجومية ربما متأخرة لهارون داوود "أحمد كمال"، وأكد حضور كل من سيد رجب "العسال"، صفاء الطوخي " دليلة "، في وقت سجل فيه الظهور الكبير الأخير لسامي العدل، وربما لجميل راتب أيضا الذي ظهر عليه الإعياء في الأداء أيضا.

جريدة الأيام

2015 /7 /21

شموس نيوز

http://www.shomosnews.com/%D8%AD%D8%A7%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%8A%D9%87%D9%88%D8%AF-%D8%B9%D8%A7%D9%81%D9%8A%D8%A9-%D9%85%D8%B5%D8%B1-%D8%B1%D8%AF%D8%AA-/%D8%A5%D9%84%D9%8A%D9%87%D8%A7

سجادة غزة الحمراء

قبل أكثر من عشر سنوات بقليل، كانت غزة خارجة لتوها من حرب إسرائيلية ضروس، استمرت ثلاثة أسابيع، وتركت وراءها أكثر من ألف وثلاثمائة شهيد ونحو خمسة آلاف جريح، 90% منهم من المدنيين، ودمارا هائلا، وحدث أنه كان قد تم اختيار القدس عاصمة للثقافة العربية في ذلك العام (2009)، وكان يجب أن تشمل فعالياتها عموم الوطن الفلسطيني في الضفة والقطاع والشتات، لذا فقد قمنا بالتحضير عبر لجنة ثقافية تشكلت من ممثلي الاتحادات العاملة في الحقل الثقافي، ورغم أن غزة كانت واقعة منذ نحو عامين في ذلك العام ضحية للانقسام، ولحكم حماس العسكري، إلا أننا نجحنا في تنفيذ: أولا المشاركة في حفل الافتتاح المركزي، وتاليا في تنفيذ عشرات الفعاليات الثقافية على مدار العام.

وقد شارك في تلك الفعاليات عشرات المؤسسات الثقافية العاملة في القطاع، بالشراكة مع فصائل العمل الوطني، حيث أحدثت حراكا شعبيا/ثقافيا، خفف من وطأة الظلام الذي كان يلف القطاع، وكان يمكن أن يستمر ذلك الحراك، لو أنه تم احتضانه رسميا حتى يتواصل ويتحول إلى حراك دائم، لكن الأمر انتهى مع انتهاء الفاعلية المركزية، وعادت الأمور لتنكفيء الثقافة وتتأثر بحالة الانقسام السياسي.

ولعله بين فينة وأخرى، تتجلى أهمية الثقافة كفعل شعبي أولا، وثانيا كفعل متحرر ولو بشكل نسبي من حسابات السياسة الآنية، حيث كانت الثقافة الفلسطينية منذ أكثر من نصف قرن، عامل إنهاض للواقع الفلسطيني، فهي حافظت على الهوية الوطنية حين تعرضت للتبديد ومحاولة الطمس، فكانت بشائرها وتجلياتها من موقع الصراع المباشر مع العدو في مناطق ال48، بوصلة قدمت رموز الهوية الوطنية، حيث تلقملايين الفلسطينيين ثقافتهم بعد ظهور شعراء المقاومة في مطلع ستينيات القرن الماضي، ثم واكبت الثقافة الثورة حين انطلقت منتصف ذلك العقد، وكانت دائما بوصلة للوحدة الوطنية، وكان عن حق دائما ما يتم اعتبار انعقاد مؤتمر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين "بروفة" للمجلس الوطني ل م ت ف.

لكن مع تقدم العمل السياسي وتوليه زمام قيادة الشأن الوطني، تم إلحاق الثقافة الوطنية بالسلطة السياسية، وتحول الحقل الثقافي إلى حقل رسمي، والى ميدان محاصصة بين الفصائل، ثم ارتبطت الثقافة بمعظمها بعد ذلك بالسلطة الرسمية، فيما كان

اتجاه ثقافي آخر يشق طريقه ضمن مسار المنظمات الأهلية، ومعاييرها المرتبطة بالمجتمع المدني، وهكذا صارت الثقافة الفلسطينية خاضعة لتأثيرات الرسمي من جهة، والخارجي من جهة أخرى، فخرجت من سياقها الحر وخضعت لحسابات متعددة، خاصة في حقول أنتاجها الجماعي، الذي يحتاج إلى مؤسسات وميزانيات، وهذه سمة ثقافة العصر على كل حال، حيث تراجع حضور المنتج الثقافي الفردي.

نستذكر ذلك، بمناسبة انعقاد المهرجان السنوي للسجادة الحمراء، مهرجان سينما حقوق الإنسان الذي ينعقد في غزة سنويا ومنذ عام 2014، وتشاء الصدفة أن ينعقد أيضا كرد ثقافي شعبي حر على الحرب الأخيرة على قطاع غزة، التي شنها الاحتلال الأسرائيلي عليها في ذلك العام.

يريد المشرفون على المهرجان الرد على الدمار الذي يستهدف روح غزة، وروح المقاومة الفلسطينية الباسلة، وكمحاولة لشق الطريق لحقل كفاحي، أرباح الفلسطينيين فيه كاملة، وخسائر الإسرائيليين فيه مطلقة وتامة، ذلك أن حقل الثقافة كما هو معروف أكثر إنسانية من حقل السياسة، والكفاح الفلسطيني من أجل الحياة إنما هو فعل إنساني بشكل مطلق، فيما البطش الأسرائيلي هو عمل وحشي بشكل تام.

ويواجه القائمون على المهرجان مشاكل لا حصر لها، حيث لا توجد حتى دور للعرض، لذا فقد جعلوا من الساحات العامة، أماكن لعرض أفلامهم، واعتمدوا على التمويل الجماعي، أي ليس من جهة واحدة، فكان أمميا -عربيا-وفلسطينيا محليا، وهكذا قالوا بأنه يوجد في غزة شيء آخر غير الموت، وغير القهر والإحباط، يقاومون بأدواتهم الإنسانية وبإبداعهم الفني، العدو الخارجي والجهل الداخلي، وحتى الحسابات الحزبية الضيقة، فعروضهم في الهواء الطلق مفتوحة للجميع، تبحث عن الهواء النقي، وتسعى للحياة ما استطاعت إليها سبيلا.

في حقيقة الأمر، لقد بات الوقت مناسبا للقول بأن الثقافة الفلسطينية تحقق المنجزات المذهلة، في ظل التراجع في المنجز السياسي، وهذا هو حال الشعب الفلسطيني عموما، يكمل بعضه بعضا، فحين يظهر عجز النخبة، يهب الشعب بانتفاضة هنا، أو حراك هناك، وحين تعجز السياسة أو تجد نفسها في طريق مسدود، تنطلق الثقافة لتفتح الأبواب المغلقة، وهنا لا بد من القول، بأن الثقافة الفلسطينية التي أنجبت المنجز الشعري العظيم منذ مطلع ستينيات القرن الماضي، تضيف اليوم منجزات في حقول الرواية، السينما، الموسيقى والغناء، وفي حقل الفن التشكيلي أيضا.

فليس أمرا من غير معنى أو مغزى، أن يفوز أكثر من فلسطيني بجوائز البوكر العربي والكتارا، ولا أمرا عابرا أن يفوز أكثر من فلسطيني بلقب محبوب العرب، وليس أمرا عاديا أن تصل السينما الفلسطينية عبر مبدعين متميزين إلى رحاب مهرجان كان العالمي.

ومن ضمن هؤلاء كانت سجادة غزة الحمراء، التي رفعت اسم فلسطين عاليا حين استضافها كان في مهرجانه السنوي صيف هذا العام، وكم كان عظيما أن تستذكر السجادة في مهرجانها الحالي كرامة فلسطين، التي تبقى فوق كل اعتبار فصائلي، وأن تؤكد على وحدة الوطن متجاوزة بذلك انقساما بغيضا سببته الفصائل وما زالت تعجز عن وضع حد له، رغم مرور أكثر من اثني عشر عاما على وقوعه.

هكذا تمضي الثقافة الفلسطينية قدما، وتعود إلى دائرة الفعل الوطني، الوحدوي من جهة والمقاوم من جهة أخرى، لتقول بأن لدى الشعب الفلسطيني الكثير مما في جعبته، وأنه سيمضي إلى رحاب الحرية والاستقلال، طال الزمان أو قصر، وأن ثقافته ستظل درعه المنيع وحصنه المتين، وأنه سيعرف كيف يفرض الجدية في الداخل، وكيف يفرض الانكفاء على العدو في الخارج، وأن فتح جبهة الثقافة، مقدمة لإطلاق جبهة الكفاح الشعبي، حيث النصر يكون مؤكدا.

جريدة الأيام10/ 12/ 2019

مقالات نشرت في مواقع مختلفة:
محمود درويش
الشاعر المكتمل

على مدى نصف قرن تقريبا، ملأ محمود درويش الدنيا شعرا وشاغل الناس فعلا وإمتاعا، لهذا سماه البعض متنبي العصر الحديث، وللتأكيد على مكانته الشعرية، استنادا إلى أن المتنبي الذي يضع البعض درويش إلى جواره في المكانة يعتبر أعظم شعراء العربية على مر العصور.

مما لا شك فيه أن لدرويش مكانة بين شعراء العربية قي مرحلة ربما تعد الثانية أو الثالثة التي أنجبت شعراء عظام، بعد حقبة شعراء الجاهلية، وشعراء العصر العباسي، نقصد من ظهروا خلال وبعد منتصف القرن الماضي، مكانة مرموقة، في الصف الأول مع الشعراء: ادونيس، البياتي، السياب، عبد الصبور، ونزار قباني. وهو - أي درويش - حققت له موهبته الاستثنائية حضورا سريعا ومتميزا منذ كان في التاسعة عشرة من عمره بعد أن نشر أول مجموعاته الشعرية " عصافير بلا أجنحة "، بل ربما منذ قصيدته الأولى الأهم والتي ظل يعاني من وقع تأثيرها على القراء سنينا طويلة -" سجل أنا عربي "-، وهكذا يمكن القول بأن الضرورة التاريخية اختارت درويش شاعرا، معبرا عن شعب بأكمله، حيث تحددت له مهمة شاقة، فالحديث يدور عن شعب فلسطين الذي بات بقضيته مدار اهتمام العالم بأسره طوال نصف القرن الذي عاشه درويش كشاعر، تحددت مهمته كشاعر للمقاومة الفلسطينية، مع انطلاقة ثورة هذا الشعب التحررية التي أثارت اهتمام العالم بأسره.

بذلك يمكن القول بأنه بقدر ما كانت تجربة درويش الشعرية تجربة خاصة، بقدر ما كانت تعبر عن تحولات القضية الفلسطينية وتطور مراحل الثورة ذاتها، التي واكبها منذ مرحلة الخروج من الأردن إلى لبنان بداية السبعينيات، حيث مرت الثورة بمرحلة تراجيدية، أنضجت تجربة الشاعر، الذي سجل تلك المرحلة بقصائد خالدة -احمد الزعتر، مديح الظل العالي-.

تميز درويش عن مجايليه من الشعراء الفلسطينيين بأنه حقق مكانة فاعلة للمثقف بين حشد السياسيين، فهو الوحيد الذي منح عضوية اللجنة التنفيذية كمثقف مستقل، ومنح كذلك باعتباره جامعا، ولا خلاف على مكانته رئاسة اتحاد الكتاب، ثم حققت مكانته

وفاعليته مكانة لمجلة الكرمل، فقط لأنه رئس تحريرها مع ذلك فانه ورغم انه ولد - كشاعر- مشهور ومتميز، إلا انه لم يتوقف عن المثابرة والاجتهاد، فهو الشاعر الفلسطيني الأبرز الذي ظل يسعى إلى الإحاطة بالتجارب الشعرية العالمية، وربما أظهرت " الكرمل " بحجم ما أفردته من ترجمة ومن مساهمات لكتاب عرب متنورين ومحدثين، مدى هذه النزعة لدى الشاعر درويش.

يمكن بكل بساطة وبصراحة أيضا مقارنة ما حققه درويش من تطور في تجربته الشعرية مع مجايليه من الشعراء الفلسطينيين، الذين تمتعوا مثله، بالتعاطف الشعبي - العربي والدولي كشعراء مقاومة - لكنه كان الوحيد الذي ضاق ذرعا بهذا الحب - حين هتف قائلا " ارحمونا من هذا الحب "، ثم تميز بعد ذلك بالحرص على الخروج من عباءة الشعار والايدولوجيا - دون الخروج من دائرة الانحياز للقضية العادلة، بما أنتجه من شعر بعد الخروج من بيروت و منذ " أرى ما أريد " وهكذا واصل تحولاته الشعرية الدائمة وصولا للجدارية، التي قدمت كشفا عميقا لغيب عبر عنه كثيرا قي مدونات دينية أو أسطورية، كما يشير احمد عبد الحسين، بذلك يمكن القول بان تجربة درويش الشعرية كانت تجربة غنية، كثيرة التجاوز والتحول والتطور، منذ أن بدأ غنائيا بامتياز، ثم تسجيليا في مديح الظل العالي، إلى أن جرب الشعرية الكاملة، في ما كتبه في باريس، حيث اقترب من قصيدة النثر: كزهر اللوز أو أبعد، إلى سعيه لكتابة القصيدة الملحمية، منذ أواخر الستينيات، كان حضور درويش طاغيا، لدرجة أنه يمكن القول بأن كل الشعراء الفلسطينيين الذين ظهروا بعده تأثروا بهذه الدرجة أو تلك به، وظل عنوانا للشعر الفلسطيني المقاوم - بالمناسبة لم يظهر شعر فلسطيني على مدار ثلاثة عقود، لم يكن مقاوما - ولم يجتازه في حياته أي شاعر فلسطيني، باستثنائه هو، الذي ظل يسعى إلى تجاوز ذاته والتفوق على ما حققه بفتوحات شعرية متواصلة.

وكان وعيه الشعري كافيا ومنذ فترة مبكرة لحماية تجربته من الوقوع في النمط،- فهو رغم انه واجه الوعي الاستعماري الذي رأى في سرحان بشارة سرحان مجرد قاتل، كتب عنه رائعته " سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا " حيث قدمه وقدم من خلاله الفلسطيني المقاوم/ الفدائي على الهيئة الإنسانية الاعتيادية للبشر.

ودافع عن الحياة ما استطاع إليها سبيلا، وكافح ضد الغزاة والمحتلين كأفضل محام عن قضية عادلة " بين ريتا وعيوني بندقية " وهكذا أسقط في يد الجلادين الذين لم يرتاحوا حتى بعد أن غادر الوطن، حيث كان مكبلا بالإقامة الجبرية. مع ذلك كان جريئا، وقاد الوعي العام، ولم يسلم قياده له، بدعوى البحث عن شهره متحققة أو الحفاظ على شهرة مقيمة "اكتب باسم الفدائي الذي خلقا.. من جزمة أفقا".

درويش الذي حلق بالقضية الفلسطينية وكان عنوانها الثقافي واحد أهم عناوينها الوطنية، تميز إذا بأن تجربته حملت القضية الفلسطينية، ولا يمكن القول بان فلسطين هي التي حملت شعريته. بذلك قدم شعرا أضاف للشعر العربي، يظهر ذلك من خلال الاهتمام العالمي بشعره عبر ترجمته، حيث يعد مع غسان كنفاني أكثر كاتبين فلسطينيين مترجمين للغات العالمية، وربما كان واحدا من أكثر الشعراء العرب الذين أعدت عن شعرهم الأبحاث والدراسات، وحيث كرمته الجامعات، وقد عبر أكثر من مرة عن اعتزازه بأنه دخل الجامعة كمحاضر ولم يدخلها كتلميذ.

لابد من الإشارة أيضا إلى أن تجربة درويش، على رغم ثرائها إلا أن إنتاجه الشعري ظل مقروءا، حيث حقق معادلة الشعر الجيد، والمنتشر، فشعره ليس جماهيريا فقط كما هو شعر نزار قباني مثلا، ولا جيدا - في نظر النقاد فقط - كشعر ادونيس، وهو رغم متابعته الدائمة لما ينتج من شعر عربي وعالمي، ورغم قراءاته الدائمة، لم يهتم بالتنظير، مثل ادونيس مثلا، لكنه كان على وعي ودراية بما يفعل.

المهم انه جند حياته من اجل مشروعه الشعري، الذي لم يكن يشغله عنه شيء، لا المناصب - استقال من اللجنة التنفيذية عند أول مناسبة - توقيع أوسلو - ولم يهتم برئاسة اتحاد الكتاب، وحتى انه لم يكن " يغطس " في أتون الكرمل، ولم يهتم بتكوين أسرة خاصة - تزوج مرتين - نسي حتى اسم إحدى زوجتيه، لذا ولأنه أعطى كل ما لديه للشعر فقد منحه الشعر أعلى مكانة يمكن أن تمنح لشاعر عربي في العصر الحديث.

لقد تفوق درويش على كل زملائه من الشعراء العرب، بفاعليته، وذلك عبر مستويين: الأول سعيه الدائم والحثيث إلى تجاوز محطات تجربته الشعرية المتتالية - كما أشرنا -، والثاني من خلال حضوره الدائم بين القراء، حيث لم يضاهيه شاعر عربي آخر في كم المشاركات والأمسيات التي تعد خصيصا له، ومن مراكش إلى أبو ظبي، مرورا بعمان ودمشق والقاهرة، بيروت وتونس،وعلى مدار العام، وطوال الأعوام التي مضت، أي على مدى أربعين عاما تقريبا، حتى ملأ الدنيا وشغل الناس، كما لو كان فنانا موسيقيا (مطربا) أي انه يمكن القول بأنه كان شاعرا نجما، وهذا ما وفر إمكانية إحياء ذكراه دائما - في عصر الصورة - من خلال بث أمسياته الشعرية، حيث كان يتمتع بطريقة إلقاء ساحرة، عززتها تجربة مارسيل خليفة التي استندت إلى شعره بالذات في تعزيز وصول شعره للعرب مجتمعين.

يمكن القول إذا بان درويش مضى بعد أن أكمل تجربته الشعرية التي جاءت غنية ومتفردة، ضمت عشرات المجموعات الشعرية وعددا من الكتب النثرية، التي يمكن قراءة المرحلة بكاملها من خلالها، وكما هائلا من المقابلات والدراسات والأبحاث التي

سعى من خلالها أصحابها إلى تحقيق المجد والشهرة، فقط لان ما كتبوه ارتبط باسم شاعر خالد، لم تنجب الشعرية العربية على غناها وعلى مدار العقود التاريخية الكثيرين من أمثاله .

الحوار المتمدن

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=181457&nm=1

هل تكون النسخة الثالثة من " أراب أيدول " هي الأخيرة؟!

نقل عن الشاعر الفلسطيني الراحل معين بسيسو، انه - وبعد أن شكّل قائمة انتخابية في أول مؤتمر للإتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، برئاسة زيتونة فلسطين الشاعر العظيم عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) التي ضمت إضافة لمعين، محمود درويش، وواجهت منافسة من قبل قائمة حركة فتح برئاسة ناجي علّوش، وذلك عام 1972، حيث فازت تلك القائمة،قال ردا على معاتبة أبي سلمى له، والله لو كانت القائمة برئاسة المتنبي لهزموها!

نقول هذا كواحد من أدلة كثيرة على انه ليس بالضرورة الأكثر جودة أو الأدق مهنيا أو حرفية أن يأخذ حقه في الشهرة أو التقدير أو حتى أن يظفر بالجوائز حين تعقد المسابقات أو تقام المهرجانات، ذلك أن هناك اعتبارات أخرى، تتدخل، لتحدد مكانة أو موقع النص أو المبدع، وما إلى ذلك.

وفي الحقيقة فإن ما يجمع عليه النقاد، أو ما يعد وفق النظريات عملا جيدا أو ممتازا أو متقنا، قد لا يأخذ حظه في الانتشار، لذا فقد قام بعض النقاد والمتابعين بالتمييز بين أدب وفن النخبة وبين الأدب والفن الشعبي.

على أي حال، وفي سياق فتح وتحديث المجتمعات العربية، واستخداما للمتطور التقني أو المستحدث من وسائل الاتصالات والتواصل، واستثمارا لما باتت تتمتع به الفضائيات من مكانة مؤثرة ومهمة للغاية في صنع الثقافة العامة، وخلق الرأي العام، ظهرت العديد من البرامج التي تقوم على أساس التفاعل المباشر والفوري مع الجمهور، حتى انه ظهر مصطلح تلفزيون الواقع ارتباطا بهذا الأمر. وقد اتضح ذلك بكل وضوح، حين قامت بعض الفضائيات العربية بفتح الأبواب على مصراعيها أمام الربيع العربي الذي انطلق قبل نحو أربع سنوات، وما زالت أصداؤه وترددااته تنتشر وتتفاعل في كل أنحاء الوطن العربي.

وقد واكبت ثورة الاتصالات وظهور الفضائيات ظاهرة الفيديو - كليب في فن الغناء، فقدمت جمالية ومتعة الصورة مرافقة لجمالية الصوت والأداء، ويمكن القول بان ظاهرة الفنان الفرد، أو الفنان الذي تصنعه الموهبة، أو الإذاعة الرسمية بات أمرا من الماضي، فقد صارت الميديا ومؤسسات الإنتاج الخاصة تصنع النجوم، وتطلق الكليبات وفق خطط يختلط فيها البزنس مع الفن، فيما يمكن القول بأن كل شيء بات له علاقة

بالصناعة بعد أن شهدت المنطقة العربية انحسارا حادا في جملة الشعارات والجمل القومية أو الثورية السابقة!

المهم أن فضاء الأعلام المرئي العربي شهد عددا من المحطات الرائدة في المجال، وكان منها محطة الأم بي سي، والتي ما زالت تحقق حضورا، بعد أن دخل الأعلام المدعوم من الحكومات العربية، بإطلاق مجموعات الأعلام المرئي المتخصصة، حيث حققت الجزيرة والعربية مكانة أولى غطت كل الفضاء العربي وشغلت جل وقت المواطن العربي، على مختلف اهتماماته السياسية، الرياضية، الفنية، أو الاجتماعية.

رغم ذلك فقد اعتمدت الآم بي سي على البرامج ذات الوقع والوزن العالمي، وهي في حقيقتها برامج غربية/ أمريكية، مثل " من سيربح المليون "، " أراب دوت جالانت " و " أراب أيدول " وهي كلها النسخة العربية عن تلك البرامج الغربية.

المهم أن " أراب دوت جالانت"و" أراب أيدول " مهمتهما الكشف عن المواهب، الأولى المواهب بشكل عام والثانية المواهب الغنائية، ورغم أن كثيرا من البرامج التي كانت تؤدي الغرض ذاته في الماضي، وقدمت عددا من المواهب الذين صاروا لاحقا فنانين مشهورين، إلا أن " أراب أيدول " مختلف عن برامج كشف المواهب في الحقب الماضية، لكنه لا يختلف كثيرا عن برامج ظهرت ثم اختفت خلال العشر سنوات الماضية.

ظهر برنامج " سوبر ستار"، و" ستار أكاديمي"، بنفس الشكل والطريقة - تقريبا، لكن أراب أيدول ظهر بعد أن توقف سوبر ستار وستار أكاديمي، بما يفرض تساؤلا طبيعيا وتلقائيا حول إن كان سيشهد هذا البرنامج مصيرا مشابها، ذلك انه يبدو في هذا الزمن الفضائي، بات الإنسان ملولا ويحتاج إلى التجديد باستمرار، لذا فمن غير المتوقع أن يبقى اهتمامه ببرنامج ما بعد عدة دورات بنفس الحجم والمستوى.

المهم أن " أراب أيدول " أنتج ثلاث دورات على مدى السنوات الثلاث الأخيرة، كان آخرها قبل أيام، وبعد أن شارك في كل دورة عشرات المتسابقين، حيث يتم منحهم فرصة الغناء على الهواء مباشرة، أمام لجنة تحكيم مكونة من أربعة فنانين مشهورين، يتم فرز المتسابقين على جولتين: الأولى يتم فيها منح لجنة التحكيم القرار بالإبقاء على المتسابقين لجولة تالية أو أمرهم بالانصراف والمغادرة. وفي الثانية يكون للجنة التحكيم حضور وتأثير، ولكن الحكم يكون للجمهور، من خلال التصويت، حيث يبقى من ينال أعلى الأصوات، وفي كل أسبوع تتم مغادرة متسابق ينال أقل عدد من أصوات الجمهور، والتي ترسل عادة عبر أس أم أس أو الاتصال الهاتفي.

وحيث أن التصويت عبر الرسائل، والتي يبلغ ثمنها - بالمتوسط - نحو دولار أمريكي، فإن ذلك يعني بان التصويت - والذي عادة ترتفع وتيرته كلما احتدت المنافسة بين المتسابقين، حيث يتم إقحام التعصب القطري فيها، بين المتنافسين المنتسبين للدول العربية - يغطي عمليا مصاريف المسابقة،والتي تكون أيضا فرصة لظهور بعض نجوم الغناء العربي، الذين انحسرت الأضواء عنهم بدرجة ما!

لقد تم الخلط كثيرا بين الفن والمال، من خلال هذا البرنامج، ويمكن بالتفاصيل، سرد العديد من الملاحظات ذات الطابع الفني، فمثلا، لماذا لا تضم لجنة التحكيم متخصصين في الموسيقى، يفحصون معرفة المتسابقين بالنوتة الموسيقية وبالمقامات، كذلك اختبار ثقافتهم اللغوية من خلال وجود شعراء الأغاني، والسؤال الأهم، لماذا لا يفكرون بهذه الملايين افتتاح معاهد موسيقى في العواصم العربية، ثم لماذا لا يجري التنسيق مع المعاهد ودور الأوبرا القائمة لاختيار المتسابقين، حيث فقط من يحالفه الحظ بالوصول إلى مقر لجنة المسابقات هو من ينال فرصة المشاركة.

يبدو أن بعض أعضاء لجنة التحكيم من الفنانين المشهورين والأثرياء، بات يجد في المسابقة ليس فرصة فقط للظهور، والتربع لعدة ساعات في صدر البيوت العربية، ولكن أيضا فرصة للتحكم بما لديه من ثروة ومال بمآل المسابقة، وحتى بفوز هذا بدلا عن ذاك!

وما ظهر من عدم انسجام في الدورة الثانية بين كل من الإماراتية أحلام واللبناني راغب علامة، كذلك " خفة " الفنانين من لجنة التحكيم التي لا تخفى على أحد، حيث يعلقون على أداء المتسابقين أكثر مما يقدمون " تقييما " فنيا،بما يعني أن الأمر كله دون معايير علمية أو مهنية، وأنه في أحسن حالاته يعتمد الذائقة حكما ومعيارا، لذا من الطبيعي أن يختلف أعضاء لجنة التحكيم أنفسهم في حماسهم لهذا المتسابق دون ذاك، خاصة حين تتقدم المنافسة.

وحيث أن أحلام تعتمد على كونها خليجية وثرية، فقد كانت سببا، على ما يبدو في إقصاء علامة عن الدورة الثالثة، التي جرت آخر هذا العام، ولم تتوقف الشائعات عند هذا الحد، بل يقال بأنها " صرفت " الملايين ليفوز المتسابق السوري بالنسخة الثالثة من محبوب العرب، حتى تثبت لنفسها ولغيرها وللجميع بأنها " بلقيس " هذا الزمان العربي، حتى لو كان ذلك يعني بان يكون ذلك سببا في فقدان البرنامج لمصداقيته والمسابقة لقيمتها فتكون هذه الدورة الثالثة هي الأخيرة !

الحوار المتمدن

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=450775

المثقف الفلسطيني
هموم وعطاء

عند الحديث عن العنوان المشار إليه، وفي سياق مناكفته ومجادلته، لابد من التنازل عن إطلاقية المصطلح والمعنى المرتبط باللفظ. لابد من الحديث عن المثقف الفلسطيني في أكثر من مستوى، ووفق أكثر من طبيعة واحدة أو جوهر واحد.

وإذا كان من الصعب وضع كل المثقفين الفلسطينيين في خانة واحدة، تبعاً لما تضعه الجغرافيا من فواصل، والانتماءات والتوجهات الفكرية الأيديولوجية من تصنيفات، ثم القدرات والإمكانيات من مستوى وفاعلية، هذا ناهيك عن التحديد المنهجي، الذي يبدأ بتعريف المثقف على أنه من يعرف شيئاً من كل شيء، أو تحديده كمثقف عضوي وفق التعريف الغرامشي. ولا ينتهي بحدود السؤال عن دور الثقافة عموماً، ثم خصوصاً في هذه الأيام.

نقول إذا كان من الصعب وضع كل المثقفين في خانةٍ واحدة، فإنه تبعاً لذلك، يكون من الصعب تحديد همومهم وتطلعاتهم. فضلاً عن عطائهم، أي الحديث عن مفردات العنوان، باعتبارها تنطوي على مفاهيم مطلقة، قابلة للتحديد النهائي، الذي يجمع عليه القوم.

رغم ذلك، فإن الحديث الذي لابد أن يستند إلى قدرٍ ما من المجاز، أو ما كان بحكمه، مما يمكن أن يتم الإجماع عليه من عرفٍ أو تعارض، هذا الحديث سيضع المثقف في دائرةٍ تترجمه إلى منتج الأدب والثقافة، وما كان في حكمها، من فنٍ أو جهد إعلامي أو أكاديمي، وحين يحدده العنوان بالفلسطيني حصراً، فإنه يفعل ذلك، ليقترب من دائرة الخصوصية الفلسطينية التي هي ليست على كل حال، خصوصية المثقف الفلسطيني وحسب، بقدر ما هي خصوصية القضية الوطنية.

وهكذا فإن المثقف الفلسطيني، وقبل حتى أن يتعرف بذلك، يجد نفسه وقد تحددّت هويته، وما يرتبط بها من هواجس، هموم، أو تطلعات، ثم ما ينجم عنها من فاعلية، دورٍ أو جهد أو عطاء، كما يقول العنوان، وقد تعرف بها، كما كان قد تعرف باسمه، يوم ولدته أمه.

من الصعب إذاً، بمكان، الحديث عن مثقف فلسطيني، خارج دائرة الثقافة الوطنية، همومها وتطلعاتها، لكن السؤال الأهم هنا، هو هل يكون الحديث عن هذا المثقف في لحظته الراهنة، بمعزل عن تشكيلته التاريخية التي أنجبته؟

الحديث هنا، عن المثقف الفلسطيني، همومه وعطائه، رغم أنه يفرض على المتحاورين إطاراً راهناً، إلا أنه سيجد نفسه في سياقات المقارنة مع ذاته في لحظة سابقة، لم تغادر أصحابها منذ زمنٍ طويل، ومثل هذه المقارنة أجدى برأينا، من مقارنةٍ مع المطلق. لما تنطوي عليه المقارنة الثانية من ذهنيةٍ وتجريب، يدخل حقول الاختلاف، أكثر مما يقترب من دائرة التوافق. ولعل ربط الهموم بالعطاء، بقدر ما نطوي على الحيلة التي تبريء ساحة المثقف. وتخرجه من دائرة اتهام، يضعه فيها الكثيرون، بقدر ما تنطوي على قدرٍ من الصحة والصوابية، فلا يمكن لمثقف ولا حتى لمواطن أن يعطي من خارج دائرة همومه وهواجسه، أي من خارج دائرة أسئلته التي تؤرقه.

ليس مثل هذا الربط مستنداً إلى مقولةٍ شرقية، طالما نظرت إلى الإبداع باعتباره تعبيراً عن شقاء الروح والجسد، وعن ضيق ذات اليد، ولعل من اختار هنا لفظ العطاء، كان يفترض في المثقف من ينتج، ومن يقوم بدورٍ مجتمعي واضحٍ وصريح، وكأنه كان ينحاز لتعريفٍ سائدٍ بيننا للثقافة والمثقفين.

على كل حال، لابد من الاعتراف بادئ ذي بدء، بتعدد هموم المثقف الفلسطيني وتنوعها، وبأنها من جهة ثانية تتوحد في ملامحها العامة، حيث تتحول إلى هموم للثقافة الوطنية، وهنا، نحن، لن نقوم بتعداد هموم المثقف الفلسطيني على مدار العقود الماضية، التي رافق فيها الثورة المعاصرة، لكننا سنلتقي بالمرحلة الأخيرة منها، أي مرحلة تشكيل السلطة الوطنية بعد اتفاقات أوسلو، ونركز أيضاً، على العلوم العامة والرئيسة، كما نعتقد من واقع التجربة والانتماء للدائرة، ونحن هنا لا نتحدث عن هموم وهواجس خاصة بنا، بقدر حديثنا عن هواجس وهموم تلهج بها أفئدة العموم وأذهانهم، ولا نتحدث عن المشتهى أو المطلوب، بقدر ما نقول عن الكائن فعلاً، وفي كل الأحوال نحن نجتهد في الحديث، ولا نحيط لا بعلم البيان ولا بفن التحقيق إحاطة تامة، والرأي لا يكتمل إلا بالرأي الآخر، وإلا بالجدل بينهما.

أولاً، وقبل كل شيء، نحن نعتقد بأن المثقف الفلسطيني، بعد أوسلو، بدأ يعاني من مشكلة عدم تحديد الملامح العامة للمشروع الثقافي الوطني الجديد، إن كان هنالك ثمة مشروع ثقافي وطني جديد. فبعد أن كان برنامج المنظمة (م.ت.ف) وميثاقها السياسي، محط إجماع، وفي نفس الوقت، كان يعبر عن الخطوط العامة للمشروع الثقافي، بات برنامج أوسلو الخلافي، غير قابلٍ وغير قادرٍ على أن يشكل برنامجاً ثقافياً، يجمع عليه

المثقفون الفلسطينيون، ويكون هادياً ومحدداً لمواقف، وحتى لإبداعات المثقف الفلسطيني.

ولعل هنا الإشارة للبرامج والمؤسسات المرتبطة بالبرنامج الوطني، تؤكد ما ذهبنا إليه، فشكل الاتحادات (الكتاب والفنانين) دليل صارخ على ذلك، ثم عدم قدرة الكتاب والمبدعين المتحققين، خلال المرحلة السابقة، رغم تجربتهم ومكانتهم المرموقة، على مواصلة فعل الإبداع من جهة، وعدم فاعلية وتفاعل المجتمع مع إبداعاتهم ومواقفهم من جهة ثانية مؤشر آخر.

وحتى ما كان يعاني منه المثقف الفلسطيني من تشتت وتوزعٍ بين وطنٍ ومنفى، لم يتحول به فعل العودة إلى فعلٍ إيجابي لكلا الصورتين، صورة العائدين، وصورة المرابطين، فلم يستفد الأولون من العودة لتجاوز حالة التذهين، التي كانت تلف إبداعهم، ثم ما لبثوا أن غاصوا في حالة من الاغتراب، التي جعلت من عودتهم عودة فيزيائية وحسب، كما لم يستفد المرابطون (إن صحّ التعبير بالطبع والتصنيف الذي يجيء بدافع توضيح الصورة والفكرة ليس إلاّ) من الواقع الجديد، لتوسيع الدائرة المعرفية، وتجاوز حالة الحصار، التي كانت مفروضة عليهم وعلى إبداعهم في آنٍ معاً.

ثانياً، على أن الجميع هنا، والآن، أقصد جميع المثقفين، أو المثقف الفلسطيني عموماً، بات يعاني من آثار التراجع في الوعي المدني العام، للمجتمع الفلسطيني، الذي أخذته صورة العزة على هيئة البندقية والزي العسكري ورتبة من يرتديه، وتراجعت انتماءاته على الأساس المدني، في إطار الأحزاب السياسية، والاتحادات النقابية، ليعود إلى التشكل على الأساس العائلي العشائري، والمناطقي، القروي/ الريفي، بما يضع المثقف في خانة متدنية من التقدير الاجتماعي، ومن القيمة المجتمعية، ويفتح المجال لثقافة هجينة وسطحية، لا انتماء لها، تؤدي دورها في إلحاق مجتمعنا بالتشكيلة الإقليمية، على شاكلة التشكيلة العولمية.

وهكذا تراجعت قيمة المثقف الفلسطيني ـ دوره ومكانته، بحيث باتت أخبار ضباط الأمن ووجهاء المجتمع، أهم وأكثر تداولاً من كتب المثقفين، الذين طالما شكلوا وعينا، وجسدّوا كبرياءنا الوطني.

ثالثاً، ترتبط بذلك الهموم الناجمة، عن انقطاع الصلة تقريباً، بين المثقف والمتلقي، ذلك أن مثقفاً متخلفاً، في تقنياته ووعيه، بات يتشكل الآن، مرتبطاً بكبير العائلة وبضباط الأمن ورجل السلطة والسلطات، وربما كان للتطور التقني على غير صعيد صلة بما زاد الطين بلّة. فالمثقف الفلسطيني، على أغلبه هو شاعر أو قاص، ومع طغيان قصيدة النثر،

وهي مقروءة أكثر منها مسموعة، غاب الشعر المنبري. كذلك فإن إيقاع العصر، لم يعد يسمح بالجلوس ساعات طويلة لقراءة الرواية. وهذا يتضح من خلال عدد نسخ المطبوعات وحجم تداولها وتوزيعها.

بذلك فإن المثقف الفلسطيني، ما زال يقضي عمره إلى آخره، دون أن يحترف الكتابة، أو أن تشبعه الثقافة خبزاً، ولا تقول لحماً أو فاكهة.

رابعاً، بعد ذلك تأتي برأيي الهموم الذاتية والخاصة، التي لها علاقة بشكل ومحتوى النص، فنحن ما زلنا موضوعيين بدرجةٍ عالية، أي أننا ننفعل بما هو عام، ونعيش حياة المجموع، لا حياتنا الخاصة. وهكذا يجب أن يكون المثقف على شاكلة قرائه، أي أن يكتب عن العام. ولأننا نعيش اليوم في مرحلة تكاد تنعدم فيها الأخلاق العامة، وتختفي فيها المشاريع الوطنية الجمعية، ونعيش لحظة المفارقة، بكل ما تنطوي عليه من تخبط، نكون ذاتيين وشخصانيين إلى حدود الأنانية، بعد أن كنا غيريين إلى حدود الشهادة.

هنا في عصر انتشار القيمة الفردية واهتماماتها وثقافتها كونياً، فإنه بات من الصعب أن ينفعل المثقف بما هو عام، خاصة مع ضعف آلياته وبرامجه وقواه المجتمعية، لذا فمن يكتب عن العام، إما يكون كاتباً بلا قرّاء،أو تسجيلياً بلا قدرات إبداعية.

ولأن الثقافة، الآن، طغت عليها الصورة، حتى صارت تُعرف بها، فإننا نحن الفلسطينيين، قد نكون صرنا نستهلك ثقافة الجوار والمحيط، أكثر من حاجتنا لإنتاج ثقافة خاصة بنا، نقوم باستهلاكها. من هنا فإن عطاء المثقف الفلسطيني ودوره محكوم بأمرين:

الأول: هو قدرته على العطاء، وهذه تعتمد على حجم مخزونه المعرفي وعمق تجربته وتمكنه من أداته التي يقدم إنتاجه الإبداعي عبرها.

الثاني: هو حاجة الجمهور الموضوعية، لما يقدمه المثقف له، وهذه الحاجة بدورها مرتبطة بعوامل مختلفة، منها، في أية خانة يضع الجمهور الثقافة ضمن أولوياته، ثم قدرة الثقافة الفلسطينية على منافسة الثقافات ـ على الأقل ـ التي تنتج في الجوار، من الزاوية الفنية والجمالية، ثم قدرة المثقف الفلسطيني على مجاراة العصر، والتواصل مع الجمهور الفلسطيني، الذي يتحلق حول الفضائيات، وباتت تربطه أواصر الوشاجة مع الهواتف النقالة والإنترنت وغيرها.

صحيح أنه عند الحديث عن الأمرين، هناك تباينات، فمثقف عن مثقف يفرق... بتوجهاته وخياره وحتى جمهوره، كذلك من حيث قدرته وحصيلته المعرفية، فالمثقف الفلسطيني، ليس كله على شاكلة محمود درويش، أو إدوارد سعيد، لكن هنا لابد من التساؤل حول إن كانت قدرة درويش وسعيد وغيرها ما زالت هي ذاتها؟ ولو قمنا

بإحصائية نتتبع خلالها ما ينتجه الشعراء والروائيون من قصائد أو مجموعات شعرية وروايات، هل كنا سنخرج بنتيجة تقول بأنهم ينتجون بنفس الوتيرة والإيقاع الذي كان عليه الحال، قبل عشرة أعوام أو عشرين عاماً؟

وهل ظهر خلال العشر سنوات الماضية، مثقفون فلسطينيون مبشرون بحجم ما كان يظهر عليه المثقف الفلسطيني، قبل ثلاثين أو أربعين سنة؟

هل لدينا الآن جيل مثقف ومبدع في العشرينات من العمر؟ ربما كان هناك من هم في عدد أصابع اليد الواحدة، لكن ماذا عن السؤال عن جدّيتهم ومتابعتهم وجلدهم؟ يمكننا أن نتتبع ذلك في الاتحادات والمراكز.. الخ.

أما عن حاجة الجمهور، فحدّث ولا حرج، صحيح أن الفلسطينيين ما زالوا أفضل من غيرهم، من حيث نسبة التعليم وحجم القراءة، وربما كانوا مميزين في إقبالهم على المسرح وسواه، رغم عدم وجود نجوم، ارتباطاً بضعف الإنتاج المسرحي والدرامي. لكن لو عقدت أمسية لمحمود درويش الموجود معظم الوقت هنا في فلسطين، هل يكون حجم الحضور بحجم ما كان عليه الأمر قبل أعوام؟ وأين؟ في دمشق أو بيروت أو عمّان؟ لماذا لا تكتظ القاعات عندما ينشد سميح القاسم، ولماذا يستقبل الجمهور في المغرب درويش، أفضل مما يستقبله في غزة أو رام الله؟

صحيح أيضاً، أن الواقع يتغير دائماً ويتحرك، ومن الطبيعي أن يظهر لكل مرحلة مثقفوها، لكن لماذا نتأخر الآن في إنتاج المثقف الفلسطيني، لما لم نفعل في الستينات والسبعينات وحتى التسعينات؟

باختصار أعتقد أن ذلك يعود إلى أننا نعيش حالة جزر على كافة المستويات، ونحن لا ننتقل من مرحلة لأخرى صعوداً، بل ما زلنا نعيش في نهاية مرحلة، والنهايات مؤلمة، إلا حين تشهد طلائع المرحلة الجديدة وتباشيرها، التي ما زلنا في انتظارها، في الوقت الذي علينا فيه أن نسعى إليها، لأنها لن تهبط علينا من السماء.. ربما كانت الخطوة الأولى، على الطريق إليها، هي مراجعة المرحلة السابقة، وإعادة قراءتها بالمنظور المعاصر، فالتاريخ لا يرحم من يتوقفون في منتصف الطريق.

مداخلة الكاتب في حوارية معهد كنعان

_ هوامش _

لذة الكتابة

أظن أن الكاتب/ المبدع، على إطلاقه يشعر بفرحة كما لو كان طفلا، وبلذة خاصة وذلك في لحظتين، الأولى حين ينتهي من كتابة النص، فيتأمله مرارا، ويقرأه أكثر من مرة، يعدل حرفا هنا، أو يضع نقطة أو فاصلة هناك، فيحس بأن هناك كائنا ما من لحمه ودمه بين يديه،يتحسسه ليطمئن عليه، كما لو كان ابنه الذي ولد للتو. والثانية حين يراه وقد صار يافعا يمشي على قدميه وحده، يتنقل بين صفحات الورق، أو بين مواقع الإنترنت، يتمختر، أو يتنطط هنا وهناك، معتمدا على نفسه، لكنه ينتمي إليه ويحمل أسمه أينما حل وأينما أرتحل.

والكاتب حين يتعامل مع نصه بتجرد وموضوعية، يكون أول قاريء لنصه، عليه أن لا ينحاز إليه أو عليه، وإن فعل، أي إن انحاز، فإنما يكون كمن منع النصح عن جاره أو أخيه. قال لي ما يشبه هذا صديق أو معلم في أول عهدي بالكتابة، نصحني قائلا، كن أول من يقرأ نصك، وبتجرد، ضع إصبعك فوق إسمك أو امح توقيعك، ومن ثم أقرأ النص،فان لم يعجبك، الق به بعيدا، مزقه، ولا تتردد لحظة، وقرأت أن هذا ما كان يفعله غسان كنفاني!

ولأنه غالبا ما يكتشف الكاتب نفسه بنفسه، أي انه هو من يكشف عن موهبته، فأنه وفي المرة الأولى، ربما يتفاجأ بكثير أو قليل، لكنه سرعان ما يستمريء الأمر، حتى تصبح الكتابة عنده مثل عادة يومية، يمارسها كما يمارس الرياضة الصباحية، وربما يشتد عليه الأمر، وهذا له علاقة بالفروق بين المواهب، لتصبح فعلا عفويا أو لاإراديا حتى، كما يشرب الماء، أو كما يتنفس الهواء، فما أن يمر طويل وقت ولا تحط عليه الكلمات برحالها، حتى يشعر بالضيق فالقلق فالتوتر!

ليس مهما الطقس الذي يقوم الكاتب بتهيئته للكتابة، فلكل شيخ طريقة، لكن المهم، كيف يبدأ، ومتى، ومن ثم كيف ينتهي، والى أين يصل، ومن ثم على أية هيأة وشكل يكون عليه النص.

القاريء، أي قاريء، لن يتوقف لا كثيرا ولا قليلا، عند معاناة الكاتب قبل أو خلال أو حتى بعد كتابة النص، ولن يكون معنيا بالكيفية التي كان عليها الكاتب لحظة كتابته لنصه، الذي وإن كان يظل يحمل توقيعه عليه، إلا انه بعد أن ينتقل من بين أصابعه إلى

حيث يمكن للقاريء أن يحصل عليه ويقرأه، يكون مثل ابنتك التي تزوجت وخرجت من بيتك، وما عادت تعد لك فنجان القهوة الصباحية أو تلقي عليك تحية المساء قبل أن تذهب للنوم!

في أحسن أحواله يصبح النص كيانا مستقلا عنك، تراه فتشعر كما لو كان ابنك الذي تفرح به طوال الوقت، حين تنجبه، وتدلله، ومن ثم تربيه وتعلمه، ثم يذهب بعيدا، ورغم اشتياقك له، إلا أنك تفرح حين تراه عن بعد ناجحا، وتشعر بالفخر حين تراه متحققا، حتى وان كان بعيدا عنك، ومستقلا عنك.

والحقيقة أن الكتابة منذ أن شق الإنسان الأول الطريق إليها عبر تلك الخربشات الأولى التي خطها على الصخور وعلى جدران ما قام بتشييده لاحقا كمسكن له، إلى يومنا هذا، كانت أداة تخاطب بين الأفراد، وبالتالي وسيلة تواصل بين البشر الذين كوّنوا المجتمع، في الوقت الذي كانت فيه أداة تعبير عمّا يدور في النفس من أفكار وهواجس وأحلام.

لذا فأنه كلما تطورت القدرة على التعبير بامتلاك المبدع لأدواته، كلما شعر بالزهو والراحة، وكلما كانت نصوصه أكثر قدرة على الوصول والتأثير، وحيث أن الكتابات الأولى لكل كاتب تكون أشبه بالخربشات الأولى، التي وجدت على الجدران والكهوف، فإنها تكون أكثر براءة، وعفوية.

ولأن الإنسان منذ بدأ رحلته مع وعي ذاته والكون، وبدأ يحلم أو يبحث عن الخلود، منذ أن سجلت الأسطورة رحلة جلجامش، حتى يومنا هذا، فقد وجد فيما يظل كأثر له يحمل أسمه بعد موته، معادلا لهذا الحلم المستحيل.

لقد كان التدوين تسجيلا، منع اندثار ظهور البشر على وجه الأرض، منذ عدة ألاف من السنين، فيما اختفى وجوده السابق على ذلك، لذا فانه حتى لو كان ما يعتقده المبدع وهما، فان باعث الكتابة، من حيث هو يجدد هذا الوهم أو هذا الاعتقاد، يكون باعثا للذة لا حدود لها، حيث يعتقد الكاتب بأن نصه يبقي عليه "حيا" إلى الأبد.

لذة الكتابة، إذا هي لذة ما بعدها لذة، تتضاعف حين تنجح هذه الكتابة وتتألق، وتأخذ حظها من الحضور والتفاعل والشهرة، حتى لو كان كل ذلك وهما، فإن السراب في الصحراء كان دائما باعثا للبقاء على قيد الحياة، وهو الذي منع هاجر من الموت، وفجر تحت قدمي وليدها مياه زمزم، وأحيا الصحراء منذ نحو خمسة ألاف عام إلى الآن!

دبي الثقافية، العدد 123 - آب/ أغسطس 2015

الذاتي والعام في الكتابة الأدبية

بقدر ما تبدو الكتابة الإبداعية فعلا ذاتيا، وقت كتابة النص، بقدر ما تتحول بعد ذلك إلى فعل عام، حيث لاينته فعل الإبداع عند حدود كتابة النص، ورغم أننا حين نكتب أدبا، نقف عراة أمام الورق، نحاول إعادة اكتشاف أنفسنا، واعادة صياغة ذواتنا من دواخلها، إلا أننا حين ننتهي من كتابة النص، نلقي به إلى قارعة الطريق، وكأنه شيء لا يخصنا، أو على الأقل، ننظر إليه بعين التلصص، نرصد ردود الفعل تجاهه، وكأنه كائن لاشأن لنا به، نتبرأ منه، حين يبدو للآخرين كائنا غريبا، فيما نسارع إلى تبنيه إذا ما احتفى به المجموع من حولنا.

بهذا المعنى فأنه يمكن القول بان الكتابة ألا بداعيه، تمر بمراحل متتابعة، خاصة مع استمرار وتطور التجربة، كذا تمر بمستويات عدة، على اعتبار إن لحظة الكتابة ذاتها، إنما هي لحظة مكثفة يتداخل فيها الشعور، الوعي، والخبرة، أو ما يمكن تسميته بالحرفة في الكتابة الإبداعية.

ومن السهل علينا أن نقول بان فعل كتابة النص، ذاته كفعل، إنما هو فعل ذاتي، لكن إكمال الدائرة المحيطة بالنص، والتي لا تتوقف عند حدود علاقة النص بمنتجه، وتتعداها إلى مستوى القراءة والتلقي، تجعل منه فعلا عاما، من حيث هو خطاب بين منتج ومتلقي.

ويمكن توضيح الأمر أكثر عند البحث في ميكانيزم إنتاج النص نفسه، فرغم أن المبدع ذات مفردة، إلا أن هذه الذات، هي أولا وقبل كل شيء جزء مفرد من كل عام، كذلك يختلف الأمر من جنس أدبي لاخر، ومن فعل إبداعي إلى آخر، فتطور النظرة تجاه النص، من كونه حالة تعبير عن الذات الكاتبة،إلى مبنى فني، يمثل خطابا إبداعيا، ينتقل بدائرة إنتاج النص من حدود الذات المفردة إلى أفاق الذات الجمعية.

ويتضح ذلك في نصوص إبداعية أكثر من غيرها، كما هو الحال في الرواية، المسرحية، والدراما التلفزيونية، كذلك تقترب مثل هذه النصوص من دائرة المحاكاة التي توازي العام أو تتداخل فيه، من حيث كون هذه النصوص تستند إلى مبنى إبداعي، تتعدد فيه الشخوص والعلاقات فيما بينها، ومع الوقت ومع التجربة يعاد ترتيب النظام الإبداعي لدى الكاتب وارتباطا بما يحيط به من شبكة علاقات تشكل في مجموعها العام المجتمعي، الذي تعيش فيه هذه الذات وتنتمي إليه.

يمكن التلخيص إذا بالقول بأنه وان كان فعل الكتابة ألا بداعيه فعلا ذاتيا بالدرجة الأولى،إلا أن عملية تشكيل هذه الذات مع استمرار التجربة ألا بداعيه، واعادة بناء

النص، عبر مستويات القراءة في الإطار العام، تحدد طبيعة الخطاب الإبداعي وتعيد صياغته وليس على قاعدة الفصل التعسفي بين ما هو ذاتي، ولكن على أساس من التداخل والتفاعل بين ذات مبدعه وعام متلقي.

وحتى أن الذات المبدعة والتي لا تتشكل فقط من خلال صيرورة الكتابة الذاتية، بل من خلال منظومة الوعي والمتحققة بالتجربة المعاشة وبالتحصيل في القراءة، حتى في ما يكتب من نصوص موازية أو مشابهة، بما يحيل إلى القول بان فعل الكتابة ألحقه، هو الذي يلتقط خط الالتباس الوهمي غير المنظور، حيث لا تجدي كتابة إبداعية،ولا تتحقق على الأغلب استنادا إلى معادلة فاصلة بين ما هو ذاتي وما هو عام.

فلا الذات قادرة على فرض مزاجها ومنظورها الجمالي المتشكل خارج إطار التشكل الجمعي، كما لا يجد العام ما يجدي في نص إبداعي لا يرى فيه العام صورته الحقيقية أو ما يساعده على قراءة ذاته في كنهها وفي جوهرها.

وقد يكون هذا السر وراء خلود بعض النصوص الإبداعية بعينها، التي كتبها مبدعون ثاقبو النظرة وعميقو الغور في إعادة اكتشاف ذواتهم وفي الوقت الذي ارضوا فيه غرور العام بإعادة اكتشاف ذاته، ووفروا له أسباب المتعة الذهنية، البصرية، وحتى الحسية، وقاموا بإبهاره بهذه النصوص مكتملة البناء وواضحة الخطاب، وتامة الجودة.

وباختصار أقول بأنني لا أرى الكتابة الإبداعية خطابا ينطلق من الذات ويرتد إليها، بل خطابا ينطلق من الذات ويذهب إلى العام، في دورة مكتملة، عملية قد تستند إلى كون الكتابة فعلا ذاتيا، لكنها في الوقت ذاته فاعلا عاما، يحدد مآلها في النهاية، تماما كما يحدث بعد الولادة، فحيث أن المولود يحمل بالضرورة جينات وموروثات أبويه، إلا انه مع الوقت يكبر ويتحول إلى كائن مستقل، يشكل مع نظرائه العام المجتمعي، وهذا ما يحدث بالضبط مع النصوص الإبداعية، التي تتحول مع الوقت إلى مبنى ثقافي عام يشكل وعي ومزاج وحتى سيكولوجيا عامة القراء، بعد أن انفصلت هذه النصوص عن ذوات مبدعيها.

تقديم المجموعة القصصية
"الحمير تعلن النفير"لعبد القادر فارس

رغم ان الرواية والشعر يحتلان المكانة الأهم في اهتمام النقاد والقراء والمهتمين بفنون الكتابة الأبداعية، معا أو بالتتابع، إلا ان فن كتابة القصة القصيرة، يظل فنا له مكانة خاصة، ولا يمكن ان تمر لحظة دون ان يقدم مبدعو هذا الفن الجميل ما هو جديد وجميل، ولا ان يخلو مشهد ثقافي دون ان تكون القصة القصيرة حاضرة فيه، وبشكل واضح ومتميز.

والقصة القصيرة، فن لا يتوقف عند حدود احتوائه للحكاية، بل هو فن سردي بامتياز، يظهر فيه مبدعوه قدراتهم ومواهبهم اللغوية والتقنية المختلفة والمتعددة، لذا فان فن القصة القصيرة نفسه، قد تطور خلال عقود من ظهوره في الوطن العربي، خاصة في ستينيات القرن الماضي، حين افترق فن القصة القصيرة عن فن الرواية، على يدي كل من نجيب محفوظ ويوسف أدريس، بعد ان كان مبدعو السرد الحكائي يكتبون القصة، ليبدأ التمييز بالتنصيف بين القصة الطويلة، التي صارت رواية بعد ذلك وبين القصة الطويلة.

اليوم وبعد ان تكسرت الرواية وافترقت تماما عن القصة القصيرة، صارت القصة تتراوح بين القصة القصيرة والقصة القصيرة جدا، وهي فن اللقطة، حيث تنفرد القصة من بين فنون السرد الحكائي، بالتقاط الكثير من قصص الواقع التي لا يمكن ان تنتظر الوقت حتى يتم تناولها أو تسجيلها في الرواية.

القصة القصيرة أذا فن يتم من خلاله تسجيل العديد من قصص الواقع، وهي تقدم بذلك فنا فيه المتعة والعبرة في نفس الوقت، وهي فن يدخل في أكثر من مجال ابداعي، فهي ضرورية للصحافة، وحتى بين طيات الروايات والمسرحيات، لكن كتابتها كفن تقدم متعة ذهنية من خلال تقنيات السرد واللغة، فيما تظل المجال المفضل للأدب الساخر.

من سميرة عزام وغسان كنفاني، مرورا بخليل السواحري ومحمود شقير، ومن ثم رجب أبو سرية وزياد خداش، وحتى عبد القادر فارس ويسري الغول وشيخة ابو حليوة،،، واكبت القصة القصيرة الفلسطينية مثيلتها العربية، وعبرت عما في الواقع الفلسطيني من "تراجيداأحتلالية"، بحيث كانت القصص ممتلئة بالحدث المتدفق وذات ايقاع مرتفع، يجعل من وجيب القلب نبضا متسارعا كما لو كان القاريء في حالة خوف،

أو هلع ليس من حدث مفاجيء ولكن من ان تنتهي القصة بسرعة، وعلى النهاية المختلفة تماما عن النهايات الهندية أو العربية السارة التي لا تحدث إلا في الواقع المتخيل ولا تحدث في الواقعى المعاش أو الحقيقي للناس.

الأخلاص لهذا الفن الجميل بحد ذاته أمر جيد، والأبداع فيه امر في غاية الأهمية، وان يقدم مبدع متعدد المواهب مثل عبد القادر فارس، مجموعتين قصصيتين دفعة واحدة إلى المطبعة يعتبر فعلا استثنائيا وعظيما، وهو مناسبة للأحتفاء بالنص وبالمبدع معا.

مقالات نشرت في أحوال البلاد 2017-2018

الثقافة باعثة الهوية

بعد نكبة العام 1948 التي حلت بفلسطين وشعبها، اعتقد الكثيرون، بان النكبة التي حلت، قد حطمت الروح المعنوية للشعب الفلسطيني، الذي وجد نفسه بين ليلة وضحاها مشردا وموزعا على دول الجوار، مثل نبتة أو شجرة اقتلعت من جذورها، وليس أمامها، إلا بعض وقت، حتى تذبل، ثم تجف، فتموت، وقد ظهرت روح اليأس والإحباط في بكائيات شعرية تلت واقعة النكبة مباشرة.

لكن طائر الفينيق الفلسطيني سرعان ما عاود التحليق، فما إلا بضع سنوات، وكان المبدع الفلسطيني يظهر هنا وهناك، مبشرا بالثورة، وباعثا للهوية الوطنية، موحدا الوعي والوجدان، فمع نهاية خمسينيات وأوائل ستينيات القرن الماضي، ظهر شعر المقاومة الفلسطينية، من حيث لم يحتسب الإسرائيليون/ الصهاينة، من قلب فلسطين الـ 48، انطلقت ثلة من الشباب الفلسطيني تتغنى بهويتها الوطنية وتبعث الروح الفلسطينية في الشجرة التي ظن البعض أنها ذبلت أو جفت، فسرعان ما اخضرت ونمت أغصانها حتى ملأت المكان كله من حولها.

قبل أن تنطلق الثورة المعاصرة، إذا، بنحو عقد من السنين، انطلقت الثقافة الفلسطينية بإبداعها المقاوم، فأسست للهوية الوطنية، بعد أن تاهت البوصلة بين هويات متعددة، قومية أو دينية، أو حتى عائلية/عشائرية، قبل العام 48. ولأن الثقافة تعمل في حقل الوعي، فكان أن منحت الثورة الفلسطينية التي انطلقت تاليا عام 67/65 الوعي الذي يميز بين بندقية مقاتلة وبندقية قاطعة للطريق كما قال يوما الراحل غسان كنفاني، وحيث عرف محمود درويش، سميح القاسم، توفيق زياد، إميل حبيبي وجبرا إبراهيم جبرا، بأنهم شعراء وكتاب فلسطينيون، ظهر مع القوة العسكرية اسم فلسطين مع م ت ف، ثم انطلق عاليا مع كل انجاز سياسي.

الثقافة الفلسطينية التي أطلقت عنوان وإطار الهوية الوطنية قبل عقود، حافظت على هذه الهوية خلال تلك العقود ذاتها، فان تظهر مكونات الهوية وسماتها من فولكلور وتراث شعبي، بين مفردات الشعر الفلسطيني، وبين ألوان البوسترات واللوحات الفنية،

كذلك أن يعاد إنتاج الميجنا والعتابا من خلال الفرق الفنية، يعني كل هذا الحفاظ على التراث الذي لا يمكن الحديث عن هوية وطنية خاصة دونه، ورغم أن " إسرائيل " حاولت بهدف إخفاء كل معالم جريمتها عام 48 أن تطمس هذا التراث، بل وان تنسبه كله أو بعضه لاحقا لها، إلا أن الفعل الثقافي الوطني/ المقاوم، فوّت عليها وما زال يفوت عليها إلحاق جريمتها السياسية بجريمة ثقافية.

رغم كل ما حققته الثقافة الوطنية الفلسطينية من انجاز ببعث الهوية ومن ثم الحفاظ عليها، فأنه ما زال منوطا بها، ومتوقعا منها أن تواصل الدفاع عن الهوية الفلسطينية، في كل مكان، وخاصة داخل حدود فلسطين التاريخية/ الجغرافية، فبعد تراجع قوة الدفع السياسي، لابد من فتح جبهة الثقافة على مصراعيها، في وجه إسرائيل كفعل مقاوم، وعلى الداخل الوطني كفعل موحد، بعد أن دبت الخلافات والانقسامات الداخلية، مما أضعف القدرة الوطنية على تحقيق الأهداف الوطنية.

طوال عقود لازمت الثقافة السياسة في الإطار الوطني، وكانت الثقافة ذات العمق الاستراتيجي هي بوصلة السياسة حين تواجه المنعطفات، وكان مؤتمر اتحاد الكتاب " بروفة " المجلس الوطني، لكن منذ أن ولج المناضل الوطني منعرج السلطة الذاتية، تمّت تنحية الثقافي أو إطلاق ما يمكن وصفه بثقافة السلطة، بديلا عن الثقافة الوطنية/ المقاومة، بل وتبريد الجبهة الثقافية التي تمثل مصدر قوة لنا، ونقطة ضعف لإسرائيل التي هي بلا تاريخ ثقافي، لذا فان إطلاق طائر الفينيق مجددا، يتطلب إعادة الروح للثقافة الفلسطينية من حيث هي باعث للهوية وموحد لها، والسير على الطريق المعاكس لمسار النكبة، بجمع أشتات الهوية وتوحيد الفلسطينيين - ثقافيا/ أولا - حتى يمكن تحقيق كل الأهداف الوطنية تاليا.

أحوال البلاد

2016-11-17

الصلاة إلى زهرة المدائن

اذكر يوما ما قبل بضع سنوات، وبعد رحيل الشاعر العظيم محمود درويش بقليل من الوقت، أني اتصلت من غزة المحاصرة بالشاعر الكبير سميح القاسم هاتفيا، لأدعوه إلى أمسية بغزة، يكون من شأنها المساهمة في " كسر الحصار " عن أول ما تحرر من وطننا، وأذكر أني قلت له وأنا أحس بالمعنى تماما - أنت من تبقى لنا بعد درويش - مستعيرا عظيما فلسطينيا ثالثا، أسمه غسان كنفاني، حينها لم يتمالك العظيم سميح نفسه من أن يجهش بالبكاء!

اليوم، هذه الأيام، هذا العام، وهذه الأعوام، لا أظننا بحاجة إلى أن نتذكر، ولا أن نجهش بالبكاء، حين نستعرض من قضوا من الكبار، ليس في حقل الثقافة وحسب، بل وفي حقول الحياة كلها، يذهب الكبار تباعا، في السياسة، ذهب عبد الناصر، أبو عمار، أبو جهاد، الحكيم، أبو علي مصطفى، وفي الثقافة ذهب درويش وسميح، بعد سنين من غياب أم كلثوم وعبد الحليم وغسان كنفاني، المهم أن جيلا عظيما ظهر في منتصف القرن الماضي، لم يبق منه، بعد وفاة صباح، وردة، فايزة احمد، عبد الوهاب، وديع الصافي وحتى ملحم بركات، سوى سفيرة النجوم إلى السماء.

أطال الله في عمر ماسة الغناء العربي، السيدة فيروز، التي غنت لنا يوما، من ضمن ما شدت به وأبدعت: "زهرة المدائن"، وإذا كانت فيروز هي نجمة المطربين والمطربات، فمن غير القدس زهرة للمدائن كلها، ومن أجدر من فيروز، بل من هو أو هي أذكى منها ليغني زهرة المدائن؟!

تسمع لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي، فلا تعرف إن كنت تسمع غناءا أم نشيدا أم صلاة، في الشدو، نشيد وغناء وصلاة، فيه كل الروح الإنسانية من التحدي، للورع، للروعة، والأهم من كل هذا الموقف!

نستذكر اليوم فيروز في عيد ميلادها، ونسترجع معها وبحضورها عقودا من زمن الغناء العربي الجميل، الغناء النظيف، والصوت الملائكي، والكلام أو الشعر المفعم بالمشاعر النبيلة، وأيضا المتضمن المواقف الشجاعة.

لم ترتكب فيروز يوما حماقة أن تغني لملك أو رئيس أو سلطان، رغم أنها عاصرت أهمهم وأعظمهم،لكنها غنت للمدن وللأقطار العربية، غنت لسوريا وعمان، بغداد

والقدس، وحيث أن زهرة المدائن ما زالت منذ خمسين عاما تنتظر بندقية أم كلثوم، فان الصلاة للقدس باتت واجبة!

حين تتحول " إسرائيل " لدولة داعشية حمقاء، وحين تسير على طريق التطهير العرقي، تصبح دولة دهماء، لا تحتمل وجودمن هو مختلف، من هو على غير الملة أو الدين، وبعد أن ضاقت دولة المستوطنين/ المغتصبين، ذرعا بقصيدة شعرية، عابرون في كلام عابر، صارت ترتجف من سماع الآذان الذي يدعو للصلاة؟!

حين تصل دولة أو مجتمع أو جماعة من الناس إلى هذا المستوى، فلا يمكن لأحد أن يتنبأ أو يتوقع لها خيرا، رغم ذلك نجد انه علينا لزاما أن نعلن أننا ذاهبون جميعا للصلاة في زهرة المدائن، لنرد أذا على نيتنياهو بالغناء مع فيروز زهرة المدائن، ولنطلق "زهرة المدائن" في كل شارع وحي وبيت، ولنغنى ليل/ نهار:

لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي

لأجلك يا بهيةالمساكن

يا زهرة المدائن

يا قدس، يا قدس

يا مدينة الصلاة،،، نصلي.

أحوال البلاد

2016-11-22

ثقافة الغيتو وثقافة المخيم!

ربما كان لقلة عدد اليهود أولا، ولبعثرتهم في العالم ثانيا، سبب مباشر، فيما تميزوا به من عزلة وتقوقع عن الآخرين، حتى أنهم كانوا يقطنون في أحياء خاصة بهم، في المدن والدول التي يعيشون فيها، ذلك أنهم لم يشكلوا قومية خاصة بهم، ولا حتى رابطة اجتماعية أو سياسية، حتى نهاية القرن التاسع عشر حين ظهرت الصهيونية، وبدأت في جمع أشتات اليهود ومحاولة جمعهم في بوتقة قومية واحدة!

مع مرور الوقت تحولت حالة العزلة التي ميزت اليهود، إلى ثقافة خاصة بهم، بعد أن ظهر ما سمي بالغيتو، وهو عبارة عنمنطقة أو مكان محدد، يعيش فيه طوعا أو كرها، مجموعة من الناس تعتبرهم الأغلبية التي يقطنون بينها، بقايا عرق أو دين، حيث تعود التسمية للإشارة إلى حي اليهود في المدينة، مثل الغيتو في مركز مدينة روما، أو ما كان يطلق عليه " حارة اليهود " في الدول العربية.

لأول مرة تم إنشاء الغيتوات أو حارات اليهود في بولندا بعد حزيران 1941 في الأراضي السوفييتية المحتلة، بغرض عزل السكان اليهود ونهب ممتلكاتهم واستغلالهم في العمل القسري –حسب ويكيبيديا-

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%BA%D9%8A%D8%AA%D9%88%

ثم انتشرت بعد ذلك الغيتوات في أوروبا، خاصة في المدن الألمانية، التي كانت عبارة عن معازل، تحيط بها الأسوار الشائكة، التي كانت تفتقر إلى أدنى مقومات الحياة، إضافة إلى العزلة عن العالم الخارجي، حيث يتم التعامل مع سكانها كما لو كانوا حيوانات!

هذا ما تقوله ويكيبيديا، أما ما تقوله موسوعة الهولوكوست نفسها، فيعود أصل اسم الغيتو إلى اسم الحي اليهودي في البندقية الذي أقيم عام 1516، أي قبل 500 سنة من الآن، ومن ثم أمر الإمبراطور شارل الخامس بتأسيس الأحياء اليهودية في فرانكفورت، روما، وبراغ.

تقول الموسوعة بأن الألمان أسسوا خلال الحرب العالمية الثانية ألف غيتو في بولندا المحتلة والإتحاد السوفياتي، وقد نظر الألمان إلى أقامة الغيتو على أنه إجراء وقائي لفصل اليهود عنصريا ووضعهم تحت الرقابة.

في تفصيل أكثر، هناك ثلاثة أنواع من الغيتو: المغلق، والمفتوح،وغيتو التدمير.

وكان - للدلالة على سوء المعاملة - كان غيتو وار صوفيا يضم نحو 400 ألف يهودي محشورين في مساحة 1،3 ميل، أو نحو 2 كيلو متر مربع!

صحيح أن فرض الغيتو على اليهود في الحرب العالمية الثانية جاء قسريا، ألا أن نزعة العزلة متأصلة فيهم منذ ما قبل 500 سنة، بالإشارة إلى " تاجر البندقية " لوليام شكسبير.

مباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، كان إعلان إقامة "دولة إسرائيل" لتتم ممارسة ما يمكن وصفه ب "ثقافة الإنسان المقهور " من قبل اليهود الإسرائيليين تجاه المواطنين الفلسطينيين، حيث قامت عصابات الهاجاناة،شتيرن، ارجون - اتسل، بعقد المجازر بحق الفلسطينيين لتهجيرهم من قراهم ومدنهم وطردهم من أرضهم لإقامة "دولة إسرائيل" حيث تشرد فعلا أكثر من نصف الشعب الفلسطيني إلى دول الجوار.

قامت الأمم المتحدة، وهي المنظمة العالمية التي أنشئت في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية، بإغاثة الفلسطينيين المنكوبين باحتلال أرضهم وطردهم من وطنهم من خلال إقامة عشرات المخيمات"لإيوائهم وإغاثتهم" والتي انتشرت في كل من قطاع غزة والضفة الغربية، الأردن، لبنان وسوريا.

حيث لم تختلف ظروف الحياة كثيرا في تلك المخيمات عن "الغيتوات"، من حيث الاكتظاظ السكاني، وتدني الخدمات، كذلك العزلة، حيث في لبنان - مثلا، تم منع الفلسطينيين من الاندماج في المجتمع اللبناني، خاصة في مجالات العمل، وتقيد حركة السفر والتنقل، فيما منح الفلسطينيون "وثائق" خاصة بهم لتميزهم عن مواطني البلاد التي صاروا يعيشون فيها.

الفارق أن الشعب الفلسطيني كان حتى النكبة عام 1948 يرى نفسه جزءا من العالم العربي، كذلك جزءا من مجتمع أسلامي كبير، ولم يعش يوما حالة من العزلة، فهو شعب وإن كان يعيش في وطن خاص به، إلا انه جزء من قومية كبيرة هي القومية العربية وجزء من عقيدة يؤمن بها نحو ربع سكان الكرة الأرضية، لذا فان ثقافة المخيم اختلفت كثيرا عن ثقافة الغيتو، فلم تسد - مثلا - ثقافة كراهية أو التوجس من الآخر، بل سادت

ثقافة التعاضد الاجتماعي حين وجد أبناء القرى أنفسهم يعيشون معا في المخيم، ثم ظهرت ثقافة المقاومة.

من نشأ على ثقافة المقاومة، فاوض الجانب الإسرائيلي في مدريد/ واشنطن، وفي أوسلو، فيما من كان اقل تأثرا بثقافة الغيتو كان على الجانب الآخر، لكن بعد " فشل أوسلو " في التوصل لحل نهائي، وفي وضع حد للصراع يقوم على أساس الاعتراف ومن ثم الثقة بالآخر والتعايش معه، تراجع الإسرائيليون، لأن السلام "يحررهم" من ارث ثقافة الغيتو، ويخرجهم من حارة اليهود "إسرائيل"، لذا فإنهم قد وصلوا أخيرا إلى آخر المطاف بإعلان هدفهم بإقامة دولة يهودية وليس دولة ديمقراطية، دولة بدلا من أن تتحرر وتحرر مواطنيها من عقدة الماضي، نراها ترضخ هي لتلك العقدة وتواصل السير على طريقها!

أحوال البلاد29-12-2016

الثقافة احتياطي الوطنية الاستراتيجي

سنوات قليلة فقط، كانت كافية لتظهر أهمية الثقافة الفلسطينية، على صعيد الحفاظ على الهوية، وبعثها، ومن ثم التحريض على الفعل الوطني، الذي انطلق كالمارد، منذ منتصف ستينيات القرن الماضي، ليزيل غبار النسيان ويدرأ مخاطر التبديد عن وطن، تعرض لأشرس هجمة استعمارية، ما زالت فصولها قائمة حتى اللحظة.

لابد من الإشارة أولا وقبل كل شيء، إلى أن المثقف والمبدع الفلسطيني لم يتأخر لحظة عن مواكبة الكفاح الوطني، منذ مطلع القرن التاسع عشر وخلاله وحتى الآن، فقد امتلأت شوارع وقرى ومدن فلسطين وبواديها بالأغاني الشعبية، والشعر الشعبي، كذلك بتداول الروايات والحكايا التي تتغنى بالكفاح الوطني وأبطاله، منذ نوح إبراهيم، مرورا بإبراهيم طوقان، وليس انتهاء بشعراء المقاومة.

وقد كانت الثقافة الفلسطينية الحصن الحصين، حين حلت النكبة وحلّ معها الإحباط واليأس، وحين كانت أشتات الشعب الفلسطيني فيما لم يتم احتلاله من أجزاء الوطن، تنتظر المخلّص العربي، كانت جماهير الشعب الفلسطيني التي تشبثت رغم كل شيء بوطنها وبقيت على أرضها، في ظل أسوأ نظام فصل عنصري، تحافظ على هويتها من خلال الثقافة، التي كانت أداتها في الكفاح، مما كرّس ثقافة المقاومة، التي كانت وما زالت أهم فصول الثقافة الفلسطينية.

لا يمكن لأحد أن يقلل من أهمية شعر المقاومة الفلسطينية الذي ظهر - داخل الخط الأخضر، حين كانت كوادر الكفاح الوطني تفكر في إطلاق الثورة الفلسطينية المعاصرة، منتصف ستينيات القرن الماضي، والذي شكّل مع الكفاح الوطني السياسي لفصائل الثورة الفلسطينية جناحي الكفاح الوطني، فقد ترافقت ثقافة المقاومة مع كفاحها المسلح إلى فرض فلسطين مجددا على طاولة التداول السياسي، وصد محاولات الشطب والإلحاق العديدة والمتعددة.

ونظرا لأهمية الثقافة إلى جانب البندقية، لم يكن صدفة أن يتم تشكيل الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، بعد دخول الفصائل المسلحة منظمة التحرير الفلسطينية مباشرة، وبالتحديد عام 1972.

صحيح أن تشكيل الاتحاد كان مناسبة لدمج المثقف الفلسطيني الذي تشكل وحيدا هنا وهناك، مع مثقف الثورة الذي نشأ وتشكل بين خلايا العمل التنظيمي وبين خنادق العمل العسكري، لكن المؤكد أن الاتحاد كان واحدا من ركائز م ت ف، وكان يتمتع بمكانة محترمة، طالما اعتبرت ضمانة للوحدة الوطنية، وقاعدة عامة، تقوم بتصويب بوصلة العمل السياسي، أذا ما استجاب إلى تفاصيل ما هو يومي، وكانت الثقافة تعتبر الذخر الاستراتيجي للمصلحة الوطنية.

لم يقتصر الإنتاج الثقافي الوطني على شعر المقاومة، ذلك أن إعلاء مكانة الثقافة، ودورها المركزي في العمل الوطني فتح أبواب الثقافة على مصراعيها، فظهر المسرح والبوستر والكاريكاتير، إضافة للقصة والرواية، إلى جانب الشعر بالطبع.

وإذا كانت السياسة الوطنية أنتجت رموزا وطنية خالدة، فان الثقافة الوطنية أنتجت رموزا كذلك خالدة، لكن ونظرا إلى أن م ت ف الإطار الجامع لكل مفردات العمل الوطني بشقيه السياسي والثقافي، كانت خارج الوطن الذي احتل كله بعد العام 1967، فقد كانت هناك نواقص في السياسة والثقافة كذلك.

كان ينقص العمل الوطني السياسي أن يكون الوطن ساحة مواجهته الأساسية مع المحتل، وكان ينقص الثقافي أن يكون مركزه داخل الوطن أيضا، كذلك أخذت معايير السياسة، في تحديد اطر الثقافي كما هو حال اطر السياسي.

اقتصرت عضوية اتحاد الكتاب، كذلك اتحادات الفنانين، المسرحيين، الموسيقيين والتشكيليين، على أعضاء الفصائل الذين شكلوا " كوتة " لقيادة الاتحادات، تشترط عضوية الفصائل خاصة في هيئاتها القيادية، لذا فقد خلا اتحاد الكتاب من الكتاب الفلسطينيين المقيمين في الأردن والذين انضووا ضمن رابطة الكتاب الأردنيين، كذلك كتاب الداخل.

الآن، وبعد تأسيس سلطة الحكم الذاتي بعد أوسلو، وبعد ظهور ما يمكن تسميته وفق الثقافة الرسمية بثقافة الوطن الفلسطيني (الضفة وغزة) يمكن تجاوز هذا الأمر بإعادة الاعتبار للثقافة كفاعل استراتيجي، بجمع "أشتات" الثقافة الفلسطينية على أساس جمعي، يجمع مفردات الثقافة الفلسطينية - الأدب، المسرح، السينما، الموسيقى، التشكيل - وتشكيل المكتبات العامة التي تضم كل ما أنتجه وما زال ينتجه الكتاب والفنانون الفلسطينيون في داخل الوطن وخارجه من الضفة والقدس وغزة، إلى تشيلي واستراليا، مرورا بأوروبا وكندا، وأينما تواجد مبدع فلسطيني.

لابد من جمع كل ذلك التراث وتسليط الضوء عليه وتعريف النشء الفلسطيني بكل فصوله، وبكل مبدعيه، إن كان أولئك الذين ظهروا في الوطن وخارجه خلال القرن الماضي أو أولئك الذين ولدوا وظهروا في الشتات لكنهم ورثوا ثقافة فلسطين عن آبائهم وأجدادهم، ولعل في تجربة شعراء المهجر اللبناني، خلال مطلع القرن الماضي، أسوة حسنة للثقافة الفلسطينية، مع إظهار الفارق في كون الثقافة الفلسطينية، تحولت مع مرور الوقت إلى ثقافة الحرية بامتياز، مما يمنحها عامل قوة إضافي، المهم، أن يظهر مثقف عضوي/ وطني، يعود لرفع راية الكفاح الوطني، وإنتاج ثقافة القيم والمباديء، بالتحرر أولا مما يحيط باللحظة من معايير التسليع الثقافي القائمة، ثم التحلي بالمثابرة والإصرار والمتابعة ثانيا، إلى أن يحقق الشعب الفلسطيني بكل مناضليه من مثقفين ونشطاء سياسيين واجتماعيين أهدافه الوطنية العامة.

أحوال البلاد 19- 1-2017

ثورة ثقافية ضد ترامب

رغم تكلفته الباهظة التي بلغت نحو 200 مليون دولار، لم يكن حفل تنصيب الرئيس الأمريكي الخامس والأربعين دونالد ترامب مبهجا، لا لعائلة الرئيس الأسبق بيل كلينتون بالطبع، ولا لملايين الأمريكيين والبشر في كافة أنحاء العالم، خاصة أولئك الذين يشكلون أغلبية كانت تفضل أن ترى أول رئيسة أمريكية تؤدي اليمين الدستورية بدلا من الرجل المثير للجدل.

ويقينا لو أن الرجل كان بحكمة أمرء القيس، الشاعر/ الملك، لقال مثله: اليوم خمر وغدا أمر، أي أن لحظة التنصيب ما هي إلا لحظة فارقة بين ترامب المرشح الرئاسي، الذي كان مضطرا لأن يدلي بكل التصريحات المتطرفة والمواقف المتشددة ليحصل على "الفوكس الإعلامي" وبالتالي ليقتنص فرصة الوصول للبيت الأبيض، وبين ترامب الرئيس الذي ينام ويصحو ويوقع قراراته الرئاسية في منزل أبيض تبلغ قيمته نحو نصف مليار دولار.

في اللحظة التي غادر فيها باراك اوباما البيت البيض وهي نفس اللحظة التي دخل فيها دونالد ترامب البيت ذاته، وجد الرجل نفسه أمام استحقاقات عديدة، حيث كان أول أمر رئاسي يقوم بتوقيعه هو إلغاء قانون أوباما الصحي، ليبدأ مرحلة ما بعد اوباما.

وما هي إلا لحظات حتى كانت اتجاهات الضغط تتوالى عليه من الاتجاهات المتقابلة وحتى المتعارضة، ففي مانهاتن تظاهر ألاف الفنانين من موسيقيين، سينمائيين وكتاب، ليعلنوا البدء في ثورة المائة يوم من التظاهرات المتواصلة ضد ما أسموه بقوى التعصب، التي جعلت من ترامب رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية.

أما في بيت لحم فكان المئات من الشبان الفلسطينيين يقومون بإحراق صور الرجل، إيذانا ببدء انتفاضة جديدة أو متجددة، ضد قرار محتمل أن يقدم عليه الرجل بنقل سفارة بلاده من تل أبيب إلى القدس، في الوقت ذاته، لم يقتصر الضغط عليه على اتجاه واحد، بل جاءت من الاتجاه الآخر دعوة وجهها له لحظة تنصيبه رئيس لجنة الخارجية والأمن في الكنيست الإسرائيلي آفي ديختر دعاه فيها إلى الإسراع باتخاذ قرار نقل السفارة وعدم الخوف من الجهاد وحماس، كما قال!

أحد لا ينسى أيضا أن الأيام القليلة التي سبقت حفل التنصيب، وهي آخر أيام باراك اوباما في البيت الأبيض، شهدت قرارا استثنائيا من مجلس الأمن ضد الاستيطان، لم تقف ضده واشنطن التي اكتفت بالامتناع - وحدها - عن التصويت ضد القرار أو معه، كذلك شهدت اجتماعا طارئا في كوالالمبور/ ماليزيا، لمنظمة المؤتمر الإسلامي التي تشكلت أصلا بعد إقدام إسرائيل عام 1969 على إحراق المسجد الأقصى، لتحذر ترامب من الإقدام على النية المقيتة للرئيس الأمريكي المذكورة.

حفل التنصيب نفسه، خلا من البريق ومن الاهتمام الرسمي أيضا، فإضافة إلى عدم مشاركة بعض الرؤساء - مثل جورج بوش/ الأب، فقد قاطع الحفل نحو 70 نائبا في الكونغرس من الحزب الديمقراطي مشيرين إلى وجود تدخل أجنبي في الانتخابات التي أدت إلى فوز ترامب، كذلك كان من أبرز المقاطعين لحفل التنصيب، النائب جون لويس الذي يعتبر احد ابرز وجوه الحركة الأمريكية للحقوق المدنية، الذي اعتبر ترامب غير شرعي بعد تصريحاته ضد الأقليات خلال حملته الانتخابية.

أما على الصعيد الخارجي فقد جاء رد فعل نائب مستشارة ألمانيا أنجيلا ميركل،زيغمر غبريال، على قدر بالغ من الأهمية التي توحي إلى أي مدى ستتضرر علاقات أمريكا الخارجية بسبب ما ينوي إتباعه ترامب من سياسيات خارجية، حين قال بان ألمانيا ستتبنى إستراتيجية اقتصادية جديدة، إذا شنت أمريكا حربا تجارية ضد الصين، تسمح لألمانيا بملائمة نفسها مع الصين!

وذلك ردا على ما أعلنه ترامب من أن بلاده ستفرض رسوما جمركية على منتجات ألمانيا التي تعتبر أكبر شريك تجاري للويلات المتحدة على منتجاتها من BMW التي تقيمها في المكسيك بنسبة 35%. ليرد الرئيس المكسيكي، مؤكدا توتر علاقات بلاده مع الولايات المتحدة بعد خطاب ترامب الذي أعلن فيه عداءه للهجرة بين البلدين ونيته بناء جدار بين المكسيك وأمريكا وإجبار المكسيك علىدفع تكاليف ذلك الجدار!

على جانب آخر ذي دلالة كان المئات من الروس يفتحون زجاجات الشمبانيا احتفالا بتنصيب ترامب، وفي حادثة كانت الأولى من نوعها تجمع مئات من القوميين الروس على بعد مئات الأمتار من الكرملين احتفالا بتنصيب ترامب قبل ساعات من أدائه اليمين الدستوري!

المخرج الأمريكي الشهير مايكل مور دعا إلى تظاهرات تستمر مائة يوم تبدأ من يوم التنصيب، قائلا بأن أمريكا تمر بلحظة خطيرة جدا، هي أسوأ بكثير مما يتخيل

الناس، واصفا ترامب بأنه مختل، وانه لا بد من إيقاف هذا، حيث لن يصمد ترامب 4 سنوات، أما الممثل أليك بالدوين فقد اعتبر تنصيب ترامب وصمة عار.

لقد واجه المثقفون الأمريكيون حفل تنصيب ترامب بالرفض، ومن هؤلاء:إلتون جون، سيلين ديون، أندريابوتشيلي، جاستن تيمبرليك، غارث بروك وآخرون.

فيما ألقت ميريل ستريب خلال الحفل الأخير للغولدن غلوب، الذي شهد تعليقات حادة وساخرة،كلمة اضطرت الرئيس المنتخب إلى التغريد كعادته المفضلة للرد عليها، معتبراً أنها طيلة حياتها حصلت على تقدير أكبر من حجمها لا تستحقه. فهل يعني كل هذا أن ترامب سيكون ضعيفا في اتخاذ قراراته، أم أن واقع الحال سيكون وفق المثل الذي يقول: رب ضارة نافعة، أي أن اتساع نطاق المعارضة الداخلية والخارجية له، سيمنعه من اتخاذ قراره الإشكالي الخاص بالقدس؟!

أحوال البلاد21- 1-2017

حارات اليهود العربية

سبق لي وأن سجلت إعجابي وتقديري بفكرة، أنتاج وإخراج العمل الدرامي " حارة اليهود "، الذي عرض في رمضان قبل العام الماضي، ذلك أنه برأيي يعتبر عملا ثقافيا بامتياز، كما أنه أثار قضية في غاية الأهمية، يقوم اليمين الإسرائيلي الحاكم منذ عدة عقود بإحاطتها بقدر عال من التزوير، تجلى في أوضح صورة له، من خلال البرنامج الذي تقوم على إدارته الوزيرة اليمينية عن "الليكود" جيلاجمليئيل، وزيرةما يسمىبوزارة المساواة بين الجنسين والأقليات والمسنين، الخاص بتوثيق أرث الطوائف اليهودية الشرقية في الدول العربية وإيران والقائم على فرضية طرد هؤلاء اليهود بالقوة الجبرية.

في الحقيقة انه حين بدأ الجانبان الفلسطيني والإسرائيلي بالحوار حول ما سمي بملفات الحل النهائي، وذلك بعد توقيع اتفاقات أوسلو، قبل أكثر من عشرين عاما، ونظرا لتمسك الفلسطينيين بحق العودة المنصوص عليه كحق بالقرار الأممي رقم 181، بدأ الإسرائيليون المعروفون بدهائهم ومكرهم في المفاوضات بالحديث أولا عن "التعويض" فقط، رغم أن القرار الأممي والمنطق والحق الذي يوجب العدالة ينص ويقول على حق الفلسطينيين بالعودة إلى وطنهم، ديارهم وأرضهم، التي طردوا منها بالقوة هم وأبناؤهم وأحفادهم، وبتعويضهم عما لحق بهم من ضرر مادي ومعنوي جراء طردهم، كذلك تعويضهم عن سنوات استخدام إسرائيل لأرضهم وبيوتهم دون وجه حق. ثم بالحديث ثانيا عن أن المشكلة إقليمية وحتى دولية، نظرا للجوء اللاجئين الفلسطينيين إلى دول الجوار والى كافة أرجاء الكون.

ثم بدأ الإسرائيليون بالحديث وبكل صفاقة عن " التعويض مقابل التعويض " وكانوا يقصدون بذلك أو أنهم بدأوا بالحديث علنا عن طرد اليهود الشرقيين/ العرب خاصة من بيوتهم ومصادرة أملاكهم، بما يعني بان طرح قضية عودة وتعويض اللاجئين لا تقتصر فقط على الفلسطينيين، بل تشمل أيضا اليهود، وذلك في محاولة يائسة منهم لثني الفلسطينيين عن حماسهم وتشبثهم بهذا الحق التاريخي.

طبعا كان الدهاء الإسرائيلي هذه المرة مكشوفا وغير مكتمل، لأنهم تحدثوا فقط عن تعويض اليهود العرب الذين هاجروا لإسرائيل بسبب الحروب بين الجيوش العربية والعصابات اليهودية قبل إعلان دولة إسرائيل والحروب بين الدول العربية وإسرائيل لاحقا، ولم يتحدثوا بالطبع عن حقهم في العودة لأوطانهم العربية، ذلك أن إسرائيل تعرف

أكثر من غيرها بأن فتح أبواب الهجرة بغض النظر عن إن كانت موارية أو مباشرة، أو مترافقة بأعمال عنف وإرهاب دبرتها الحركة الصهيونية، إنما كان هدفا لها، وهي ترفض بالقطع أن يعود اليهود العرب وغيرهم إلى بلادهم الأصلية التي كانوا مواطنيها قبل هجرتهم إلى "أرض الميعاد".

الفلسطينيون على العكس من ذلك تماما، هجّروا من وطنهم وطردوا من أرضهم من قبل عصابات الهاجاناة،شتيرن وأرغون وغيرها، تحقيقا لشعار رفعته الحركة الصهيونية، وهو أرض بلا شعب لشعب بلا أرض أو وطن، وأمام أعين العالم اجمع، وهم - أي الفلسطينيون معنيون بالعودة إلى وطنهم، أرضهم وبيوتهم حتى في ظل دولة عدوة، أكثر مما هم معنيون بالتعويض، وهم يريدون دولة مستقلة أكثر مما يرغبون بالتوطين في أي مكان، ولا حتى في أمريكا وأوروبا.

الحقيقة هي أن اليهود كانوا يقيمون في الدول العربية في "حارات خاصة" تسمى حارات اليهود، وهي مختلفة تماما عن المعازل التي كانوا يجبرون على الإقامة فيها في العديد من الدول الأوروبية قبل وإبان الحرب العالمية الثانية، فالمعازل كانت تقام عنوة، ويتم فيها عزلهم عن المجتمع ومنع التعامل أو الاختلاط بهم، أما حارات اليهود العربية فكانت عبارة عن أحياء مفتوحة على المحيط وهي جزء من المجتمع يسمح لهم بالحفاظ على تراثهم وثقافتهم وممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينية بكل حرية.

من حارات اليهود الشهيرة، حارة اليهود في كل من القاهرة ودمشق، حيث كانت الأولى تقع في حي الموسكي، وهو حي فقير، نظرا لأن اليهود كانوا يعملون في مهنة صك وصياغة الذهب، ولم يقتصر سكانها - حارة اليهود بالقاهرة - على اليهود المصريين فقط، بل كان يسكن الحارة مسلمون ومسيحيون واليهود أنفسهم كان من يغتني منهم يذهب للإقامة في أحياء قاهرية تعتبر أرقى. وكانت تظهر الحارات حيث يكون اليهود أقلية مثل أي فئة اجتماعية أو طائفة أو عرق، ففي القدس هناك مثلا حارة الأرمن وحي المغاربة، وهكذا، أما حيث كانوا يشكلون عددا كبيرا مثل اليمن أو المغرب، فإنهم يسكنون مناطق وأحياء مختلفة، فلم تكن هناك قيود على إقامتهم أو تمييز بينهم وبين الأغلبية من المسلمين.

ولعل التاريخ الحديث الذي سجل الكارثة "الهولوكوست" في أوروبا، إبان الحرب العالمية الثانية لم يسجل بالتوازي أي حالة قتل أو عنف أو إرهاب ضد يهودي عربي، حتى في ظل ذروة الصراع العربي/ الإسرائيلي في عهد جمال عبد الناصر.

ولعل ابلغ دليل على ما نقول هو احتفاظ اليهود العرب في إسرائيل بحنينهم لأوطانهم العربية، والتعبير عن كونهم جزء من ثقافة عربية حين تسمع أم كلثوم تردد أغانيها حيث يسكنون، كذلك عبد الوهاب، فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ.

وقد احتفظ اليهود العرب في إسرائيل بتراثهم وثقافتهم، لأنهم ينتمون إلى الشرق وهم جزء منه، فتجد الكتاب والفنانين اليهود/ الإسرائيليين من أصول عربية يكتبون ويغنون بالعربية، فيما يهود الغرب يلاحظ عليهم أنهم اقل ثراء ثقافيا وفنيا من نظرائهم الشرقيين.

يضاف إلى كل هذا أن وجود جاليات يهودية/ عربية حتى الآن في جربة/ تونس، في الجزائر والمغرب، تتمتع بكل حرية، يؤكد ما نذهب إليه، قبل أن يشهد شاهد من أهلهم، هو رئيس بلديةنيس تسيونا يوسف شابو وهو عضو مؤتمر حزب الليكود، كانت عائلته هاجرت من مصر لإسرائيل قبل عام 1967، بقوله لموقع يديعوت احرونوت: لا اعرف من أين أتوا بهذه النظرية، لم يطردنا احد من الدول العربية، بل هاجرنا برغبتنا وإرادتنا.

أحوال البلاد 29- 1 - 2017

خط سير الكتابة الفلسطينية

بعد بكائيات النكبة، ظهرت أواخر العقد الخامس/ أوائل العقد السادس من القرن الماضي، ثقافة وطنية فلسطينية رائدة، أخذت على عاتقها، الرد على السياسة الإسرائيلية بتبديد الهوية الفلسطينية، وإخماد روح المقاومة، فكان أن ظهر شعر المقاومة، في مناطق ال 48، ليبشر بالثورة التي ظهرت في عام 65/ 67، أي انه حين افتقرت الساحة الفلسطينية للقيادة الوطنية/ السياسية، ملأت الثقافة الفراغ، وتحملت المسؤولية على أكمل وجه، وفي أبهى صورة.

لكن صورة الفدائي الذي ظهر حاملا بندقيته، سرعان ما ملأت العقل والوجدان، لدرجة أن يتغنى الشعر ذاته بها، وهو الذي كان يحلم بها، فيكتب محمود درويش، أقرأ بإسم الفدائي الذي خلقا من جزمة أفقا، ويقول شاعر آخر: لعلع الرصاص فأخرس أيها القلم، وحين يتداعي الكتاب والصحفيون في أول اجتماع عام لهم ليؤسسوا الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، نراهم يرفعون الشعار: بالدم نكتب لفلسطين.

تواضع المثقف الفلسطيني منذ مطلع سبعينيات القرن الماضي، وانحنى أجلالا واحتراما للقيادة السياسية الوطنية، وقبل أن يكون في الميدان وراءها، انسجاما مع حقيقة أن القيادة في نهاية الأمر إنما هي للسياسي!

يمكن القول أذا بأن الثقافة المنتجة من قبل النخبة، كانت ذات طابع وطني عام، مبشر بالثورة وباعثا للهوية، قبل أن يظهر الكفاح المسلح، لكنها تحولت بعد بضعة أعوام إلى ثقافة ثورية، تتحدد سماتها ومعالمها وفقا للسمات العامة التي تكون عليها القيادة السياسية في اللحظة المحددة.

وكانت أول مقدمات هذه الحالة، نتيجة انتخابات المؤتمر الأول للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، حين هزمت قائمة " أبو سلمى " عبد الكريم الكرمي، ومعه معين بسيسو ومحمود درويش، في حين فازت قائمة ناجي علوش، الذي لم يكن عام 72 أكثر من كادر فتحاوي، مناضل، بالكاد يكتب دراسات نظرية ذات طابع تنظيمي!

ورغم أن الاتحاد ظل جامعا وطنيا للكتاب والصحفيين الفلسطينيين المنتمين لفصائل الثورة المسلحة، إلا انه اقتصر عليهم أولا، أي على الكتاب من بين الفدائيين، لدرجة أن الهيئات الإدارية للاتحاد كانت تتوزع " ككوتة " بين الفصائل، على قاعدة أن النصف +

1 لفتح، والنصف - 1 لبقية الفصائل. وثانيا انه لم يضم في صفوفه لا كتاب الداخل بشقيه: الـ 48 والضفة والقطاع، الذين كانت لهم اتحاداتهم، ولا فلسطيني الأردن، الذي انضووا ضمن رابطة الكتاب الأردنيين.

الأسوأ من هذا كله، انه بديلا عن المثقف التبشيري الرائد الذي ظهر مطلع ستينيات القرن الماضي، بدأ يتكرس شيئا فشيئا مثقف الفصيل وحتى ثقافة الفصيل، ولم تبهت وحسب صورة الثقافة الوطنية، بل وأيضا تراجعت الثقافة النقدية، التي تحرض على الواقع بهدف تغييره، فظهرت ثقافة التغني بأمجاد الثورة القائمة.

وبعد أن كان محمود درويش وتوفيق زياد وسميح القاسم يحرضون على بعث الهوية، وبعد أن كان هناك شعراء المقاومة، ظهر شاعر المقاومة، الذي يسجل فصول الثورة المعاصرة من تل الزعتر إلى حصار بيروت، إلى تسجيل الاعتراض الثقافي على أوسلو: لماذا تركت الحصان وحيدا!

لو لم تكن الثقافة قد تخلت عن دورها كمبشر ورائد وقائد للعمل الوطني لصالح السياسي/ الوطني، لربما ما كان بمقدور فتح وحماس أن تصلا إلى حد تقسيم الوطن، وان تعجزا طوال عشر سنوات عن وضع حد للانقسام!

ولربما كنا وجدنا الآن بديلا عن خيار حل الدولتين بعد أن أغلقت إسرائيل الأبواب دونه، ولكنا - ربما - قد وجدنا في جبهة الثقافة ملاذا، يجد فيه الشعب الفلسطيني ضالته باستمرار الكفاح، وامتلاك زمام المبادرة.

منذ أوسلو، وخلال عقديه الماضيين، ظهرت ثقافة دولة فلسطين، في أحسن الأحوال، وحتى يقنع مثقف لم يعثر على ذاته، نفسه بأنه ليس في جيب السياسي، ظل يردد رفضه للتطبيع الثقافي، كما هو حال المثقف العربي، مع أن المطلوب هو الاشتباك مع الثقافة الإسرائيلية وفتح جبهة الثقافة ومقارعة العدو في تلك الجبهة، وليس فقط رفض التطبيع!

أسوأ فصول الثقافة الفلسطينية، الآن، الثقافة الرسمية، التي تحرص على أن تتسم بسمات التكنوقراط ولفظ " تهمة الكفاح الوطني " عن ذاتها، ولا تعجز فقط عن قيادة الفعل الثقافي بشكل فعال وحسب، بل وتفتقر إلى إستراتيجية ثقافية/ كفاحية، فهي ملتزمة بإطار أوسلو، وتكرس بالتالي ثقافة الحكم الذاتي، ولا تقوم بفعل قصدي ومخطط بتوحيد الثقافة الفلسطينية المشتتة بين داخل وخارج، فضلا عن الحث على إنتاج ثقافة نقدية ترسم صورة المستقبل الأفضل، لذا فانه من الصعب جدا الارتكان إلى ما هو قائم على الصعيد الرسمي، ليس في المستوى السياسي وحسب، بل وفي المستوى الثقافي، ويمكننا

أن نقول بهذه المناسبة وبالفم الملآن، بان ألف مؤتمر فصائلي لن يضع حدا للترهل السياسي القائم، لكن بشائر ثقافة جديدة توحد الفلسطينيين ثقافيا أولا، يمكنها أن تعيد الأمل وتفتح نوافذ مستقبل مختلف لشعبنا، يعيد له الاعتبار بما يليق به من صورة، مستقبل تبشر به الثقافة مجددا، من خارج إطار السياسة والثقافة الرسميتين في آن معا.

أحوال البلاد 6-1 - 2017

أغاني " تيك أوي "!

أية مقارنة بين ما كانت عليه الحياة في كافة جوانبها بين خمسة عقود والآن، يمكن أن تشير إلى أن الفارق يبدو وكأنه خمسة قرون وليس خمسة عقود وحسب، وفي الحقيقة فأن السبب يعود ليس إلى " تطور " طبيعي أو تدريجي في مسيرة الحياة، كما يقول بذلك المنطق، ولكن يعود السبب إلى شيء آخر، لا علاقة له - على الأقل - بتطور المجتمع العربي بشكل طبيعي أو تدريجي.

ومنذ بدأ العالم - خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة - التي كانت تقسم الكون بين شرق وغرب، شرق اشتراكي وغرب رأسمالي، وتضع الفواصل والحواجز والحدود، بل والأسوار بينهما، منذ أن بدأ العالم في تجاوز الحدود والتفاعل فيما بين مكوناته و " عوالمه السابقة "، بدأ العرب شيئا فشيئا يفقدون زمام المبادرة، بل يفقدون القدرة على التحكم بما يخص حياتهم، فهم باتوا "يستوردون" ليس المعدات الكهربائية أو ما ينتجه الغرب والشرق من صناعات مختلفة، مما نجحت في اختراعه التكنولوجيا من وسائل تسهل الحياة وتطلقها إلى حدود الرفاهية وحسب، بل باتوا يستوردون " قيم " وثقافة الغرب والشرق معا.

قبل انتهاء الحرب الباردة، استورد بعض العرب قيم الشرق، بل وحتى الشكل الخارجي لنظامه السياسي/ الاجتماعي، أي النظام الاشتراكي، وغلب على مثقفيهم الطابع اليساري/ التقدمي، فيما استورد بعض العرب قيم وأخلاق الغرب، من أعلاء لشأن المال، وشراء كل شيء بالدولار، وتعميم ثقافة الاستهلاك والشكليات التي ترافق مظاهر البذخ وما إلى ذلك.

لكن، بعد أن انهار معسكر الشرق، تعممت ثقافة الغرب الأمريكي خاصة، ورغم أن بعض دول الشرق وجدت لنفسها عبر التسيير الذاتي طريقا للتحقق عبر الاقتصاد والإنتاج، ظهر العرب - وحدهم تقريبا - على عكس معظم العالم، مستهلكين فقط، يكادون لا ينتجون شيئا، ولا حتى ما يأكلونه، رغم أن لديهم ثروات طبيعية هائلة، لم يمنحها الله لغيرهم.

المهم انه مع ظهور مثلث القوة العربي، ممثلا بمصر/ العراق/ سوريا، بعد أن أحدث ثورة سياسية أسقطت أنظمة الحكم الملكي وطردت ركائز الاستعمار في تلك

الدول، ظهرت مرافقة لذلك النظام ثقافة وطنية/ قومية جادة، تحررية، أنتجت عمالقة في الأدب والفن.

وكانت أهم سمة لهذه الثقافة أنها تتمثل في مفردات، أو أن الشعوب تنتج ثقافتها التحررية عبر أفراد، ظهروا كأسماء أشهر من نار على علم، في الشعر، الرواية، المسرح، السينما والغناء.

وكان أدباء ذلك الجيل - وهم في الحقيقة أكثر من جيل - ربما كانوا جيلين أو ثلاثة، ينتجون أدبا وفنا "ثقيلا" فاخرا، كانت روايات نجيب محفوظ، على قدر كبير من الإتقان، كذلك كانت أشعار محمود درويش وأدونيس، أفلام يوسف شاهين، وأغاني أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش.

كانت ثقافة تلك الأجيال جزلة وعميقة، تعبر عن مرحلة تاريخية فاصلة، كل ما فيها كان كبيرا وعميقا وجديا، ولعلها ليست صدفة أن يستمر حضور أم كلثوم، محمود درويش، نجيب محفوظ، رغم سنوات الغياب الطويلة، حتى اللحظة.

أقل ما يمكن أن يقال عن تلك المرحلة بأنها أنجبت جيلا ذهبيا، يحلو للبعض أن يطلق عليه مصطلح "الزمن الجميل"، ليتبعه جيل وحتى جيلان - ربما - ينتجون ثقافة، أدبا وفنا، أقل ما يقال عنه انه ينتج على عجل، أي "بالمشبرح" وكما هو جوهر ثقافة هذه الأيام --تيك أوي.
أي أنه عمليا وبشكل عام تتم ترجمة وإعادة إنتاج، بل وتعريب الثقافة الأمريكية الغضة، بكل حرفيتها وبكل تفاصيلها.

ومن هي أمريكا، هي في الحقيقة وريث قراصنة البحار، الدولة التي هي عبارة عن مستعمرة، أنشئت على جثث الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين، ثقافتها براغماتية محضة، الغاية فيها تبرر الوسيلة أيا كانت.

بعد أغاني أم كلثوم: الأطلال، حديث الروح، أغدا ألقاك، من اجل عينيك، وأغاني عبد الحليم: قارئة الفنجان، رسالة من تحت الماء، نجاة: ارجع إلي، وفايزة احمد: رسالة من امرأة، وبعد أن ظهر مارسيل خليفة وناس الغيوان والطريق، ظهرت أغاني الفيديو كليب مترافقة مع انهيار جدار برلين، لتخطف أبصار المشاهدين في عصر الصورة، حيث بات المشاهد يرى أكثر مما يسمع، ثم دخلت آلات الموسيقى الكهربائية لتعم الفوضى والإيقاع الذي يخاطب الأرداف ولا يخاطب الذهن أو المخلية، ولتظهر "حالة غنائية" يختفي فيها الفرد ليحل مكانه النجم الذي تصنعه المؤسسة، ثم تصنع غيره كما لو كان ماركة، لابد أن تشبع نهم مستهلك ملول!

ظهرت مؤديات أو مغنيات الأغنية الواحدة، بعد ظهور مغنيات الكليب الواحد، في التسعينيات كانت الين خلف، كلوديا الشمالي، باسكال مشعلاني، وغيرهن مغنيات الفيديو كليب ثم اختفين، لتظهر مغنيات تؤدي أغنية واحدة، فيها من الإسفاف أو الأغراء الشيء الكثير، فتيات تغني بأجسادها، مثل روبي، بوسي سمير، نجلا، وغيرهن، غنين أغنية واحدة ثم ذهبن في حال سبيلهن!

http://ahwalelbelad.com/news/119989.html

احوال البلاد24- 2-2017

الثقافة والثورة توأمان!

بقدر ما تؤثر الثقافة من حيث هي تحرض على قيم العدالة والمساواة، على الوضع الاجتماعي العام، بقدر ما يؤثر الوضع العام على الثقافة، حتى أذا بلغت في المجتمع المفارقة الناجمة عن الظلم، الاستبداد والقهر مستوى لا يحتمل، بشرت بالثورة، هذا ما حدث في بلادنا - أحلى البلاد/ فلسطين - بعد عام النكبة، حيث كانت الثقافة الوطنية سباقة في التبشير بالوطنية الفلسطينية، وبالمقاومة، التي ظهرت كمقاومة وطنية عند منتصف العقد السادس من القرن الماضي، ثم انطلقت وتوهجت بعد نكسة عام 67، حيث ظهرت كقنديل وحيد في ليل العرب الطويل الذي عم بعد تلك النكسة.

وفي ستينيات القرن الماضي أيضا وحين كانت الولايات المتحدة "تتورط" كوريث استعماري للدولة الاستعمارية التقليدية - فرنسا، في احتلال جنوب فيتنام، وتمنع ذلك البلد وشعبه من حقه في الوحدة والاستقلال، كما سبق وفعلت في جزيرة كوريا إلى الشمال من فيتنام، أي في منطقة شرق آسيا، خرج ملاين الأمريكيين ضد الحرب الأمريكية غير العادلة، والتي سجن على أثرها الرياضي العظيم محمد علي كلاي وحرم من لقبه كبطل للعالم في الملاكمة، بسبب رفضه أن يتجند في صفوف جيش الاحتلال الأمريكي لفيتنام، وكانت المظاهرات لا تكاد تتوقف في أمريكا، حيث ظهر ما سمي بمسرح الشارع، حين تداخل الفن الشعبي الملتزم بالجمهور، تماما كما كان يحدث في "ميدان التحرير" أبان حكم مبارك والأخوان.

وفي سبعينيات القرن الماضي ظهرت ومع ثورة " الكاسيت " التي أخرجت فن الغناء العربي من عليائهالكلثومي، أي من كونه فنا للنخبة، حيث لا يمكن لفنان أن يلتقي الجمهور إلا بعد أن يمر "بمصفاة الأمن" المسماة الإذاعة الوطنية، ظهرت فرق غنائية ومغنون يشدون بحق الشعوب في الديمقراطية، وكان منهم "فرقة الطريق، ناس الغيوان،

بلدنا، العاشقين" والفنانون: الشيخ إمام عيسى، عدلي فخري، مارسيل خليفة، احمد قعبور.

ما سميت بثورة الربيع العربي يبدو أنها ما زالت في أول الطريق أو أنها ما زالت تسير عليه، حيث لم تنعكس تلك الثورة تماما أو كثيرا في الثقافة خاصة أو في المبدع الفني والثقافي عموما، رغم ظهور عدد ليس بالكثير من القصائد الشعرية، المسرحيات، الأفلام وما إلى ذلك، لكن ثورة ثقافية لم تحدث بعد توازي ما يبشر به المجتمع العربي من تحول اجتماعي/ سياسي، يرتقي إلى مستوى ثورة عامة في كل مناحي الحياة، ما زالت تختمر وتعتمل في النفوس، وهي لم تتحقق بعد. وربما يعود هذا الأمر، إلى أن أول حلقات الربيع العربي ظهرت كما لو كانت انقلابا أبيض، حيث تم إسقاط نظام زين العابدين بن علي خلال أيام قليلة، وبعد عدة أسابيع تم إسقاط نظام حسني مبارك كذلك خلال أيام.

مجتمعات عربية عريقة وأصيلة، مثل المجتمع المصري، العراقي، السوري، الجزائري، المغربي، السوداني، ما زالت لم تشارك في الحراك المجتمعي العربي كما يجب ويليق بها، وليس بالضرورة أن يكون الهدف محصورا بإسقاط رأس النظام - خاصة حين يحدث هذا سريعا، بل خلخلة أركان التقليد والمحافظة المتجذرة والمتغلغلة عميقا في المجتمع، ذلك أن النظام العام بكل أركانه الاجتماعية/ الاقتصادية/ السياسية/ والثقافية يجب أن يتغير وان يتحول ويتطور بما يجعل من المجتمع العربي مواكبا للعصر، عصر الثورة العملية/ التكنولوجية، عصر ثورة الاتصالات، وما تتسم به من عولمة، أي إزالة الحدود بين الأمم والقوميات، بحيث لا يمكن أن تحافظ امة على وجودها دون أن تتماهى أو يتم احتواؤها من قبل غيرها إلا من خلال ما تحقق به نفسها مما ينفع الناس في الأرض، وذلك من علوم ومنتجات، حيث ما عادت القوة أو الحواجز هي من يحافظ على استقلال الأمم والشعوب، بل الاقتصاد والتقدم.

بوارق الأمل بدأت بالظهور، فإذا كان " دق جدران الخزان " جاء قبل ست سنوات من تونس، فان إرهاصات الثورة الشعبية/ الثقافية تجيء هذه الأيام من المغرب العربي، حيث بدأت في الظهور والانتشار ظاهرة الموسيقى والغناء الشعبي في واحدة من أجمل واعرق واكبر المدن العربية، وهي الرباط العاصمة.

وإذا كان التمرد يظهر عادة في الريف فان الثورات تبدأ بالظهور في المدن، أما ظاهرة موسيقى الشارع التي بدأت في الظهور قبل أشهر قبالة مقر البرلمان المغربي، في شارع محمد الخامس، فقد غيرت حسب وصف المراقبين من إيقاعات الاحتجاج المعتادة.

الإبداع في الفضاء العام، يحرر الإبداع نفسه من القوانين المتوارثة، كذلك يحرر المبدعين من الخوف، ويطلق بوارق الأمل والتفاؤل، فالثورة هي أولا وقبل كل شيء نشيد وطني/ شعبي حقيقي، وان لم تكن كذلك فهي شيء آخر، المهم أن تنطلق الثقافة من بين الجمهور، وان تحافظ على " تقنية " بريخت بكسر الحاجز الرابع، فلا يمكن لشعب يصنع الثورة، ولا يمكن لثقافة تبشر بها وتقودها أن يقوما بتصنيف الناس بين مبدع ومتلق، لذا حبذا لو تم تعميم الظاهرة الموسيقية " موسيقى شارع محمد الخامس " لتعم كل العواصم والمدن العربية، في أيام غناء لا تنتهي، كذلك أن يتم توسيع دائرة المشاركة بها، لتشمل إضافة للموسيقى والغناء، المسرح والفن التشكيلي وحتى الأدب والشعر، بحيث تتحول بلادنا من محيطنا إلى خليجنا، كما لو كانت سوق عكاظ عربي، حينها سنحتفي ليس بالثقافة العربية وسحب، بل بالقومية العربية كلها، بعد أن نكون قد أعدنا الاعتبار لها، بعد عقود من التخلف والانزواء، وبعد أن لاح خطر التلاشي لأمة كانت خير امة أخرجت للناس!

أحوال البلاد

2017 -2-7

الفوضى الثقافية غير الخلاقة

كنت وما زلت، وسأظل مقتنعا بأن كل نظام عام، في الكون يعتمد على جملة من المرتكزات، القواعد والأسس العامة، التي تتوافق فيما بينها جميعا، لتجعل من النظام العام نظاما حاكما ومستقرا، وقابلا للاستمرار والبقاء أمدا طويلا من الوقت، وأن هذه الركائز منها ما هو سياسي، اقتصادي، اجتماعي وثقافي.

وأنه لو كان هناك تنافر أو عدم انسجام أو توافق بين النظام السياسي وبين النظام الاجتماعي، الاقتصادي أو الثقافي، لحدثت حالة من القلق العام، أو من التململ أو حتى التوتر وصولا إلى التمرد والثورة حيث لابد أن ينقلب النظام وأن يتغير، وربما تحدث حالة من " الفوضى " أو عدم وضوح الرؤية أو التقدير، ولكن إلى حين، إلى حين أن تنسجم مكونات المجتمع جميعها فيما بينها، لتعود حالة الاستقرار مجددا.

في الحقيقة كل من يراقب أو يتتبع أو حتى يقوم بإجراء الدراسة أو القراءة لما حدث أو يحدث من ثورات اجتماعية، يدرك أنه وبحكم التطور في المجتمع، إن كان على الصعيد الاقتصادي أو الثقافي، ومع مرور الوقت، خاصة إذا كان النظام السياسي تقليديا ومحافظا، فانه يصبح كابحا للتطور الاجتماعي، مما يجعل منه معيقا داخليا، وهذا يحدث قلقا عاما، تصبح معه الثورة على النظام السياسي أمرا لا بد منه، فتندلع الثورة، لمجرد حدوث شرارة أو مناسبة قد تبدو عابرة أو غير ذات أهمية.

ولعل هذا حدث بعد وقت من ظهور الصناعات في أوروبا، في حين كان النظام الملكي يعبر عن المجتمع الإقطاعي، ويبدو انه بعد ظهور ثورة الاتصالات، قبل عقود قليلة، وتوفر المعلومة وسرعة انتقالها بين الناس، بل وظهور وسائل التواصل الاجتماعي التي جعلت التواصل والاتصال بينهم أمرا ممكنا يسيرا وسهلا وممكنا دون تكلفة، كذلك والمرور على الرقابة التي باتت عاجزة عن منع هذا الأمر، ظهرت المفارقة القائمة في العالم العربي المحكوم بأنظمة حكم الفرد المستبد والفاسد منذ أن ظهرت الدولة المستقلة قبل أكثر من نصف قرن دون أن تنجح أنظمة الحكم في بناء دولة المواطنة الحديثة.

لقد اكتشف المواطنون العرب الفجوة في حقوق الأفراد بينهم وبين باقي البشر في كل العالم، حيث لم تعد هناك - خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة مطلع تسعينيات القرن الماضي - من أنظمة حكم فرد مستبد، أو أنظمة حكم غير ديمقراطية، إلا في الدول

العربية، التي ما زالت دونا عن الغرب والشرق، الشمال والجنوب، محكومة بأنظمة حكم العسكر الذين عادة ما وصلوا للحكم عبر الانقلابات العسكرية، ضد أنظمة حكم ملكية مستبدة بدورها، إلى أن تلاشت الفجوة في الاستبداد بين نظام ملكي، أميري، سلطاني أو نظام جمهوري أو جماهيري.

عادة ما يبدأ النظام الجديد بانقلاب سياسي، عسكري، شبه عسكري أو حتى مدني عبر انتخابات تجري لمرة واحدة، ثم وحتى يستقر نظام الحكم الجديد لا بد له أن يجري انقلابات متتالية على المستويات الاقتصادية، الاجتماعية ومن ثم الثقافية.

حدث هذا في قطاع غزة، حين بدأت حماس انقلابها بما سمي بالحسم العسكري، أو بفرض السيطرة وإقامة نظام جديد على المستوى الأمني، ثم ألحقته بانقلاب تنظيمي/ هيكلي في مؤسسات السلطة، ثم كان تشييد النظام الاقتصادي الموازي من خلال اقتصاد الأنفاق، الذي بدأه سعيد صيام،أول وزير داخلية لحماس ومؤسس القوة التنفيذية التي نفذت الانقلاب العسكري، والذي دافع عنه بالقول: اقتصاد الأنفاق خير من اقتصاد النفاق.

ثم بدأت عملية إقامة النظام الاجتماعي من خلال خطب المساجد التي تتوافق مع خطاب السلطة الجديدة، والجميع يذكر كيف أن حماس خاضت حروبا دموية للسيطرة على بعض المساجد التي كانت تحسب على الجهاد الإسلامي.

ثم بدأت بالظهور معالم إقامة ثقافة حمساوية إن كان من خلال إقامة الروابط واتحادات الكتاب، الصحفيين والفنانين أو من خلال الترويج لكتاب ومثقفي الحركة وحتى إنتاج ثقافة خاصة (مسلسلات، مسرحيات وأغاني)، حيث أني ما زلت اختلف مع كل من يرى في المثقف مثقفا على إطلاقه، خارج دائرة الانتماء، ذلك أن لكل نظام أو شريحة مجتمعية أو حتى حركة سياسية مثقفها الفردي أو الجمعي (المؤسسات).

المهم أن "الفوضى الأمريكية" التي وصفتها كوندليزا رايس يوما بأنها خلاقة، والتي بدأت فصولها السياسية بإطلاق ثورات شبابية، فيها الكثير من المظهر الافتراضي، على أنظمة الحكم القائمة، المستبدة، والتي نجحت في إسقاط أنظمة بوقت قياسي، في تونس، مصر، ليبيا واليمن، ترافقت مع فوضى اقتصادية غير خلاقة، فقد كان واضحا أن الأعلام الذي يساند تلك الثورات، هو إعلام مدعوم ماليا، خاصة من مثلث الخليج الثري، كذلك كانت هناك أموال وميزانيات طائلة تصرف على"كوادر" ومناضلي وعناصر الثورة الشبابية، ولعل فصول الحرب الأهلية في سوريا واليمن كشفت بشكل أوضح هذا الأمر، حين تحول الصراع إلى حرب تتطلب سلاحا ومقاتلين مرتزقة أو شبه مرتزقة،

فباتت واضحة للعيان التكلفة الباهظة لتلك العملية إن كان على الصعيد البشري من ضحايا ومهجرين أو على صعيد الكلفة المالية، كما باتت واضحة جدا وتماما الأهداف القريبة والبعيدة الاقتصادية للحرب.

لم ينج الجانب الإعلامي/ الثقافي من هذه الفوضى غير الخلاقة على الإطلاق والتي ربما يكون شعارها - الشعب يريد إسقاط النظام المستبد بالطبع - نبيلا، إلا أن مخرجات العملية لم تكن كذلك، فقد حدثت فوضى غير خلاقة على الصعيد الثقافي، وإذا كان مثلث الخليج قد ورث مثلث القومية العربية في التحكم السياسي بمقاليد العرب، فان قطر تولت زمام الأمر الإعلامي فيما تولت الأمارات الزمام الثقافي.

تكاد المهرجانات والمؤتمرات تعقد بدافع الربح والحصول على المال، فهناك أمركة ثقافية جارية من خلال برامج: من يربح المليون، أراب أيدول، جود جالانت،الفويس (لا أحد يشعر بالخجل حتى مع تقديم الاسم صريحا)، وليس هناك إنتاج جدي لثقافة جدية أو ملتزمة، وهناك تسطيح تام لكل شيء، حتى يمكن القول بان الثقافة النقدية قد اختفت وتلاشت، فيما حلت محلها ثقافة العلاقات العامة، ومدائح الظلال، هنا وهناك، وبدأت إشاعة ثقافة السوشيال ميديا، وصناعة النجوم من لاشيء، ودون الاعتماد على أي شيء، فقط تناقل أخبارهم دون إبداعهم!

أحوال البلاد4-2- 2017

ثقافة رياضية!

كلما كنت أتأمل الجملة التي تقول "خلي روحك رياضية" كنت أفكر فيها جيدا، وفي معناها، وحين أدركت أن المقصود منها، هو أن يتقبل الخاسر في المباراة الرياضية الخسارة، لدرجة أن يقوم بتهنئة الفائز، بت معجبا بها، لدرجة أني بت اعتقد بأن ما يظهره العالم الديمقراطي من تبادل في الحكم، بشكل سلس ودون أن يكون ذلك مصحوبا بانقلابات عسكرية أو بأحداث عنف دموية، إنما يعود بالأصل إلى إيمانه بهذه المقولة، والى أن الأخلاق الرياضية إنما هي متأصلة أو متجذرة في تلك المجتمعات التي تعمل بالنظام الديمقراطي في كافة مناحي الحياة.

لكني في الوقت نفسه كنت استغرب أن تكون بعض الرياضات عنيفة مثل المصارعة، خاصة الأمريكية منها، والملاكمة، الجودو والكاراتيه وما إلى ذلك، ثم بدأت أفكر في تطورات أو تحولات المجتمعات التي يمكنها أن تنتج هذه الثقافة الديمقراطية التي تستوعب الخسارة كما تأمل بالفوز، والتي حتى تفوز تجتهد وتكد من خلال التدريب المتواصل وإعداد الخطط الرياضية، فتقوم بتوظيف أفضل الكفاءات الرياضية المحترفة، خاصة أن الدول التي لها باع طويل في الفوز بالبطولات الرياضية، سبق لها وان سارت على درب الاحتراف الرياضي منذ عقود طويلة، وهي من اجل ذلك تنبذ المحسوبية والواسطة، فلا يمكن ان يصنع بطل رياضي بالمحسوبية أو الواسطة، كما يحدث مع مسئول سلطوي!

وحين كنت أتأمل كرة القدم، وما أدراك ما كرة القدم - اللعبة التي تعتبر الأكثر شعبية في العالم بأسره، يثيرني الشبه بين الكرة والرأس، بحيث أرى أن بعض الرؤوس ما هي إلا كرات مكورة منفوخة بالهواء، من شدة سذاجتها وشغفها بما لا يضر ولا ينفع، من متابعة وتشجيع للرياضات وخاصة كرة القدم، وتمضية الوقت دون بذله في أشياء مفيدة أو مهمة، هذا ما كنت أراه واعتقده قبل سنوات طويلة، بل كنت اعتقد بأن "إدمان" الفرجة على الرياضية يمنع من تداولها أو يجعل الشخص المدمن على الفرجة الرياضية غير رياضي، اي لا يمارس الرياضة، وممارسة الرياضة هي الأجدى من الفرجة عليها.

في السياق هذا كنت أتندر مع أصدقائي متناقلين ما نسب لشيخ خليجي ثري بالطبع - وهل يكون الشيخ الخليجي إلا ثريا - من أنه حين شاهد اثنين وعشرين لاعبا يتصارعون على كرة القدم، سأل مرافقه عن السبب في أنهم يركضون طوال الوقت في الملعب،

وحين أجابه بأنهم يتسابقون للحصول على الكرة، أمر الشيخ - أطال الله في عمره، بصرف اثنين وعشرين كرة لهم، أي لكل واحد كرة، حتى لا يختلفوا ويتصارعوا عليها!

لم تعد الرياضة تدعو للتسامح والى تقبل الخسارة كما تقبل الفوز، وحسب، ذلك أنه في العرف الرياضي ليس هناك لاعب أو فريق دائم الفوز لا يعرف الخسارة، فحتى ريال مدريد، برشلونة، بايرن ميونيختخسر وتتعادل، كما انه ليس هناك لاعب أو فريق دائم الخسارة، وحيث أن جميع الرياضيين يعرفون الخسارة كما يعرفون الفوز، فقد بات تحليهم بالروح الرياضية ممكنا، بل أن الروح الرياضية صارت تتصف بالتسامح وبجوهر الديمقراطية.

لم تعد الرياضة تقتصر على هذا وحسب، بل بعد إنها صارت أداة للتواصل بين الشعوب والأمم والدول، من خلال الدورات القارية، الإقليمية والعالمية، إن كان من خلال الدورات الأولمبية أو كؤوس العالم، حيث إن معظم الدول التي تشارك، تحصل على ميداليات وكؤوس وجوائز، صارت بعد ذلك الرياضة وسيلة أو أداة عابرة للقوميات، بل صارت حتى مظهرا من مظاهر العولمة، وذلك بعد أن توغلت في "البزنس" وباتت ميزانيات فرق رياضية اكبر من ميزانيات بعض الدول في العالم، وبعد أن تحولت الرياضة عبر الاحتراف إلى أداة للثراء، بحيث صارت الفرق من اجل تحقيق المكسب المالي، من خلال بيع تذاكر حضور المباريات والإعلانات ومقابل بث المباريات عبر الفضائيات، صارت الفرق الرياضية، خاصة في كرة القدم، الطائرة، السلة، وما إلى ذلك عبارة عن "تجمع أممي" للاعبين.

أحيانا تجداغلب أعضاء فريق رياضي ينتمي لبلد ما، ليسوا من نفس جنسية البلد الذي ينتمي له الفريق، بل ويلعب ضمن دورياته المحلية، وبات أمرا طبيعيا أن تجد لاعبي البرازيل، الأرجنتين، تشيلي وأمريكا اللاتينية عموما، القارة المشهورة بمهارات لاعبيها، خاصة في كرة القدم، يلعبون ضمن الفرق الأسبانية، الانجليزية، الألمانية والايطالية. ذلك أن دول أوروبا تعتبر دولا غنية في حين يجيء لاعبو أمريكا اللاتينية وأفريقيا من دول فقيرة.

حتى أن بعض الدول بدأت في منح بعض اللاعبين الأجانب الجنسية ليتسنى لهم اللعب ضمن منتخباتها القومية، مع أنها تتشدد عادة في شروط منح الجنسية، فلا تمنحها للكتاب أو الفنانين وحتى العلماء!

باتت الرياضة أداة عولمة، فصار من الطبيعي أن تجد ملايين البشر يعتبرون أنفسهم مشجعين لأندية من خارج بلادهم، وهناك فرق مشهورة على النطاق الكوني، لها معجبون ومشجعون في كل أنحاء الدنيا.

من الطبيعي أن تجد مصريا مثلا يشجع الأهلي أو الزمالك، وفي الوقت نفسه برشلونة أو ريال مدريد، لكنه حين تكون هناك مباراة بين منتخب مصر ومنتخب المغرب أو الجزائر، فان أحدا من مواطني بلاده لن يتفهم أن يكون من مشجعي الشقيق العربي!

المهم انه وفي ظل العولمة التي تجتاح الدنيا وتفتح الحدود، تسطحت الأشياء لدرجة أن الرؤوس كروية الشكل باتت تلف وتدور وتطير في الهواء كما الكرة، بحيث لم تبق فقط الروح رياضية، بل صارت القلوب والرؤوس أيضا رياضية بالمعنى السلبي والإيجابي للكلمة.

أحوال البلاد2- 2 - 2017

الشعب يفتح جبهة الثقافة!

رغم أن الفن يعتبر منتج مدني، والشعب الفلسطيني بأغلبه، أولا شعب قروي، تكاد نسبة الذين يعيشون في القرى أو ممن يعودون بجذورهم وثقافتهم للريف، تفوق ال 60 أو 70% من مجمل الشعب، خاصة الذي ما زال يعيش في فلسطين التاريخية، بغض النظر إن كان يعيش في ظل التمييز العنصري، أي داخل " دولة إسرائيل " أو في القدس أو الضفة الغربية أو قطاع غزة، وثانيا يطغى اهتمامه بالجانب الكفاحي/ المقاوم للاحتلال، إن كان بشكله المسلح أو التنظيمي أو السياسي/ الوطني، رغم كل ذلك إلا أن الشعب الفلسطيني لم يهمل جبهة الثقافة في كفاحه والتعبير عن نفسه، كشعب أصيل، له تاريخ وله سمات خاصة، وقد شهدت هذه الجبهة أكثر من فصل لها، بدأ بالشعر، حين قارع الشعراء الانتداب البريطاني ومن ثم الاغتصاب الصهيوني لفلسطين، وانتهى بالغناء، بعد أن مر بفصول المسرح، الفن التشكيلي، السينما، والفولكلور بكل أشكاله.

والحقيقة أن الثقافة، وفي كل أنحاء الدنيا، تعتبر حقلا أكثر عدالة وحقلا أخلاقيا أكثر من حقل السياسة أو حتى الاقتصاد، لذا فانه في الثقافة تتفاعل الشعوب وتتداخل، وتقدم الإنسانية عادة أفضل ما لديها من إبداع، ومنذ الأزل، والشعوب تجد في الثقافة مجالا لأن تعبر عن نفسها بحرية أكثر، لذا فان الشعوب وعلى مر الحقب والعصور، تميزت عبر ما تنتجه من ثقافة شعبية - خاصة - بحيث أن كل شعب ظهر بخصوصيته وجمالياته عبر ثقافته.

وفي كثير من الأحيان، وجدت الشعوب المقهورة، المحتلة، أو المستلبة، في ما تنتجه من ثقافة مجالا للكفاح، بهدوء ودون صخب، ضد الاستعمار الخارجي، أو ضد طمس الهوية الوطنية، أو حتى في مواجهة الاستبداد، حتى غدا الشعر، المسرح، السينما والرواية أدوات كفاح من اجل حقوق البشر المهضومة، في كافة أنحاء الدنيا، ولعل هذا منح الإبداع الأدبي والفني مشروعية أضافية، بحيث غدا التعبير الأدبي تعبيرا عن عمق وجوهر الذات البشرية، وليس مجرد "أداة" أو وسيلة للهو والمتعة أو للتسلية وتزجية الوقت، كما كان الحال عند الكثير من النخب الحاكمة إن كانت طبقات اجتماعية أو شرائح سياسية، كذلك رفع من شأن الأدب والفن الذي طالما اعتبر وفق المعايير أو المقاييس الاجتماعية لمجتمعات العهود الإقطاعية، " مهنة " أو مجالا يعمل فيه من كانوا

ينتمون إلى فئات اجتماعية اقل شأنا من أبناء العائلات أو الطبقات الراقية، مثل "النور أو الغجر ".

لذا، فأنه ليس صدفة أن يكون رواد الرواية والمسرح والسينما وحتى الفن التشكيلي من الأقليات، أو من أبناء الفقراء، حين كان "أبناء العائلات" يتوجهون للحقل الدبلوماسي والسياسي ليكونوا حكاما، بينما كان الشعراء - رغم أن الشعر منتج عربي أصيل - من الموالي أو فقراء الناس، أما الغناء فكان مهنة العبيد والقيان!

لعل شعراء المقاومة الفلسطينية، سطروا مطلع ستينيات القرن الماضي انصح صفحة حين فتحوا جبهة الثقافة لتقاوم مخطط تبديد الهوية الوطنية، وليكونوا أحد أسباب انطلاقة الثورة المعاصرة منتصف ذلك العقد، ومع انطلاق الثورة واستمرارها، اندمجت جبهة الثقافة والأعلام مع جبهة الكفاح المسلح، وجبهة الكفاح السياسي، ضمن مسار الكفاح الوطني، ليظهر "البوستر" والشريط السينمائي، أغاني العاصفة وأناشيد الثورة، ثم يظهر المسرح الوطني والأدب المقاوم.

لكن ومنذ عقود، تحديدا، منذ إقامة أول سلطة وطنية على أرض الوطن، ظهرت الثقافة الرسمية، ثقافة دولة فلسطين، ومع تعثر مسار تحول السلطة إلى دولة مستقلة، بدأت تظهر تباشير الثقافة الشعبية مجددا، التي تعيد الاعتبار لمكانة جبهة الثقافة من جهة، والى البعد الشعبي للثقافة في الوقت ذاته.

وبعد ظهور فصول أضافية في السينما الفلسطينية - سينما المرأة، وفي المسرح، المسرح الاجتماعي، وفي التشكيل - اللوحة الفنية الإنسانية، ظهر فصل مهم جدا، وهو الغناء، عبر مبدعين فلسطينيين شباب.

كان وصول النجم عمار حسن إلى المرحلة النهائية حيث خسر اللقب أمام الليبي أيمن الأعتر بعد تدخل معمر القذافي، وذلك عام 2004، بمثابة إلقاء الضوء على إبداع فلسطيني عظيم، خاصة في مناطق 48، حيث يحمل الشعب الفلسطيني في خندق المواجهة الأول راية الكفاح الثقافي، من خلال عشرات المبدعين والمبدعات الكبار من ملحنين ومغنين ومغنيات، لا يمتلكون الموهبة فقط، بل يغنّون عن وعي ووفق الأصول المهنية العالية، وما أن مرّ عقد على تلك الواقعة، حتى كان محمد عساف ومن ثم يعقوب شاهين وأمير دندن يؤكدون على أن الشعب الفلسطيني يستحق الحياة كما يليق به، في وطنه وفي ظل دولته المستقلة.

لابد من فتح كل الأبواب، إذا، أمام الشباب الفلسطيني ليبدع في كل المجالات، وليس فقط أبواب الكفاح المسلح، أو الجهاد المقاوم بشكله العسكري، ذلك أن الكفاح بشكله السياسي العنيف والسلمي، يحتمل أن ينجح أو أن يفشل، لكن الكفاح الثقافي/ الفني، ينجح في الحفاظ على الهوية، ويعزز الروح المعنوية، كذلك يعمل في حقل يتفوق فيه الشعب الفلسطيني على عدوه الصهيوني، الذي يتفوق بدوره في الحقل العسكري وفي حقل النفاق السياسي.

ولعل إسرائيل وهي تلاحظ نجاح الفلسطينيين في أراب أيدول، تستشيط غيظا وغضبا، لدرجة أن تحاول أن "تزج" في دورة قادمة - مثلا - وفي ظل تطبيع عربي - مثلا - بإسرائيلي أو إسرائيلية، خاصة ممن هم من اليهود الشرقيين/ العرب، الذين يعشقون الغناء لأم كلثوم والمطربين العرب، لكن ذلك لن يؤدي إلا إلى عودة اليهود العرب إلى عروبتهم وتحولهم عن " الإسرائيلية " كهوية زائفة ومصطنعة، حيث ينتهي الأمر بانهيار تلك الهوية، التي لا تقوى على الوقوف على قدمين إلا برافعة التسلط السياسي.

أحوال البلاد 26- 3 - 2017

حين يتابع "الرئيس" أراب أيدول!

لم يسمع "السيد الرئيس" بخبر رفض عدد من الممثلين العالميين، زيارة إسرائيل، رغم الأغراء المالي، الذي قدم لهم، وذلك استنادا لموقف أخلاقي، كذلك نتيجة جهد بذلته حركة مقاطعة إسرائيل BDS، وقد يعود السببإلى أن الخبر قد تزامن مع العروض النهائية لبرنامج "أراب أيدول" الذي لا يخفي "السيد الرئيس" إعجابه به، لدرجة قد لا نبالغ في القول، بأنه - لو طال به العمر - ليشهد المؤتمر القادم لحركة فتح، قد يضمّن " النجاحات " التي حققها فنانون فلسطينيون في البرنامج، إليه والى اهتمامه ورعايته الخاصة، التي " عوضته " عن كل إخفاقاته طوال اثني عشر عاما، أمضاها في الموقع الأول، بقيادة شعب ما زال يتوق إلى الحرية والأنعتاق من ربقة الاحتلال.

الرئيس الذي ما زال يتذكر حبه "لموشيه الياهو"، لم يسمع عن حركة مقاطعة إسرائيل نفسها، التي نجحت في توجيه ضربة موجعه لدولة الاحتلال حيث كانت سببا في رفض نجوم العالم من أمثال ليوناردو دي كابري،سلفيسترستالوني،جينفير لورنس، مات ديمون، وكيت فيلنست، القدوم لإسرائيل استجابة لبرنامج وزارة السياحة الإسرائيلية بدعوة 26 من مرشحي الأوسكار، الذي تضمن رزما من آلاف الدولارات، ضمن عروض سياحية، إلا أن أحدا من هؤلاء لم يستخدم هذه العروض.

في الحقيقة فان حركة المقاطعة هي منظمة غير حكومية تأسست عام 2005، من 171 منظمة فلسطينية غير حكومية، نجحت حتى الآن في فرض عقوبات ثقافية، أكاديمية، واقتصادية على إسرائيل، بحيث باتت تشكل ظاهرة، تعني بكل بساطة بان الشعب الفلسطيني لن يفقد الوسيلة في الكفاح ضد إسرائيل، وانه لن يرفع يوما الراية البيضاء، حتى ولو جاء يوم باتت فيه م ت ف، كما لو أنها تعيد تجربة الهيئة العربية العليا التي أنشأتها الجامعة العربية عام 1946، كما أنشأت لاحقا م ت ف سنة 1964!

بالعودة إلى ما يبديه الرئيس شخصيا، ومن ثم بعض مسئولي السلطة من اهتمام " بالثقافة " أو الفن، لابد من القول بان هذا الاهتمام خادع ومبتسر، فهو يتساوق مع برامج الترفيه أمريكية الأصل، والتي من خلال ترجمتها إلى العربية يتحقق الهدف "بأمركة" الثقافة العربية، والدلائل على هذا لا تعد ولا تحصى، فحيث أن الثقافة والفن الفلسطينيان لا ينفصلان عن الواقع الفلسطيني، فلا بد من القول بان الثقافة الفلسطينية طالما لعبت دورها الوطني بامتياز من خلال الدفاع عن القضية الوطنية بتقديم الفن الملتزم، الفن

الشعبي، الذي يحض على الكفاح ضد الاحتلال، ويأخذ من الواقع الفلسطيني خصوصيته التي تختلف بالتأكيد عن واقع الكثير من الدول العربية.

يشبه الأمر إلى حدود كبيرة، ما دأبت بعض المنظمات غيرالحكومية التي تعمل في بلادنا -القدس، الضفة والقطاع- على القيام به من نشاطات لبث الثقافة المدنية، دون الإشارة إلى أن الاحتلال إنما هو سبب رئيسي في كل المشاكل الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع الفلسطيني.

أي من الخطأ الذي يصل إلى حد الخطيئة أن ينسى الفلسطيني كونه فلسطينيا، فيمارس "حياته" كما لو لم يكن هناك احتلال، لأن هذا بكل بساطة تزوير للواقع ومناف للحقيقة.

ثم إن تشجيع الثقافة، لا يتوافق مع الميزانية العامة التي تخصص لها، والتي اقل ما توصف به، هو أنها لا تقترب من ميزانية اصغر جهاز امن في السلطة، ثم إن تشجيع الثقافة لابد أن يكون موضوعيا وعاما وشاملا، أي ان يشمل كل المبدعين الفلسطينيين - كتاب، مسرحيين، سينمائيين، تشكيليين وموسيقيين - وذلك من خلال إرساء بنية تحتية، ببناء المسارح والمعاهد، وإنتاج الأعمال التاريخية، ومنح الجوائز والحوافز، وان تنفتح هذه الدائرة لتشمل كل المبدعين الفلسطينيين في غزة والضفة والقدس وال48 والشتات، وهناك مئات بل آلاف من هؤلاء الذين "يشرّف" كل واحد منهم كل فضائيات الخليج العربي، وليس الأم بي سي فقط، كما يستحق أي واحد من هؤلاء أن يكون عنوانا للثقافة الوطنية، بدلا من عناوينها التي يبدو أنها اختيرت حتى "لا تستفز " الجانب الآخر!

ولابد أن يشمل احترام الثقافة والفن ومنتجيهما الجميع، المعارض للسلطة قبل المتوافق معها، ولا بد أن يكون أهل البيت أولى من الغرباء بالتكريم والتقييم والتعظيم، الذين يسارع الرئيس إلى منحهم جوازات السفر الخاصة والأوسمة فقط لأنهم يستجيبون لموقف سياسي ملتبس، كما لو كان " معجبا " بالنجوم الذين يسعى إلى " توقيع " المشاهير منهم.

بعض التصرفات لا تليق برئيس شركة، ولا حتى برئيس دولة، فما بالنا ونحن ما زلنا حركة تحرر وطني، لابد أن يظهر من يشغل الموقع الأول كقائد أكثر منه رئيسا، ليس في سلوكه وتصرفاته وحسب، بل وفي حله وترحاله، وحتى في لباسه، وليس صدفة أن اشتهر أبو عمار بالكوفية، و"بدلة" الفدائي/ الكاكي، وليس صدفة انه كان ينام ويجلس ويعيش في المواقع، بعيدا عن القصور و"الفلل"، وليس صدفة أن يحن الشعب الفلسطيني لأيامه الخوالي!

حتى لو كان رئيس آخر شعب تحت الاحتلال، يجد وقت فراغ، رغم كل ما يشغل بال الطفل قبل الشيخ والمرأة والرجل العاقل، فليس من اللائق أن يظهر ما يستفز به الناس، اكتر ما هم مستفزين أصلا، فالناس تحب من يظهر لها روح التضامن، حتى لو كان من غير أبناء جلدتها، والشعب الفلسطيني لمن ينسى شعب مكافح، لا يقبل الضيم، وياما كسر الجمل بطيخ، وهو أذكى مما يقدّر بعض قليلي الحيلة أو من عاشوا وهم رغد العيش، يدرك حقيقة الجميع، وان ما ينفعه إنما هو ما يبقى في الأرض، أما العابر من الزبد فسرعان ما يتبدد، وان المثل يقول: يا بخت من بكاني وبكى علي، ولا ضحكني وضحك الناس علي!

أحوال البلاد 2- 3 - 2017

عبد الحليم ويوم الأرض

في العام 1969 قام سناتور أمريكي يدعى غايلورد نيلسون ومساعده دنيس هايس بزيارة سانتا باربارا بولاية كاليفورنيا، فهالهما قدر التلوث بمياه المحيط الهادي بسبب تسريبات النفط، والذي يجعل حياة الطيور والأسماك والحيوانات البحرية مستحيلة، لذا ما أن عادا إلى واشنطن حتى قام النائب في الكونغرس بتمرير قانون يخصص يوم الثاني والعشرين من أبريل من كل عام يوما عالميا للأرض، للاهتمام بالبيئة.

أما دينس هايس فأسس منظمة جعلت من هذا اليوم يوما عالميا، بحيث باتت، منذ العام 1990 تحتفل بيوم الأرض نحو 175 دولة في العالم، حتى أن بعض الدول لا تكتفي بتخصيص يوم واحد، بل تخصص أسبوعا كاملا، إلى أن حددت الأمم المتحدة يوم الخامس من حزيران يوما للبيئة، حيث بدأت تعقد قمم كونية بالمناسبة.

المهم هو أن " يوم الأرض " مصطلح يتردد في أنحاء العالم، منذ عقود، لكن يوم الأرض الفلسطيني والذي بدأ الاحتفاء به منذ عام 1976، وتم تخصيص الثلاثين من آذار يوما وطنيا له، يعني شيئا آخر، يهدف للحفاظ على الأرض وليس البيئة، على الأرض التي سرقتها إسرائيل، وكانت في ذلك العام 1976، قد قامت السلطات الإسرائيلية بمصادرةآلاف الدونمات من الأراضي ذات الملكية الخاصة أو "المشاع" في مناطق ذات أغلبية فلسطينية، فعم الإضراب أولا، احتجاجا على ذلك كل الأوساط الفلسطينية من الجليل إلى النقب، ثم اندلعت تاليا، مواجهات بين الفلسطينيين وقوات الأمن الإسرائيلية، أسفرت عن سقوط ستة شهداء ومئات الجرحى والمعتقلين،ومن يومها تحولت المناسبة إلى يوم وطني يجمع كل الفلسطينيين للإعلان عن تشبثهم بأرضهم الفلسطينية.

والحقيقة أن يوم الأرض الفلسطيني يختصر نحو مئة عام من الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، حيث من المعروف أن احد أهم مقومات الدولة الوطنية أو القومية هو وجود أرض خاصة بشعب ما يقيم عليها وفيها دولته، وحيث أن اليهود لم تكن لهم أرض ولا وطن، فقد اعتمدوا "وعد بلفور" ليحقق لهم هذا الأمر، وذلك على حساب الشعب الفلسطيني، الذي من سوء حظ الإسرائيليين كان بأغلبه شعب فلاحين، تمثل الأرض بالنسبة لهم مصدر الرزق الوحيد، وهي إضافة إلى أنها تحتوي بين جنباتها تاريخهم وثقافتهم، هي تمثل لقمة العيش ومصدر الرزق وإكسير الحياة.

لذا قاوم الشعب الفلسطيني وما زال يقاوم الهجمة الاستعمارية الإسرائيلية بكل قوة، ذلك أن المعركة على الأرض إنما هي معركة حياة أو موت، بين الإسرائيلية والفلسطينية،لذا فقد شكّل يوم الأرض مكملا طبيعيا لانطلاق الثورة الفلسطينية المعاصرة عام 1965 - 1967، وهذا اليوم يمثل منذ أكثر من أربعين سنة، واحدة من المناسبات القليلة التي تجمع كل الفلسطينيين بكل أطيافهم السياسية من جهة وفي كل تجمعاتهم، من مناطق الـ 48 إلى القدس، الضفة، غزة والشتات.

وهذا اليوم يمثل عمليا يوما لبث الروح في أوصال الكفاح الوطني، إن كان قد أصابها تعب أو وهن ما، فيوم الأرض ليس مناسبة لا للبكاء ولا الاحتفال، بل لإطلاق روح الكفاح من اجل التشبث بالأرض الفلسطينية ووحدة الفلسطينيين أينما وجدوا، وتحقيق هدف تحرير الأرض من الاحتلال لإقامة الدولة المستقلة.

وفي الحقيقة فأن إطلاق يوم الأرض من الداخل الفلسطيني عام 1976 شكل حدثا مهما، ذلك أن انطلاق الثورة عام 1965/ 1967، اظهر كما لو أن المواجهة الفلسطينية/ الإسرائيلية بشكلها الصدامي قد انحصرت بين إسرائيل وفلسطيني المناطق المحتلة عام 1967، فكان أن فتح يوم الأرض جبهة الكفاح الوطني الثانية ضد إسرائيل والتي لم تتوقف من حينها، بحيث تحولت إلى ساحة صراع سياسي، بحيث جعلت من الأحزاب العربية في إسرائيل رافعة قوة ووجود لجزء من الشعب الذي يرابط في الخندق الأول المتقدم.

ثم لعلها المصادفة التي جعلت من رحيل الفنان العربي الخالد عبد الحليم حافظ، أن يكون في نفس اليوم وان كان في العام التالي لانطلاق أحداث يوم الأرض الفلسطينية، وعبد الحليم كان صوتا عربيا جعل من الفن ليس مجرد فن نبيل وحسب، بل أحد أدوات الكفاح القومي من اجل الحرية والوحدة، مما يمنح يوم الأرض بعدا عربيا واهتماما خاصا، يليق بألق المناسبة.

فمنذ منتصف خمسينيات القرن الماضي، وبعد سنوات قليلة من احتراف عبد الحليم حافظ للغناء، انخرط في صفوف الناصرية، التي كانت تقود العرب على طريق الحرية والوحدة، وكانت تمثل درع العروبة والحصن الحصين لفلسطين.

ومن حيث غنى عبد الحليم لعبد الناصر غنى لفلسطين، لذا فان يوم الثلاثين من آذار، يجيء كل عام لا ليعلن عن بدء الربيع السنوي، حيث التجدد والانطلاق والحيوية، بل أيضا ليعلن أن أجمل القيم وأروعها، لها علاقة بهذه المناسبة، فما أجمل أن يحضر عبد الحليم حافظ وان يملأ كل شاشات الفضائيات في يوم يجتمع فيه كل الفلسطينيين

ليرددوا نشيد الأرض، وليؤدوا قسم الولاء لها، والدفاع عنها وتحريرها، مهما كلف ذلك من تضحيات، إلى أن يتحول يوم الأرض الفلسطيني إلى يوم عالمي ليس للبيئة وحسب، بل يوما عالميا للعدالة والمساواة بين البشر.

أحوال البلاد3- 4-2017

مغناة الحرية
نشيد فلسطين

نحو ربع قرن مرّ على أوسلو، ولم يتحقق شيء من الأوهام التي ملأ بها الفضاء الذي يحيط بنا، أصحابها من الجانب الفلسطيني، رغم أن مهندس الاتفاق من الجانب الفلسطيني، ما زال حيا يرزق، بل انه على رأس النظام السياسي الفلسطيني كله، أي انه صاحب قرار الحرب والسلم، الذي شهد على العصر بأكمله، أي يفترض فيه أن يكون على دراية كاملة بخبث الإسرائيليين ودهائهم، خاصة على جبهة التفاوض، ونحن لا نقصد هنا، الأحلام الكبيرة التي رافق الوهم مسار تحقيقها عبر مسار تفاوضي منفرد وثنائي ودون روافع ضاغطة، من مثل إقامة الدولة المستقلة وحق العودة، ووحدة الشعب الفلسطيني بالداخل والخارج، بل حتى انه لم تتحقق "حالة السلام" إلا من جانب واحد، هو الجانب الفلسطيني بالطبع، الذي حقق للطرف الإسرائيلي ما كان يحلم به من الأمن دون مقابل، لا الأمن للمواطنين الفلسطينيين ولا حتى إطلاق سراح الأسرى، ممن اعتقلوا قبل وخلال وبعد أوسلو، من فتح وحماس والشعبية والجهاد، وبمن فيهم القادة والنواب، الصحفيون، الفتيات والفتيان والأطفال.

يمكن القول بكل بساطة بأن أسوأ ما تحقق بعد أوسلو، هو تحوّل القيادة الفلسطينية من قيادة كفاح وطني إلى قيادة بيروقراطية، تحت مسمى التكنوقراط، الذي سرعان ما تحوّل بدوره إلى بيروقراط، لا يختلف عن أي بيروقراط حكومي في "دولة" عالم ثالث، بل لا يختلف عن أي بيروقراط عربي، ترتفع عقيرة الشعوب العربية منذ سنوات مطالبة بإسقاطه، بعد أن حجز التنمية، فيما عندنا - نحن الفلسطينيين - حجز عملية التحرر الوطني، فضلا عن عجزه أصلا عن التقدم على الطريق الاجتماعي/ الاقتصادي.

يمكن القول بأن أسوأ ما نجم عن أوسلو هو تحوّل المؤقت الذي كان لا يفترض فيه أن يتجاوز الخمسة أعوام، إلى دائم، مضى عليه نحو ربع قرن حتى الآن، فقط، وبتعداد سوءات أوسلو، تطول حلقات السلسلة، بحيث يمكن القول بأن هنالك ما هو أسوأ أيضا مما ذكر، وهو "قتل" أو خفوت أو تبديد روح المقاومة والكفاح الوطني، حيث حرصت السلطة الفلسطينية، خاصة في العقد الأخير،على الإبقاء على التفاوض العبثي كخيار وحيد، دون أن يرافقه ضغط كفاحي ميداني يفرض على الطرف الإسرائيلي أن يقدم

التنازلات اللازمة للتوصل إلى الحل التاريخي، وذلك حتى تثبت أنها شريك في عملية السلام!

كذلك أبقت السلطة على حالة الانقسام، مدة عشرة أعوام، ولم تقدم على وضع حد له بهذه الطريقة أو تلك، بحجة أنها لا تستخدم إلا الوسائل الديمقراطية في فض الخلافات والصراعات الداخلية. وهكذا فان الشعب الفلسطيني وجد نفسه يدور في حلقات مفرغة، أو في متاهة لا يعرف طريقه للخروج منها، حتى جاءت انتفاضة السكاكين قبل اقل قليلا من عامين، فلم تقم لا السلطة ولا الفصائل المتناحرة بتقديم كل وسائل الدعم لها حتى تستمر وتفرض المتغير المطلوب على حالة الاستعصاء بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

الآن يمكن القول بان أسوأ نتائج أوسلو تتجلى، اليوم، في حالة اليأس والقنوط،التي تسبق حالة الاستسلام، التي ستجد من يروج لها قريبا، بل ومن يزيّنها باعتبارها أفضل الممكن!

حدث هذا، لكن من قاد وما زال يقود الشعب الفلسطيني إلى الفراغ والضياع، نسي انه شعب الجبارين، وانه شعب يعرف كيف ينطلق من حيث لا يحتسب مهندسو أوسلو، رغم أن كبار مناضلي شعبنا، قابعون وراء قضبان السجون الإسرائيلية، فمن فيهم مهندس الانتفاضتين السابقتين، القائد مروان البرغوثي.

وإذا كان من بالخارج قد "ترهّلوا" بحكم مناصب السلطة، هنا وهناك، وعلى اقل تقدير انشغلوا بخصومتهم السياسية، وهبطوا بخيالهم إلى ما تحت أقدامهم، بحيث صار كل همهم كيف يحصلوا على الامتيازات، وفي أحسن الأحوال، كيف يوفروا للناس الرواتب والكهرباء، وكيف يوزعوا جوازات السفر الدبلوماسية على من يوزعون الوهم مجددا على الشعب الفلسطيني، كما لو كان يعيش حالة طبيعية، يجد في فوز كروي تحريرا للقدس، وفي ظفر باراب أيدول، عودة للديار، فإن في السجون أسودا، لا يعرف اليأس طريقه إلى قلوبها.

بعد كل هذا التردي، يلتقط اللحظة القائد مروان البرغوثي، فيجعل من يوم الأسير الفلسطيني، في السابع عشر من نيسان الجاري مناسبة لإطلاق شرارة المقاومة من داخل السجون، أو من الموقع المتقدم، الأول في المواجهة بين جوليات وداود.

كل المؤشرات تقول بان الشعب الفلسطيني على موعد مع المواجهة مع الاحتلال مجددا، مواجهة تطوي صفحة أوسلو، لذا فان يوم السابع عشر من الجاري يعتبر يوما فاصلا بكل معنى الكلمة، ولعل صدى التحدي قد وصل إلى فنان عربي حقيقي، أصيل، حيث استجاب عاصي الحلاني لنداء مروان البرغوثي، بان اعد دعما لانتفاضة الأسرى

القادمة "مغناة الحرية" حيث على الشعب الفلسطيني بكل ملابينه، وأينما كان أن يخرج للشوارع يوم الأحد القادم، يغني نشيد الحرية مع عاصي الحلاني، وان لا يعود إلى البيت أبدا، بل أن يظل يهتف وينشد للحرية ليل نهار، إلى أن يحل يوم الخامس من حزيران حيث يكون قد مضى نصف قرن على الاحتلال، ثم يتابع حتى يوم الثاني من تشرين ثاني، حيث تحل الذكرى المئوية لوعد بلفور المشئوم، وهكذا لابد أن يكون هذا العام عاما للحرية، عاما للكفاح الوطني والنضال المتواصل، والمقاومة بكل أشكالها، ومن قبل كل الفلسطينيين، أينما حلوا وكانوا، ولنجعل من "مغناة الحرية" نشيدا وطنيا، يحملنا بأحلامه المتحققة إلى رحاب القدس وشوارع بيت لحم وأزقة غزة.

أحوال البلاد13- 4 - 2017

الثقافة اليوم
بصرية وصناعة وفوكس إعلامي!

شيئا فشيئا تحدث "العولمة" بعد كسب العالم الامبريالي للحرب الباردة، وتحكم الرأسمالية العالمية بالمجتمع البشري، دون كابح، متغيرات عميقة في الثقافة العامة للمجتمع البشري، حيث تحل أخلاق السوق والبزنس محل القيم الإنسانية التي كانت في السابق تؤمن بها مئات ملايين البشر، ولقد تعمقت الفجوة بين الأثرياء والفقراء لدرجة مرعبة، حيث تشير بعض الأرقام إلى أن نحو ثمانية أشخاص فقط يمتلكون ما يقارب من نصف الدخل القومي للبشرية.

ولقد تحول الأثرياء خلال نحو ثلاثة عقود من أصحاب ملايين إلى أصحاب مليارات من الدولارات، وازدادت الغالبية الساحقة من البشر فقرا، وما زال الملايين يموتون من سوء التغذية والمرض في كل أنحاء العالم، فضلا عن الحروب التي نجمت عن التحولات السياسية التي تلت انتهاء الحرب الباردة، إن كان في أوروبا الشرقية أولا ومن ثم في الشرق الأوسط، وفي آسيا الوسطى ما بينهما.

وبعد أن كان نصف الكون يؤمن بقيم المساواة والاشتراكية، فيما كان وجود المعسكر الاشتراكي يشكل كابحا "لتغول" المعسكر الرأسمالي، انتشرت القيم الرأسمالية في أحط صورها، ووصلت الثقافة الأمريكية بالذات إلى كل مكان، بما تمثله من إعلاء للقيمة الميكافيلية-الغاية تبرر الوسيلة- وبغض النظر حتى عن الغاية التي عادة ما تكون قناعة أو اعتقادا بضرورة الإبقاء على التفوق الغربي وعلى السيادة الأمريكية للعالم، فان الغاية أصبحت هي جمع المال وتكديسه للتحكم في البشر، الين صاروا عبيدا حقيقيين بشكل أو بآخر.

لم يعد المردود المالي ناجما عن جهد أو عمل محدد أو حتى كفاءة، بقدر ما صار يمكن تحصيله بأكثر من طريقة لا تختلف في الجوهر عن الاحتيال، ولقد قلبت الثقافة الأمريكية -وهي بالأصل ثقافة لقيطة، لم تكن ثقافة الغرب المتحضر، وهي ثقافة التفوق والسيطرة-الثقافة العالمية متعددة القيم الإنسانية، لذا فقد تراجع الاهتمام بالأدب الروسي والسوفياتي بالطبع، ومن ثم الأمريكي اللاتيني، واختفت السينما الإيطالية والفرنسية، وبدل موسيقى السيمفوني الألماني، ظهرت الروك أند رول، والبوب وغناء الجسد والعري، وسادت السينما الأمريكية وهي فن تجاري بامتياز يقوم على "الأكشن" وعلى

الخيال غير العلمي، المريض، وحين ظهرت ثورة الاتصالات، عرفنا تلفزيون الواقع، حيث بدأ الفوكس الإعلامي سيد المشهد وقوة التأثير العظمي على الرأي العام.

لم تعد الثقافة المقروءة ولا حتى المسموعة (الأدب، والموسيقى) هي سيدة الموقف، بل صارت الثقافة المرئية لسهولة الوصول للمستهلك، الذي صار كسولا بدوره، يجلس في بيته أو مكتبه أو بسيارته، ينتظر أن يصل إليه كل شيء دون أي عناء.

واختفت الثقافة التي ينتجها الأفراد، من شعراء وروائيين، وظهرت الثقافة التي تنتجها المؤسسة التي لديها المال وتنتج بهدف الربح،حيث تقدمت السينما، والدراما، وصار السوشيال ميديا يصنع النجوم بتداول أخبارهم في الأعلام دون تداول أعمالهم الفنية، لدرجة انك تسمع كثيرا عن الأسماء وعن أخبارها الخاصة ولا تعرف ماذا قدمت، أو حتى أحيانا ما هي مهنتها!

وحين وصلت "العولمة" إلى بلادنا، وجدت في الخليج الغني بالنفط، أي الثري دون أن يكون ثراؤه نتاج جهد لأبناء البلد كما هو حال الألمان أو اليابان والصين - مثلا - وجدت في الخليج مروجها الرئيسي، ذلك أن الخليج كان حليف الغرب إبان الحرب الباردة، وفيه مجتمع طبقي استبدادي ومتخلف اجتماعيا، لذا فقد حاولت "العولمة الأمريكية" عبر ما أسمته بالربيع العربي أن تسقط أنظمة حكم عربية مستبدة بأدوات الخليج المستبد هو أيضا، وكان من نتيجة ذلك أن استبدل مثلث القوة والحضارة العربية خاصة في المشرق العربي، المكونمن مصر- سوريا - والعراق، بمثلث الثروة الخليجي المكون من قطر–السعودية- والأمارات!

ولم يقتصر الأمر على الجانب السياسي، بل تعداه إلى الجانب الثقافي وهذا أخطر وابعد شأوا، فبعد أن كانت مهرجانات القاهرة السينمائي وقرطاج ودمشق السينمائي والمسرحي ومربد بغداد المحطات والملتقيات الثقافية الأهم في العالم العربي، صار مهرجان دبي السينمائي ومهرجانات الشارقة المسرحية، كذلك محطات العربية والجزيرة ودبي وأبو ظبي هي وجهة الكفاءات الإعلامية والثقافية العربية.

وتم تسليع الثقافة تماما، وفقد المثقف النوعي الملتزم بالقضايا العربية دوره، وروجت دول الخليج لثقافة سلفية/حديثة، أي رجعية في الجوهر والمعنى والهدف والقيمة، وحديثة في الشكل والإطار وأداة الوصول للمستهلك. ولقد اعتمد وكيل الثقافة الأمريكية في المنطقة على أمرين للتحكم باتجاهات إنتاج الثقافة العربية، هما: أولا القيام بترجمة وتعريب البرامج الأمريكية تماما (من يربح المليون، أراب أيدول، جود جالانت) والتي لا يتم فيها التحكيم اعتمادا على مؤسسات الاختصاص أو الكفاءات الثقافية/الفنية،

بل على الأفراد/النجوم، لأن المحطات الراعية نفسها (أم بي سي على نحو خاص)تهدف لتحقيق الربح المباشر أيضا، إن كان من خلال أموال الأم أس أو الإعلانات أو من خلال "استعباد" الفائزين بعقود طويلة الأجل، وثانيا على تقديم الجوائز المالية الكبيرة - البوكر،الكاتارا، شاعر المليون، الشيخ زايد،،،

ولعل التعرض لما يحصل عليه بعض الأفراد بسهولة من خلال تقديم البرامج التلفزيونية أو التمثيل، من أموال باهظة، فيما ملايين الشباب العربي يتخرجون من الجامعات إلى سوق البطالة، يظهر إلى أي مدى أصبح عالم اليوم يحقق المفارقة الغريبة جدا. لذا فان ثورة عارمة تعم الكون بأسره لا بد قادمة، تقلب ظهر المجن ضد الجنون والعبث الأمريكي وضد كل وكلائه في كل مكان، ومنهم من يرتدون العباءات في بلادنا، بجيوبهم الممتلئة بالأرقام الفلكية من المال، وبرؤوسهم الفارغة من كل ما له علاقة بالعلم أو المعرفة!

أحوال البلاد22- 8 - 2017

غوبلز إسرائيلي مؤنث

رغم أن ألمانيا النازية ملأت الدنيا وشاغلت الناس خلال فترة ما بين الحربين العالميتين، الأولى والثانية، بما أحدثته من تجاوز لما كانت عليه ألمانية من آثار هزيمة الحرب الكونية الأولى، ومن إسقاطها لمعاهدة الاستسلام التي فرضت عليها بعد تلك الحرب التي كانت خسرتها مع حليفها العثماني/التركي، وبما حققته من تقدم عسكري، بل من تفوق سريع، دفعها لشن الحرب العالمية الثانية التي كادت أن تكسبها، بعد احتلالها فرنسا ومعظم شرق أوروبا وفرضها الحصار على بريطانيا العظمي، ثم بسبب ما سببته من صدمة للعالم، بناء على ما وقع من ملاين الضحايا نتيجة الحرب العالمية الثانية، إلا أن عددا محدودا من رموز النظام النازي اشتهروا، أو بقيت أسماؤهم متداولة بعد أن خسرت ألمانيا مجددا الحرب الثانية، فإضافة إلى رأس النظام النازي أدولف هتلر، اشتهر أرفين رومل الملقب بثعلب الصحراء والذي كان قائدا لجيوش ألمانيا في شمال أفريقيا، وذلك بعد هزيمته المفاجئة من قبل برنارد مونتغمري العسكري البريطاني قائد جيوش الحلفاء، في معركة العلمين الشهيرة عام 1942 والتي كانت بمثابة نقطة تحول في الحرب.

وإذا كان من الطبيعي أن يشتهر هتلر رأس النظام وقائده، كذلك رمز العسكرية النازية رومل، فانه من غير الطبيعي أن يشتهر باول غوبلز وزير الدعاية السياسية للنازية والذي يعده البعض وزير ثقافتها، والذي تولى منصب مستشار ألمانيا لمدة يوم واحد عقب انتحار هتلر في 30 أبريل عام 1945.

لكن إذا كانت شهرة هتلر ارتبطت بقيادته للنازية، التي تعتبر واحدة من أخطر ظواهر التفوق العرقي في التاريخ، والتي تحولت إلى قوة قهر وإبادة للشعوب، فان شهرة غوبلز تعود لجملة شهيرة كان قد قالها ضمن خطاباته الحماسية، وهي: كلما سمعت كلمة مثقف (أو كلمة ثقافة) تحسست مسدسي.

أي أن من كان يفترض فيه أن يكون "مثقفا" يعلي من شأن الثقافة، ويجد فيها مدخلا لتعايش وتداخل الشعوب، كان يدرك أهميتها، لكنه كان يراها خطرة جدا، لأنه رجل دعائي يؤمن بالنازية، أي بالتفوق العرقي لأبناء شعبه على شعوب العالم الأخرى، وبالتالي يؤمن بالتمييز العنصري، الذي تحول بألمانيا في ذلك العهد لأن تكون قوة بطش

واحتلال وقتل، تسببت بالحرب العالمية الثانية التي يقال بأنها حصدت نحو خمسين مليون إنسان.

وفي الحقيقة فان احتلال بعض الدول لأراض شعوب أخرى، واضطرار تلك الدول وحكوماتها إلى أن تقهر شعوب تلك البلاد المحتلة، كان السبب في تحول حكومات تلك الدول -حتى لو كانت ديمقراطية- إلى حكومات تمييز عنصري، لأنها كانت تضطر إلى أن تجتهد في تبرير احتلالها للآخرين بالقول - في أحسن الأحوال- بأنها تستعمر تلك البلاد من اجل أن "ترتقي" بالمستوى المعيشي لشعوبها ومن اجل تمدينها وتحضيرها وما إلى ذلك، لكن في حال اندلعت حروب التحرير الوطنية، كانت تواجه الحق الطبيعي والمشروع بالاستقلال للشعوب المحتلة بالنار، ولا تتورع عن إيقاع المجازر البشرية بحقها، بما في ذلك ارتكاب جرائم الحرب، وانتهاك كل المعاهدات والمواثيق الدولية.

هكذا كان واقع حال الاحتلال الفرنسي للجزائر، وكان هذا واقع حال الاحتلال البريطاني للهند وكان هذا واقع حال الاحتلال الأمريكي لفيتنام،وصولا إلى نظام التمييز العنصري الذي كانت بريطانيا -الدولة الخبيرة باحتلال دول الغير- قد احتالت على الاحتلال المباشر بفرض حقوق خاصة للأقلية البيضاء التي تركتها كممثل لاستعمارها جنوب أفريقيا.

فصل استعماري آخر ابتدعه بريطانيا، مشابه لنظام الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا، وهو دولة إسرائيل، التي بدأت بإقامتها في فلسطين بدءا من وعد بلفور، ثم رعت قيامها ما بين الحربين العالميتين، إلى أن تركت لها البلاد بعد الحرب العالمية الثانية بثلاث سنوات فقط.

ولأن الولايات المتحدة ورثت بريطانيا في قيادة العالم الغربي بفصوله الاستعمارية، فقد تولت واشنطن رعاية "دولة إسرائيل" منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى يومنا هذا.

ثم تعززت نزعة التمييز العنصري لدى الحكومات الإسرائيلية بعد احتلالها لما تبقى من أرض فلسطين وأراضي ثلاث دول عربية أخرى عام 1967، وهكذا يمكن رصد، منذ ذلك الحين على نحو خاص التصريحات والمواقف العنصرية للعديد من قادة وأعضاء الحكومات الإسرائيلية.

وصولا إلى وزيرة القضاء، ايليت شاكيد، التي يفترض فيها أن تؤمن بالعدالة، لكنها ها هي تدعو قبل أيام في المؤتمر السنوي للمحامين الإسرائيليين إلى إبادة الفلسطينيين وذبح أمهاتهم بحجة أنهن ينجبن مقاتلين وصفتهم بالإرهابيين والثعابين!

شاكيد التي تنتمي للبيت اليهودي الذي يرأسه نفتاليبينيت وزير التعليم، تؤكد أنها تنتمي لحزب عقائدي، يعرض فكرا عنصريا بكل وضوح، يستند للتميز المفترض بين البشر، دون ارتباط بالظروف أو حتى النتائج أو المواقف، فالفلسطيني ثعبان وإرهابي لأنه فلسطيني، والأم الفلسطينية يجب أن تقتل لمجرد أنها أم فلسطينية.

أخطر ما في الأمر ليس أن بينت الذي يسير بثقة نحو رئاسة الحكومة الإسرائيلية يذكر بشخصية هتلر وان شاكيد تذكر بغوبلز، وتعيد صورته إلى الأذهان، لكن الخطر كله يكمن في الرعاية الأمريكية لهذه النزعة العنصرية، حيث لولا التهاون الغربي في مواجهة صعود نجم هتلر لكان ربما ممكنا تجنب الحرب العالمية الثانية، وهكذا فانه دون قطع دابر أيديولوجيا التميز العنصري متصاعدة الحضور والتأثير في إسرائيل، فان إسرائيل ذاهبة لتكرار تجربة النازية الألمانية بصورة أو بأخرى.

أحوال البلاد 4- 9 - 2017

قصائد رامز منصور لازوردية!

الفلسطيني الذي وجد نفسه، منذ ولد خارج وطنه، وممنوع عليه أن يدخله بنفس الوقت، يظل يحوم حوله كما الفراشة تحوم حول النور، فيدخل بذلك في عالم لازوردي، لا يمكنه أن يدخل وطنه إلا حالما، ومن هنا فان اللازورد دال بلونه الأزرق، الذي يحيل إلى السماء والبحر، على ما يملأ مخيلة الشاعر من أحلام وتمنيات.

سيمياء النص وعتباته:

أنثى اللازورد هو احد نصوص المجموعة الستة والأربعين، أي أن عنوان الديوان لم يكن دالا أو جامعا على مجموعة النصوص، بل انه كان عنوان احد نصوصه الأثيرة على قلبه، لذا جاء الغلاف -فوتوكوبي- أو تصويريا للعنوان المركب من كلمتين، والعناوين هذه عادة ما تكون عناوين صارمة، محددة المعنى، لا تحيل إلى التأويل كثيرا، وعادة ما تكون الكلمة الثانية صفة للأولى، تحدد كنهها ومعناها، وكأن المجموعة هنا تتحدث عن أنثى بذاتها، منحها الشاعر صفة اللازورد، أي الحجر الكريم الثمين، وكأنها امرأة بالغة الجمال والقيمة، غالية الثمن، مع أن المجموعة الشعرية وإن كانت تضمنت نصوصا رومانسية إلا أنها، اقتربت من عشق المرأة بحذر!

أما الإهداء فقد حدد ما ذهبنا إليه قبل قليل، حيث كان للأم بمعناها المركب - الأم/ الوالدة، والأم/ الوطن، وهي بالنسبة لرامز منصور، تحيل إلى تلك الأم التي حملته وهو ابن خمسة شهور، إلى المنفى، حيث لم يعرف الوطن إلا من خلالها، وهذا يجعل منهما واحدا، بشكل مقنع ومؤكد. لكن الغريب هنا، هو أن يرى الشاعر أمه " أنثى" وهذا شيء غريب على الشعراء، لكنه بتقديرنا لا يحيل إلى " أوديب " بقدر ما يجعل من عشق الأنثى/ المرأة، شيئا يقترب من الحرام. وهكذا فان الشاعر يستنكر حب النساء، إلا أمه بالطبع، بل انه ربما لن يحب امرأة إلا من كانت تشبه أمه، فيقول: من قال أني قد كتبت حبا في النساء... تمرين من أمامي فيسبقني البكاء، يا أرضا لا أبيعها ولا أفاوض فيها ملائكة ولا أنبياء.

الغلاف الأخير جعله نصا يشبه السي في، أو كأنه بيانات الشاعر الشخصية: أنا اللازوردي العشق الجليلي البدايات الفلسطيني المنتهى.

نحن نعتقد بان أهم النصوص لأي مجموعة شعرية، إنما هما نصان، أولهما الذي يفتتح المجوعة والثاني الذي يختمها، فالأول لابد أن يكون مشوقا يغري القاريء بمتابعة

القراءة، والأخير يختصر مقولة الكتاب، أو يكون بمثابة الكلمة الأخيرة/ الفصل التي تعلق بذاكرة القاريء، هنا كان النص الأول ذلك المهدى لحاكم دبي، وبتقديرنا أن الأمر كان بمثابة عرفان بجميل ما من لاجيء فلسطيني، لمن أحسن له إقامته أو ضيافته، وان كنا نعتقد بأنه لولا ذلك لكان النص التالي: إلى أمي هو النص الأول، فيما كانالنص الآخر المهم هو النص الأخير والذي جاء بمثابة وداع القاريء: سلام على العائدين، لكننا نعتقد بان نصيه المهديين إلى معين بسيسو ومحمود درويش، قد تضمنا أهمية خاصة، تتمثل في أن الشاعر إنما ينتمي إلى مدرسة الشعر الحر، شعر التفعيلة، الذي قدم لديوان الشعر العربي، واحدة من أهم قصائده عبر التاريخ الممتد منذ ما يقارب الألفي عام، خاصة في هذه اللحظة المرتبكة، حيث ينتشر اللغو الشعري، بلا هدف أو مقولة.

أدوات الإبداع الشعري:

يلاحظ أن قصائد المجموعة تميل إلى القصر، كما لو كانت مقاطع شعرية، فليس هناك من "مطولات شعرية "، وهذا يحقق إيقاعا شعريا متراتبا أو انه يضع هذه المجوعة ضمن دائرة الشعر الغنائي، وحيث أن القصائد منظومة على وقع الشعر الحر، أي شعر التفعيلة، فأن التفعيلة كذلك القافية، هما ركيزتا الموسيقى الشعرية هنا، رغم انه يلاحظ اهتمام الشاعر بالقافية كثيرا لدرجة أن بعض القصائد اقترب من النظم كثيرا.

أما اللغة فجاءت سهلة ومباشرة، قال الشعر ما يريد أن يقوله دون مراوغة أو تمهيد أو تطويل، وقد لوحظ بان المعجم اللغوي للشاعر إنما هو معجم ثري، لذا فقد تضمنت الهوامش تفسيرات لغوية لمعاني بعض الكلمات التي لم تعد دارجة أو مفهومة تماما للقاريء الحالي. وقد لاحظنا بأن أكثر كلمة ترددت في متن النصوص هي كلمة "اللازورد"، وهذا يمنح مشروعية لأن يتضمن العنوان هذه الكلمة، أما كلمة أنثى والتي هي الكلمة الأولى في العنوان، فكانت كلمة قصائد مثلا أحق بها، حيث كان يمكن أن يكون عنوان الديوان "قصائد لازوردية".

أما الدفق الشعري فقد تراوح بين العفوي والطبيعي، مع انه تعثر في بعض الأحيان، حيث شعرنا وكأن هناك ما يقف في طريق السلاسة الشعرية.

أما الصورة، فمن الطبيعي بالنسبة للشعر الحر، وقصيدة التفعيلة التي تندرج ضمن تصنيف الشعر الغنائي أن تستند للإيقاع، أكثر من التخييل، رغم ذلك فقد ظهرت صور شعرية، وجمل أو تراكيب، نمّت عن ذكاء استثنائي، تدل على موهبة حقيقية، تقول بان شاعرنا لو قدر له أن يتفرغ للشعر لقدم لنا ديوانا مدهشا، ولتحقق كشاعر فرد، يشار له بالبنان.

ومن جملة هذه الإشارات التي تنم عن الموهبة، ما جاء في قصيدة " ذا قلبي ": يا شجن الأغنيات، فحين قال أما رأيت، بكسر التاء، أدركنا أنه يخاطب أنثى.

كم أحبك واعتنق بك كل ديانات النساء، ص 42، معلق كناقوس الوداعات قلبي نصفه صمت نصفه صدى ص 29، معلق قلبي بين شريانك ونبضي ص 23، لو كان حبك كلاما لضم الأكوان في لغة واحدة فكنت أنت للحروف مدد ص 72، لأحبك أحتاج حبرا لازورديا وورقا من السماء وضحكة طفل وماء يعانق ماء ص 78 .

ورغم أن هذا هو الديوان الأول المطبوع للشاعر، إلا أن قراءة أولى تترك للقاريء انطباعا بأنه أمام شاعر ناضج، متمكن من لغته، وفي الحقيقة فإن الشاعر كان يكتب لسنين طويلة ولا ينشر، بسبب مهنته كمناضل ثوري فلسطيني، كان الشعر بالنسبة له في المرتبة الثانية من الأهمية، ولأن الشاعر كتب كثيرا من غير احتكاك بالقاريء والناقد، فقد صار اليوم أمام حصيلة من عدة دواوين، لو أنها كانت كتبت في سياق التفاعل المجتمعي (مع القاريء والناقد) لحققت له نضجا شعريا وتفردا وقيمة اكبر، ومن ثم شهرة متدرجة، كانت ستكون دون شك أكثر مما يتحقق منها الآن.

لابد من الإشارة هنا، إلى أن الشاعر رغم انتمائه لمدرسة الشعر الحر، وللفرع الفلسطيني منه، إلا أن شعره خلا من الهتاف والمنبرية، أو من صفة " المقاومة " التي طبعت شعر ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، بحيث يمكن القول بأن قصائد منصور قد تعاملت مع صوت الأنا الشعري أو الأنا الفردي، أكثر مما عبرت عن صوت الأنا الوطني أو المجتمعي أو الجمعي، لذا فإن تحديد زمان القصيدة يبدو أمرا صعبا من خلال النص، أما المكان فقد حضر عبر مثلث أو مربع الوطن (حيفا وعكا) المكان الذي يسكن الذاكرة، وبيروت ومن ثم دبي حيث عاش، ومن ثم مصر لارتباطها بالقضية الفلسطينية، كذلك كانت هنالك إشارات صريحة عبر نصوص لأفراد أثّروا في تجربة وشخصية الشاعر منهم ياسر عرفات، رمز فلسطين، ومعين بسيسو، سيد المعنى، ومحمود درويش سيد المبنى في ديوان شعر المقاومة الفلسطينية.

أما في قصيدة إلى حيفا وعكا: فقد ظهرت أنا الشاعر جلية، وبشكل نرجسي يظهر كثيرا لدى الشعراء على أية حال، حيث قال: كنت شروق شمسها ومغربها، شجرها المختال في الكرمل، لكن ربما هنا تندغم أنا الشاعر بالأنا الجمعي ليكون المقصود هو الفلسطيني على اطلاقه.

وهكذا يمكن القول بأن فلسطينية منصور إنما هي انتماء هاديء ببعدها الإنساني، وعميقة، وقد جاء المعادل الشعري لها هادئا دونما صخب، وهو يعيش حياته في

الكواليس، طبيعية إلى حد ما، لكنها مملوءة بالتوق إلى الوطن المشكّل من الأحلام اللازوردية، الزرقاء.

بقي أن نقول بأنه رغم أن الشاعر وصل إلى تخوم الأيروسية، حين كان يطرق أبواب الحب، إلا أن رادع الوطن كان يعيده إلى رشده، ورغم أن بعض القصائد تضمنت كلمات النهود إلا أن حبه كان عذريا، لاختلاط المرأة/ الأنثى بالأم/ الوالدة والأرض/ الوطن.

أما مقولة الديوان التي تمنحه المشروعية من عدمها فقد كانت هي الإضافة إلى ديوان شعر المقاومة الفلسطينية، بفصله الشعر الحر كما أسلفنا في لحظة يجري فيها التراجع والارتداد كثيرا، هذه الأيام، كما لو كنا في أيام أبي بكر، حيث هناك ردة عن مرحلة التحرر العربي لصالح الأصولية/السلفية الشعرية متمثلة من حيث الشكل بالشعر العمودي، ومن حيث المضمون بالمتن الديني والسلفي، القدري/ الأتكالي. إضافة إلى انهيار مجاور متمثل بنشر الكلام الشاعري دون أية ضوابط ولا مقومات شعرية/إبداعية، لا بالشكل ولا المضمون، ودونما أية مقولات أو حوامل ثقافية، أي كلاما مجانيا، سطحيا، لا يعدو كونه لغوا، لذا فإن نشر ديوان شعر حر عام 2017 يعتبر بحد ذاته قيمة ثقافية/ تحررية، تمنحه مشروعية وشرعية الطباعة والنشر.

القاهرة 13/ 10/ 2017

أحوال البلاد

http://ahwalelbelad.com/news/203958.html

ليكن سلاحنا الإبداع

من الطبيعي جدا أن تخشى إسرائيل أقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، لأن دولة فلسطينية حتى لو كانت منزوعة السلاح، ستكون مثل شجرة الزيتون تمتد عميقا في تربة هذه البلاد، ومن ثم ستظل بظلها كل العاشقين وكل الزهور التي ستنبت دون خوف أو وجل، من عاتيات الريح أو من قصف الأيادي الخشنة، وستظل دولة فلسطين كل ما هو جميل وأصيل وكل فراشات وزهور، شبان وصبايا هذه البقعة من الدنيا، التي ما هي إلا قطعة من السماء وضعها الله على الأرض بهدوء وروية، ثم أطلق فيها من روحه أبهى ما منحه للبشرية من بركاته وعطاياه، لتكون فلسطين هي أرض الرسالات وأرض السلام.

دولة فلسطين ستكون ثمرة العدالة وبركة السماء، لذا ستكون دون شك أو ريب نقيض "الدولة" التي لم تكن إلا ثمرة الكراهية وما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وإلا امتدادا للحرب الباردة، "الدولة" التي قامت على الاغتصاب والقتل والتشريد، وما زالت تعيش كما لو كانت مصاص الدماء، لا تعيش إلا على جثث الآخرين، فلسطين إنما هي نقيض إسرائيل، وإذا كانت إسرائيل لا تعيش إلا كدولة مدججة بالسلاح، ففلسطين تعيش مع الحب والإبداع وكل ما في هذه الحياة من قيم نبيلة.

ولعل فلسطين التي تمنعت على التلاشي، ستظل هكذا، منذ أن أطلق شعراؤها الأناشيد، يقابلون الرصاص بالغناء، ويصدون الحاكم العسكري حين يفرض عليهم الإقامة الجبرية بالشعر، بحيث كتب محمود درويش في مطلع شبابه ولم يتعد الثامنة عشرة من عمره بعد، وكان منتسبا حينها للحزب الشيوعي، في مواجهة أمر إثبات الحضور اليومي في مركز الشرطة: سجل أنا عربي، لتتحول القصيدة إلى نشيد وطني، وما بين سجل أنا عربي، وعابرون في كلام عابر، كانت إسرائيل التي إنما هي دولة من "زجاج" ترتعد فرائصها من حروف الغناء الوطني، فتعتبر "عابرون في كلام عابر" تحريضا، وسببا لمنع الشاعر من زيارة مسقط رأسه!

سيظل الفلسطينيون يحتفظون في ذاكرتهم وفي سجل تاريخهم الحديث أن حركتهم الوطنية التي نقلت الكيانية الفلسطينية من دهاليز التلاشي والمصادرة إلى الحضور في التاريخ ومن ثم في الجغرافيا، وإن كان على شكل "حكم ذاتي"، للإبداع الأدبي، خاصة الإبداع الشعري،الذي بعث الهوية مجددا بعد بضع سنوات كادت فيها أن تطمس أو

تصبح جزءا من الماضي، ستظل تعي بأن الإبداع كان سلاحها الأمضى في مواجهة العدو الغاشم.

كان حضور الشعر الوطني أولا، وكان شعراء المقاومة، ثم كان الفدائيون، وحين خاض الفدائيون الحروب الشجاعة عسكريا وسياسيا ضد جيش دولة ثمرة الشيطان، كان شعر المقاومة يصدح عاليا، ويصير عالميا، فيترجم ويتردد صداه في كل مكان، في العالم العربي، وحيث يوجد بشر أحرار في هذا العالم بأسره، فيترجم إلى عشرات اللغات العالمية.

ارتبط الإبداع الفلسطيني بحركة التحرر، ولم يقتصر الإبداع على المنجز الشعري وحسب، أي على شعر المقاومة، بل أن المقاومة الفلسطينية لأنها تعبر عن شعب مبدع، أهدافه نبيلة، وقضيته إنما هي قضية عادلة، كانت سببا في ظهور البوستر والسينما والمسرح، وكله كان إبداعا إنسانيا مفعما بالحض على تحقيق العدالة وعلى الانتماء لجانب الخير من البشر.

لا يمكن القول، إلا أنه مع ظهور الكيانية المعنوية أو الكيانية السياسية لفلسطين، أي م ت ف، قد ظهر الإبداع الفلسطيني، معرّفا أولا، أي منتميا إلى فلسطين، وليس إلى هوية أو إلى دولة أو كيانية أخرى، ثم كان لتجسيد تلك الكيانية المعنوية على الأرض وإن كان على شكل "حكم ذاتي" أي على شكل "ناقص دولة"، فإنه مجرد أن صار للفلسطينيين بيت، حتى بدأت مظاهر الإبداع الجماعي أو المؤسساتي في الظهور والتحقق بل والتفوق.

الشعب الفلسطيني الذي يبدع في ابتكار أشكال الكفاح، من الحجر إلى المقلاع، إلى الدهس باستخدام السيارات، إلى الطعن بالسكاكين، ثم بإطلاق الطائرات الورقية، وحتى عبر الصلاة في باحات المسجد الأقصى، كذلك المقاومة بالأذان، كان وصار مبدعا في كل شيء، ومتميزا ومتفوقا في كل حقول الإبداع الأدبي والفني.

كنا نقول بأن الشعب الفلسطيني يتفوق في الإبداع الشعري، لأن الشعر ابن لحظة التوتر، ويستجيب بسرعة للحالة الانفعالية، فيما الكتابة الروائية والمسرحية تنتجها عادة المدن، وحالة الاستقرار، كذلك فإن الشعب الفلسطيني، ينشد الشعر، وحين يدخل حقل الغناء فإنه يدخله من بوابة الفولكلور والتراث الشعبي، لكنه ومع كل ما قيل عن كيان الحكم الذاتي وما يمكن أن يقال عنه، فقد جعل هذا الكيان للشعب الفلسطيني عنوانا أولا وإطارا موحدا ثانيا، فصار المبدع من الضفة والقطاع ومناطق ال 48 وحتى من الشتات والخارج ينتسبون جميعا إلى دولة فلسطين.

لا يمكن النظر إلى ما ظهر من تفوق في حقل الإبداع الفني والأدبي،حين فاز ثلاثة فلسطينيون بمسابقة "أراب أيدول"، وحين فاز أكثر من فلسطيني بجوائز البوكر والكاتارا العربية، إلا على أنه دليل على أن الشعب الفلسطيني، بعد إنشاء السلطة الوطنية صار يقاوم أيضا بالأدب والفن، ولعمري فإن "إسرائيل" وهي دولة الشيطان والكراهية، مهزومة دون ريب أو شك في حقل العواطف والمشاعر والعدالة الإنسانية، أي حقل الأدب والفن،لذا فإننا ندعو بكل وضوح وصراحة إلى أن يطلق شعبنا مواهبه الفنية والأدبية إلى أبعد مدى، وأن ينتج مقابل كل دبابة إسرائيلية ومقابل كل طائرة حربية إسرائيلية، صاروخ وبندقية وحتى قنبلة نووية إسرائيلية، أغنية أو قصيدة، رواية أو لوحةأو مسرحية، أو أن يطلق فيلما سينمائيا، ومقابل كل ما تدعو له دولة الشيطان من حقد وكراهية أن ندعو نحن إلى الحب والتعايش والعدالة والمساواة بين البشر، خاصة على هذه الأرض التي ولدنا فيها وعشنا على ترابها، وأن نطلق الطائرات الورقية والبلالين الملونة وحتى أن نوقد الشموع، ونملأ جبال ووديان وتراب بلادنا بالزهور وأشجار العنب والزيتون والبرتقال، ولا ندعو إلا للمحبة والسلام، وان يظل سلاحنا هو الإبداع دائما وأبدا .

أحوال البلاد2018/7/4

مفتتحات أسبوعية الدار

المفتتح الثقافي

خليل طافش.. شكراً

عادة ما تكون عملية تقديم المسرح العالمي إلى الجمهور العربي مثيرة للجدل، ورغم أن المسألة بدأت مع بدء عملية الترجمة، التي كانت أحد مفاتيح وأدوات عصر النهضة، حيث تعرّف العالم العربي على جملة من الفنون الإبداعية الحديثة مثل فنون القصة والرواية والمسرحية، فإن عملية النقل تأثرت بالظرف الذي أحاط بها، حيث كانت أداة المخاطبة الأساسية هي القراءة.

القراءة بدورها كرست سيادة النص، لذلك فإن أهم ما تم نقله من مسرح عالمي، كان يدور في إطار المسرح الكلاسيكي، الذي ما زال يؤكد أهميته في الغرب قبل الشرق، ومع تحقق النظام القومي العربي تأسست مسارح قومية في الأقطار العربية الأساسية، مصر، سوريا، والعراق، ولكن وبسبب اقتصر النقل المسرحي في معظم أحواله على نقل النص وبناء عرض معرّب، أي بأدوات إخراجية، فنية وتقنية محلية، فإن ما شاهده الجمهور العربي كان ترجمة عربية للنص، وليس للعرض، لذلك فإن المسارح القومية، رغم أنها خرجت ممثلين، تقنيين ومخرجين، إلاّ أن التجربة ذاتها عجزت عن مواجهة المسرح التجاري، الذي كان مقابل التغريب والانحصار في إطار تثقيف النخبة، على المفردات والشكل الفني للعمل المسرحي، كان ينحط بالذائقة العامة، وبالنتيجة عجزنا كعرب عن تجاوز واحدة من أهم نقاط ضعفنا الثقافية التاريخية، المتمثلة بعدم وجود إرث ثقافي على صعيد الديالوج- أي محاورة الآخر.

لعل هذا الإشكال كان حاضراً في ذهن مسرحي قدير من وزن خليل طافش، وهو يعاني من الظروف المحلية القاهرة، التي تعجزه عن القيام بدورٍ مناط به، في ظل غياب الإنتاج الوطني، الذي يحرر المبدع من شروط التمويل الخارجي، الذي يشكل حضوراً وحيداً، يقدم أنشطة مسرحية، لا ترتقي بحالٍ إلى الصورة المسرحية المطلوبة، لا من حيث الشكل، ولا من حيث المضمون أو الرسالة التي يخلص لها المسرح الحقيقي تجاه جمهوره، حيث يثير أسئلته الأساسية بأمانة وتجرد.

وهذا ما أكده في كلمته بالكراس الذي قدّم به العمل الجميل "الجسر" هذا العمل الذي يعتبر كلاسيكياً حديثاً، وكان قد سعي وللأمانة إلى التوصل لحلٍ له، عبر التفكير بفلسطنة العمل، وذلك لتجاوز ما كان يستند إليه نقل المسرح العالمي إلى الجمهور العربي، باعتماده الإسقاط، ذلك التبرير الواهي، لعدم التصدي لمهمة إنشاء مسرح وطني بكل مفرداته المحلية، من النص إلى الإخراج.

تقديم الفنان طافش للجسر بالصورة التي كانت عليها، كانت أقرب الحلول الصعبة، بين الانزواء، أو الانخراط في ورشة الـ N.G.O's التي نطلق عليها نحن مسرحاً، ونخدع أنفسنا، في حين وللأمانة أيضاً لا يخدعنا الممولون الذي يقدمونها باعتبارها أنشطة تحقق مشاريعهم المعنونة بتعزيز الديمقراطية، وتمكين المجتمع المدني وما إلى هنالك من ادعاءات، جعلت من الكلمات الجميلة، مرادفات للتندر لدى العامة والبسطاء، وهم يلحظون كل يوم التجليات العملية والميدانية للديمقراطية الأمريكية.

ولأن طافش ظل مسكوناً بهاجسه كمبدع، لا ينظر إلى فنه باعتباره فعلاً مجانياً، يتساوق مع الحالة الدارجة، فإنه قد توفق مرتين، الأولى في أنه اختار عملاً، لم يستند إلى الإسقاط أو الإشارة، لم يشعر معه المشاهد بأنه نص أجنبي، فهو قدمه لنا في لحظة مشابهة للحظة إنتاج النص، تمحور حول فكرة التضحية بالذات والتأكيد على قيمة التضحية الفردية من أجل المجموعة، وهي قيمة تكاد تتآكل في عصر العولمة، وهذا يفسر ترحاب المتلقين المتواصل طوال العرض، والثانية في أنه أكد حاجتنا عبر شغله المستند إلى خبرته، في المجال الكلاسيكي الذي يتقنه، لمثل هذه الأعمال قبل أن نغرق تماماً في صنوف التجريب والتغريب، دون أن نقرأ الأبجديات الأولى لفنون الإبداع.. من قلوبنا نقول: شكراً لك خليل طافش، لأنك تجاوزت كل ما كان يغريك بالانكفاء، ولأنك أمتعتنا في لحظة نحن أحوج ما نكون فيها إلى متعة ثقافية حقيقية.

ادوارد سعيد: جدل الأنا والآخر

ربما كان لنشأة الراحل ادوارد سعيد، وتنقله في صباه، من مسقط رأسه في القدس، إلى القاهرة وبيروت، ثم استقراره وتشكله كمثقف عصري في أمريكا، علاقة بما ميز شخصيته وأفكاره اللاحقة من انفتاحٍ على الآخر.

وربما كان أيضاً لظروف نيل والده الجنسية الأمريكية، بسبب خدمته العسكرية في الجيش الأمريكي خلال الحرب الكونية الأولى، في وقت أصرت فيه أمه على عدم نيل تلك الجنسية واحتفاظها بجنسيتها العربية علاقة بما ميز شخصية ادوارد من تجاذب بين الشرق الذي سكنها والغرب الذي سكنت فيه. وربما كان أيضاً وأيضاً للطبيعة الأمريكية ذاتها، التي لا تتميز بهوية خاصة، بقدر ما توصف بأنها تعدد أثني، حيث تشكل وعاش ما يبرر ذلك الحوار الداخلي الذي شكل هاجسه، ومنظومة أفكاره التي شغلت الدنيا بأسرها، في الغرب قبل الشرق. ثم انشغاله بالأدب المقارن ما عزز وأكد كل ما سبق.

وربما كانت هذه الميّزة التي طبعت شخصية ادوارد سعيد وأفكاره، واحدة من سمات العصر الحديث، الذي يمر الآن بمنظومة متلاطمة من العلاقات المتداخلة المعقدة والمركبة، ما جعلت منه مثقفاً عصرياً بامتياز، بل نموذجاً للمثقف العالمي، الذي يبحث في هذه التناقضات المتداخلة إلى حدود التشابك، في محاولة معرفية للوقوف على التشكيلة الكونية المقبلة، التي ستطبع العالم في عصر العولمة.

وإذا كان من الصعب فصل المثقف عن تشكله الشخصي، فإن كتابات ادوارد سعيد التي دلّت عليه، وقدمته كمثقفٍ متفرد على الصعيد الكوني، ما يشير إلى استنتاجاته الأخيرة، وخلاصة جهده الدؤوب والمتواصل على الصعيد الفكري الفلسطيني في التوصل إلى القول بوجود الهوية المركبة، وبتداخل المنظومات المعرفية، بحيث لم يعد من الممكن التعرف على معرفة دون معرفة أخرى، وأن العقل الإنساني يمتاز بالتعدد العقلاني، حيث لا وجود لأنا معرفية إلا بوجود الآخر.

ولعل ادوارد سعيد في سياق بحثه عن المعرفة الكونية، كان يقف عند حدود معرفته بذاته، التي قال عنها يوماً بأنه أمريكي عربي، وأنه محظوظ ليكون على هذا المفترق.

هذا المفترق الذي مثل بالنسبة إليه حداً ساخناً، بل وملتهباً، جعل منه مثقفاً مثيراً للجدل، يواجه بالحجارة، أينما حلّ، لكن هذا الأتون كان في الوقت ذاته المرجل الذي أنضج مساهماته المعرفية، التي تعتبر إرثاً إنسانياً فريداً من نوعه في عصر بات المثقف

الشمولي الذي يكرس نفسه لخدمة الالتزامات الإنسانية الكبرى، في مواجهة حادة ومباشرة مع جبروت السطوة العالمية.

إن دخول ادوارد سعيد بؤرة الجدل الكوني، على الصعيدين الثقافي والسياسي، جعل منه هدفاً لكل دعاة التلفيق والمصالحة التي تقول بنهاية التاريخ عند حدود العولمة الأمريكية، وهو في الوقت الذي اتهم فيه ظلم الغرب وجبروته في الاستشراق، دافع عن المثقف الآخر الذي يعيش في المركز وينصر الأطراف في "الثقافة والإمبريالية".

وما كانت أعماله كلها إلاّ حلقات متتابعة في السجال الكوني على الصعيدين السياسي والثقافي، بما جعل منه مثقفاً فاعلاً، لا يهرب من الإجابة عن الأسئلة الأساسية، بل يدخل في دوائرها الملتهبة بكل الشجاعة المعرفية والرزانة الفكرية. بحيث تحول إلى مثقف نقدي بامتياز، يضع السائد على الدوام في موضع الشك والتساؤل. ولعله خارج سياق كتبه التي أهلته لأن يكون واحداً من أهم كتاب ومثقفي القرن العشرين، لم يكن هو غيره في مواقفه السياسية، ولعل تحققه كمثقف كوني، لم ينسه انتماءه العربي لفلسطين، التي صارت معه وعبره جزءاً من ضمير العالم، يكثف الإحساس الجمعي الكوني بالظلم العالمي، وهكذا قدم فكرته حول الوطنية المختلطة، وقال بدولة ثنائية القومية.

يرحل ادوارد سعيد إذاً، ويترك وراءه صورة لمثقف كوني، لعله بأطروحاته وأفكاره حول التداخل المعرفي الإنساني، ما يقدم ذخيرة فكرية لحالة من التضاد الكوني، تضع ما يمكن تسميته بالعولمة الشعبية/ المدنية في مواجهة العولمة الأمريكية، التي تجعل من مصالح المركز الكوني هدفاً للسيطرة الظالمة على مجمل الكون بأسره.

البطولة في الزمن الرديء

ليست البطولة أن تمارس فعلاً متميزاً أو استثنائياً في زمن عادي، وليست البطولة أن تجترح ما يفوق المألوف عبر التضحية الاستثنائية الخاصة بالذات، أو ما لديها مما يغري بالارتخاء والدعة وحسب.

قد يكون ذلك فعلاً بطولياً في زمن مختلف تتعدد فيه مظاهر البطولة، ويكثر فيه من يمارسون فعلها، لكن البطولة تأخذ معنى آخر، حين تكون في زمنٍ رديء، يدفعك كل ما فيه إلى الصمت وإلى السكون ورفع اليدين فوق الرأس، والانزواء بين الجموع الهادئة.

قد تبدو البطولة في الزمن الرديء فعلاً يائساً أو جهداً محكوماً بالفشل، لكنها حين يعم اليأس ويتعمم القنوط، تبدو أمراً مثيراً للإعجاب حتى لو ارتدت لباساً تراجيدياً، ولعلها حين كانت كذلك منذ عهود الإغريق، تفسرت بمعناه الحقيقي.

حين أعلن الفلسطينيون ثورتهم المعاصرة، في زمن الثورة العالمية، وفي سياق حركة التحرر العربية، بدت فعلاً بطولياً، لكنها بشكلٍ أو بآخر، كانت تبدو كمفردة في سياق الثورات التي عمت الدنيا من فيتنام إلى تشيلي.

أما اليوم فإن البطولة الفلسطينية التي ما زالت تقارع الاحتلال، رغم انفضاض القوى المساندة من حولها، وانهيار جدار الإسناد والدعم في المحيطين الإقليمي والدولي، تأخذ معنى آخر يمتاز بالشجاعة النادرة، حتى تحولت إلى ضمير العالم في وجه جبروت القوة والقهر. وصارت البطولة الفلسطينية في ظل هذه الأجواء تنتمي للمستقبل أكثر مما كانت تنتمي للحاضر، ولعل هذا ما يفسر الاهتمام الكوني على المستوى الشعبي بها، حتى في داخل إسرائيل ذاتها.

وبغض النظر عن التفاصيل التي يشوبها العديد من الأخطاء في فعل البطولة الفلسطينية المعاصرة، فإن إعلان الفلسطينيين المستمر والدائم عن استمرارهم في ممارسة الحياة بمعناها الحقيقي المرادف للحرية والعيش بكرامة، في إطار الفعل الانتفاضي العام، إنما هو دليلٌ ساطع على أن الشعوب لا يمكنها أن تتحول إلى أكوام من الحجارة اليابسة التي لا نبض فيها.

ولعلّ في صورة الطفل الذي يواجه الدبابة بحجر، ما يلخص كل معنى البطولة الإنسانية، وما يلخص في الوقت ذاته كنه وجوهر الثقافة الإنسانية بأسرها، وما يعتبر

دالاً ومؤشراً إلى ثقافة أخرى مغايرة تفضح كل مستويات الثقافة الرسمية التي تربّعت وتسيّدت هذا المحيط العربي من خليجه إلى محيطه.

وفي إطار البطولة العامة والجمعية يتنوع الأداء الفلسطيني وتتعدد أشكال ممارسته، فالشعب الذي رفض الاستسلام، لا يمارس المقاومة في الشكل الوحيد الذي تتناقله وسائل الإثارة الإعلامية وحسب، لكنه وبالرغم من أزيز الرصاص الذي يملأ المكان، يقاوم ما يفرض عليه من مظاهر القتل بالعرض المسرحي، باللوحة التشكيلية، ثم بإقامة المعارض المختلفة، ليس آخرها بالطبع معرض الكتاب في غزة، الذي يقاوم بإقامته أحد أشكال القتل الاحتلال، متمثلاً بالحصار، وفي هذه الحالة تتلخص معادلة المواجهة بشكل كتاب يقف في وجه طائرة الأباتشي، ذلك أن الوعي ينتصر في النهاية على بربرية القتل وهمجية الاحتلال.

الرواية والمدينة

تمحور أهم ملتقى ثقافي عربي، يعقد في الآونة الأخيرة، حول الرواية والمدينة، والذي كان عنوان مؤتمر الرواية العربية، الذي يعقده المجلس الأعلى للثقافة في مصر الشقيقة، في دورته الثانية التي أسماها دورة إدوارد سعيد تكريما للراحل الكبير.

ويبدو واضحا منذ البداية أن القائم على أعمال المؤتمر الثقافي الهام قد قصد دفع أهم نخبة ثقافية عربية المكونة من النقاد والروائيين العرب، باختياره العنوان المذكور للدخول إلى دائرة الحداثة، للوقوف عند التحول المجتمعي المدني من حيث كونه ديموقراطيا متعددا، يؤطر للحراك الاجتماعي المفارق لسكون القرية ولجملة منظوماتها الاجتماعية، السياسية والفكرية.

وبالعودة إلى جورج لوكاتش الذي اعتبر الرواية ملحمة البرجوازية، في تأكيد إلى البنية المجتمعية الحديثة التي أفرزتها، فإن المنجز الروائي العربي، في الوقت الذي تأثر فيه بحالة التثاقف مع ما أنجزته الرواية الغربية، فإنه عكس بدوره حالة التحول العربي من مجتمع القرية إلى مجتمع المدينة، الذي لم يخل من إعاقة ومن تشوه، من السهل اكتشافهما معا، عند دراسة شكل وطبيعة المدينة العربية من جهة، وعند دراسة الرواية العربية من جهة ثانية.

وهذا ما دفع د.فيصل دراج الذي شارك في أعمال المؤتمر بواحدة من أهم الأبحاث المشاركة،والتي تعرضت عند تقديمه ملخصا لها في الجلسة الأولى التي أعقبت الافتتاح إلى جدل ظهر في عدد من التعقيبات،خاصة وأن الأستاذ دراج لخص ورقته بالقول بأنه لا توجد رواية دون ديمقراطية،كما أنه لا توجد ديمقراطية دون رواية.

ربما كان السبب وراء ذلك، كما ذكر لي الأستاذ دراج هو عدم رغبة العديد من المشاركين التطرق إلى الجانب السياسي، وربما كان ذلك أيضا سببا في أن معظم المشاركات تناولت مستوى واحدا من العلاقة بين المدينة والرواية، هو علاقة النص بالمكان، في حين تم إهمال التطرق للمستوى الأهم وهو علاقة الرواية بالمجتمع المدني/المديني، بما يعنيه ذلك من تناول للعلاقات المجتمعية المعقدة، بما فيها العلاقة السياسية بين الشخوص، حيث لم نسمع على سبيل المثال عن أدب السجون والمعتقلات الذي شكل أحد أهم موضوعات الرواية العربية الحديثة.

الأجواء الاحتفالية للمؤتمر، لم تحجب عنه الأهمية، فهو شكل مناسبة لإحياء الراكد في المشهد الثقافي العربي، وكان حفل الختام بمثابة الذروة الدرامية له، حين ندد الفائز بجائزة الرواية العربية في هذه الدورة الروائي صنع الله إبراهيم بالنظام العربي، وبالنظام العالمي الجديد، وبتهميش النظام الرسمي للثقافة العربية، الأمر الذي دفعه إلى رفض قبول الجائزة احتجاجا على تبعية النظام الرسمي، وعجزه عن التصدي للقضايا الاجتماعية والقومية، هذا الموقف الذي قوبل بحالة من الارتياح العارم، الذي أكد أن المثقف العربي لا زال بخير، ولا زال في الموقع المتقدم، مدافعا عن قضايا الأمة العربية، المنحاز لشعوبها ولحقوقهم الديمقراطية الثابتة.

صنع الله إبراهيم .. لحظة الحقيقة الفارقة

في اللحظة التي صعد فيها صنع الله إبراهيم المنصة التي يقف بجوارها طاقم التحكيم لجائزة الرواية العربية في الدورة الثانية لمؤتمر الرواية الذي يعقده المجلس الأعلى للثقافة المصري كانت عاصفة التصفيق تعلن ترحابها بالتقدير الذي منحته اللجنة الموقرة للروائي الناسك، الذي كانت مسيرته الشخصية مرادفة لمسيرته الروائية، سلسلة من تتابع المواقف الشريفة والمبدئية، رغم كل الانهيارات التي أطاحت بالعرب على مدار العقود الثلاثة الماضية.

وما كان الحضور في الحقيقة يعلمون بان قرار اللجنة المذكور هو النهاية السعيدة فقط لخمسة أيام من التفاعل الثقافي النادر بين تجربة المثقفين العرب، على اختلاف وتباين مواقفهم واتجاهاتهم، وكانت المفاجأة بما عقدة المحتفى به إبراهيم من محاكمة شجاعة وجريئة للنظام العربي الرسمي، خاصة تجاه سياسته الثقافية، وبحضور وزير الثقافة المصري السيد فاروق حسني، الذي أُسقط في يده من جرأة الروائي الذي يقف وراء المنصة.

برفقة الجائزة أعلن صنع الله إبراهيم باسم نفر من المثقفين العرب، إن هناك من لا يغريه بريق النقود، وان لا يبيع موقفة للنظام يحفنه من الدولارات المحولة من البنوك الأمريكية من هناك كان الترحاب الحار بالموقف الشجاع، الذي لم يخل من بطولة، ذلك أن الحضور ارتضى وجود البطل الذي يتلخص فيه الموقف ويعبر عن الجموع.

وبقدر ما عبر موقف صنع الله إبراهيم عن وجود قيمة مبدأيه لم تختف بعد من المشهد الثقافي العربي،بقدر ما يطرح السؤال الأساسي الكامن بضرورة أن يتطور هذا الموقف إلى فصل متواصل يشق طريقا لسياسة ثقافية مثيرة مغايرة عن السياسة الثقافية الملحقة بالسياسة الرسمية.

وقد كان الموقف بحد ذاته مناسبة نادرة لتبادل الأدوار بين السياسي والثقافي، فهذه المرة وضع الثقافي السياسي في خلفية المسرح وأعلن تمرده على التبعية المعتادة له،والتي أصبحت لازمة عربية تؤكد الانحدار ولحظة التداعي التي تعاني منها الشعوب بقدر ما يعاني منها المثقف الشريف،الذي ما زال هو المستهدف من قبل المار ينز الأمريكي،فهو الذي يقاوم التطبيع وهو الذي يتصدى لمجمل سياسة التبعية الرسمية للسياسة الأمريكية في المنطقة.

لعل إبراهيم بموقفه المشار إليه،بعد أن عقد محاكمته للنظام الثقافي العربي،إنما وضع المثقفين أيضا أمام مسئوليتهم التاريخية في لحظة الافتراق العربي،حيث لا بد من تحديد الفواصل بين مثقفي الأنظمة ومثقفي الشعوب،الذين ينحازون لقضاياهم المصيرية،والذين يتحتم عليهم رص صفوفهم في مجاميع فاعلة تعلن ولادة قوة ثقافية هي رافعة ومصد لتيار الانحدار الجارف.

هي بارقة أمل،لا معنى لها ولا أهمية لها تتجاوز معناها المعنوي ودلالتها الأخلاقية،ما لم تتحول إلى فعل متصل ومتواصل،فهل يلتقط الشرفاء من المثقفين العرب وهجها ويعيدون بناء عليهم ترتيب هواجسهم وأفكارهم،ويدركون حجم ما يلقى على كواهلهم من أعباء المسؤولية الوطنية القومية؟

لا خيار ثالثا أمام الجميع،فقد أزفت لحظة الحقيقة،ولم يعد التواري بين الفواصل والحروف وبداعة النص،كافيا لإعفاء أحد من مسؤولية القيام بالواجب الذي طالما عرف المثقف بأنه ضمير الأمة.

ثقافة المقاومة

احتاجت البكائيات الثقافية الفلسطينية التي أعقبت عام النكبة عقداً من السنين، حتى تخلى مكانها الذي احتلته على عرض المشهد الثقافي المحلي لثقافة أخرى، بدأت إرهاصاتها في التمرد على واقع التشرد والاغتصاب، لتدعو إلى ثقافة مغايرة، تحريضية متفائلة، تتطلع إلى المستقبل أكثر مهما تلتفت وراءها.

ثم احتاجت إرهاصات وبواكير التبشير بالتمرد والثورة إلى عقد آخر، حتى ترى واقع الثورة والمقاومة قائماً فعلاً، ليحمل معه ثقافة المقاومة بكل تفاصيلها.

ولم يتطلب أمر انتقال أدب المقاومة من حدود إطاره الفلسطيني إلى الإطار العربي إلى طويل وقت، فبعد أيام معدودة من إلقائه "سجّل أنا عربي" في مهرجان محلي حاشد، كان محمود درويش يجد نفسه محاصراً بمستمعي شعره في القاهرة، والعواصم العربية الأخرى.

ظهور المقاومة الفلسطينية في الواقع إذاً، كان أحد أهم روافع ظهور أدب المقاومة الفلسطينية، اللذين عرّف أحدهما بالآخر، وتداخل معه إلى حدود التكامل والتجانس ربما.

ثم كان لمحاولة النظام العربي صد حالة التوسيع الإسرائيلية عبر ما أسماه بهجوم السلام، وفرض الانكفاء عليها في حدود فلسطين عبر التضحية بها، أثره على تراجع حالة الاهتمام بأدب المقاومة، خاصة بعد أن تحولت المقاومة الفلسطينية بعد بيروت 82 من حالة ثورية إلى حالة سياسية، على طريق التحول بعد عقد من ذلك إلى مشروع سلطة، والآن وبعد أن تأكد أنه حتى السلام نفسه بحاجة إلى ثقافة مغايرة لتحقيقه، تعكس ثقافة الحقيقة الشعبية، وليس ثقافة التزوير الرسمية، ثقافة تفرض على إسرائيل ذاتها أن تغير جلدها وطبيعتها وبعد أن تحلت أمريكا ذاتها إلى دولة احتلال في العراق، فإن الإعلان عن ثقافة لمقاومة شعبية على أساس ديمقراطي أصبح ينطوي على ضرورة في غاية الأهمية، ليس لاستمرار الحياة في الثقافة العربية وحسب، التي باتت تقدم أسوأ طبعاتها، القائلة بنهاية التاريخ، وأن العولمة الأمريكية هي الصفحة الأخيرة لشعر التكوين البشري. بل لاستمرار الحياة الإنسانية في العالم العربي وأربعة أرجاء الكون، حيث تحث البشرية بأسرها إلى التأكيد على ثقافة مقاومة القدر الأمريكي المفروض على الكون بأسره.

ولا يحتاج مثل هذا الإعلان إلى إعمال الذهن طويلاً للبحث في مبررات شق الطريق لهذا التيار الثقافي، عبر صفحات ومحطات التاريخ، أو من خلال رصد الوقائع والمؤشرات التي تؤكد هذه الضرورة، فصورة المقاتل الشعبي الذي ينجح في إسقاط مروحية المار ينز قرب بغداد، وصورة فارس عودة، الطفل الفلسطيني الذي يقف في وجه الميركافا الإسرائيلية، تقدم كلمة السر لثقافة المقاومة، التي فقط تحتاج إلى أن يعلن المثقف العربي خياره وانتماءه لهؤلاء المقاومين الذين يفعلونها في فلسطين والعراق، وفي وجه من؟ أليس في وجه أمريكا القوة العظمى الوحيدة في العالم، وفي وجه إسرائيل أعظم قوة إقليمية، هاتان القوتان اللتان ترعبان كونياً وإقليمياً كل أنظمة التبعية وثقافة التوافق، التعايش والتسليم.

تكنوقراط ثقافي

كان من ردة الفعل التي شهدتها الساحة الثقافية، على جوهر وطبيعة الخطاب الثقافي السبعيني، الذي ارتبط إلى حدود التبعية في الغالب بالخطاب السياسي، والذي كان قد تخطط بدوره إلى حدود الصفاقة مع التوجهات الأيديولوجية الشمولية، أن ظهرت تنظيرات ثقافية ودعوات إبداعية متتابعة، تعلي من شأن التكنيك الإبداعي، وتدعو إلى ضرورة الاهتمام بالشكل الفني، كردة فعلٍ واضحة على غالب المنتج في تلك الحقبة، الذي اهتم بالمضمون على حساب الشكل. وقد أفرطت هذه الدعوات لحدودٍ ظهرت في الأصداء الإبداعية الناجمة عنها، والتي أوغلت في الشكل، ليس إلى حدود إلغاء المضمون وحسب، وتحويل النص إلى نظام كلامي يشبه الطلاسم، ولكن إلى حدود تقديم النص الإبداعي باعتباره فناً، أو كياناً مكتملاً بحد ذاته، يعيد نظام العلاقات الثقافية، بما فيها القارئ أو المتلقي نفسه، ليعاد تشكيله على أساس جديد ومختلف.

أي أنه بالنتيجة وقع البعض في مطب الثورة على طغيان الأيديولوجيا الشمولية، بأيديولوجيا التجربة، أي أنها بالنتيجة في الوقت الذي كانت تتحلل فيه من مبدأ الأيديولوجيا الشمولية، لتخرج من عبء السياسي الشمولي، كانت تضع نفسها في جيب سياسة العولمة، القائمة على التشييء والتبعية لقوى المركز العالمي.

من هذه الزاوية، فإن نظر البعض إلى إخضاع العمل الإبداعي للشروط الفنية والشكلية البحتة، أنتج نصوصاً وأعمالاً خالية من المضمون أو تفتقر إلى المقولة الهادفة اجتماعياً، ما دامت تحقق شروط الحرفة الفنية، أي أنها اكتفت بشروطها الشكلية البحتة.

وقد ظهر هذا الأمر بصورة أكثر جلاء ووضوحاً في الأعمال الجماعية التي أولت قيادة شأنها لمجموعات التقنيين والفنيين والدارسين لأصول الفن الإبداعي، بذلك بات المؤهل الفني أكثر أهمية للحصول على شرعية الإبداع من الموهبة، ومن الوعي اللذين يعتبران ضروريين لاجتراح الإبداع وتوظيفه، وقد اعتمدت هذه الحالة على بقايا العديد من مدارس التجريب والعبث، التي لا ترى في عاملي الفرجة والإمتاع وسيلة، بل غاية فنية.

وقد وصل الأمر إلى تعزيز مكانة صفوف الإبداع التي تخاطب الإيقاع والمتعة البصرية وحتى الحاجة الغريزية، على حساب تلك التي تخاطب الذهن والخيال والعقل.

وفي مقابل الأعمال الإبداعية التقليدية الممهورة بالدسامة، تقدمت الأعمال الخفيفة العاجلة، التي تستوي مع الذائقة العامة، تمشياً مع إيقاع العصر، بعد أن انتفت مهمة تشكيل الذائقة الجديدة، كمهمة فنية، باعتبارها واحدة من أهداف العمل الإبداعي.

بذلك تخلص الثقافة العربية إلى موروثها الذي يمتاز بالحدّية والتطرف، والتي تنتقل من مرحلة لأخرى عبر التحول الدائري وليس الحلزوني، الذي لا يزال يضع العقل العربي في متاهته الأزلية، التي تجعله أسير الهامش التاريخي، غير قادرٍ على مغادرة حدود رد الفعل على فاعلية المركز، وبما يثير الكثير من الأسى والعديد من الأسئلة.

ثقافة الاختلاف

يشير د. محمد جابر الأنصاري إلى ما يتصف به الموروث الثقافي العربي من حدّية تتراوح بين المتناقضين، معتمداً ديوان العرب، أي تراثهم الشعري الذي راوح بين المديح والهجاء، في الوقت الذي كان الوصف، بما يشير إلى التعليل الموضوعي دالاً على عقلانية غائبة. ويعزو بعض النقاد والباحثين غياب المسرح عن التراث الثقافي العربي، كونه فناً ثقافياً، يقوم على دراما التضاد بين المتناقضات، حيث ينبني السرد المسرحي وفق ديالوج الحوار بين الشخوص المختلفة إلى حدود التناقض. في الوقت الذي يأخذ فيه كثير من النقاد على كثير من نصوص الإبداع الروائي، تقديمها للصوت الواحد، الذي يندغم فيه الراوي مع الكاتب مع البطل الواحد، فيما تكون الأصوات كلها أصداءً، تتردد وفق نسقٍ لغوي واحد.

ويدّلل كثير من هؤلاء على مبتدأ التجارب الروائية لدى العديد من الكتاب القائم على تسجيل سيرهم الذاتية، بما يشير إلى ضعف القدرة على استنكاه أو إدراك مكنونات الشخوص الروائية المتعددة، كدليلٍ آخر على عدم القدرة على الإلمام بالتعدد السيكولوجي/ النفسي لمدلولها الواقعي.

وإذا كان مؤتمر الرواية العربية الثاني الذي انعقد في القاهرة في شهر تشرين أول/ أكتوبر الماضي، قد وجه المراجعة النقدية لتناول دلالة علاقة الرواية كمنجز ثقافي حديث بالمجتمع المديني، من حيث كونه مجتمعاً متعدداً، فإنه يمكن القول دون الكثير من المجازفة، بأن نصوصاً روائية عربية وفلسطينية عديدة، قد راوحت بين كونها روايات قروية بهذا المعنى أو ذاك، أو نصوصاً ذهنية، اقترضت واقعاً خيالياً، مدينياً متعدداً مرغوباً فيه أكثر مما هو متحقق في الواقع، أو أنها افترضت شخوصاً شكلتها ذاكرة مغتربة أو ناسخة، أو خيال تشكيلي فيه من الافتراض أكثر ما فيه من الواقعي.

الواقع السياسي لا يبدو أفضل حالاً من الواقع الثقافي من هذه الناحية، فالحديث الدائم عن الوحدة النسقية، والخشية الدائمة من الاختلاف، المنبثقة عن عقلية تفترض في الاختلاف عامل ضعف يهدد وحدة الذات الوطنية أو القومية، يثبت بوضوح أننا ما زلنا أسرى موروثنا القائم على أساس تقديس النص الواحد، وترديد الصوت الواحد.

ولعل غياب التعدد الفقهي وتجاوز التعدد الإثني أو الطائفي، عبر خلق عالم وهمي متحدّ، يتم تجديده باستمرار وفق الطقوس الشعائرية التي تحيل المتعدد إلى أصله الواحد،

وتكريس الوهم بواقع ديكتاتوري غير ديمقراطي، يرتكز إلى حكم الفرد وصوته الوحيد، ما يضع المجتمع العربي برمته، وعلى كافة مستوياته في مأزقٍ حقيقي، في عصر تتداخل فيه القوميات في شبكة العلاقات المركبة، التي تتشكل عبر النظام العالمي الجديد.

وإذا كان التعدد أحد أهم سمات الحداثة، وإذا كانت الديمقراطية هي الإطار الوحيد الممكن لصياغة الاختلاف وتأطير التعدد، فإنه لا مفر أمام الثقافة العربية وبالأخص منه الثقافة السياسية من الإقرار بالاختلاف، الذي يحفظ للأقلية بالذات حرية التعبير والتمثيل، والإقلاع عن سياسة الأتباع القائمة على مبدأ تقديس الصوت الواحد، وإرجاع صداه، حتى يكون بالإمكان الانتقال من الحالة المجتمعية البدائية على الشاكلة القطيعية، للحالة المجتمعية الحديثة، حتى لا نضع أيدينا على قلوبنا خوفاً من انقراض هذه الأمة سياسياً وربما ثقافياً أيضاً.

المسرح المدرسي

يمثل المسرح بالنسبة للشعوب المكافحة من أجل استقلالها وتحررها إطاراً للتعبئة القومية، ومناسبة لمراجعة الواقع المتحرك، وفرصة لرؤية كافة العوامل الفاعلة والمؤثرة المحركة لهذا الواقع والتي بشبكة تداخلاتها فيما بينها تحدد وجهته ومستقبله.

وهو بذلك يختلف عن المسرح العالمي، الذي يعتبر بالأساس حالة لممارسة المتعة الذهنية الجمالية، إضافة إلى كونه إطاراً لمناقشة القضايا الاجتماعية المختلفة، على صعيدي الذات الإنسانية والمجتمعية. لذلك فقد نشأ المسرح القومي في الدول حديثة الاستقلال أو تلك التي على طريقه، على رأس وفي مقدمة الحالة المسرحية. ونشأ المسرح القومي كمسرح للدولة الوطنية أو القومية، يركز في تناوله قضايا المواجهة القومية مع العدو الخارجي، وفي كثير من الأحوال اكتفت حكومات الاستقلال الوطني في سياق سياسة خلق الحالة المسرحية بالمسرح القومي، على قاعدة تأدية هذه المهمة القومية العليا.

لكن مع تقدم المبنى الاجتماعي الداخلي، فإن الحالة المسرحية الناشئة التي اقتصرت على أداء المسارح القومية، سرعان ما عجزت عن تلبية الحاجة المجتمعية لمسرح متعدد الأشكال والاتجاهات والتجارب، وحاولت التجارب المسرحية الشعبية، عبر تشكيل الفرق المختلفة الإجابة على سؤال هذه الحاجة بدرجات متفاوتة.

ومع استمرار تداخل الحاجتين المجتمعية الداخلية والقومية الخارجية، تأكدت الحاجة المستمرة لحالة مسرحية متعددة فاعلة، ليس في إطار النخبة، وليس استجابة للبرنامج الحكومي الرسمي، ولكن أيضاً للحاجة الشعبية العامة، متعددة الاهتمامات والهواجس.

ولعله في هذا السياق تبدو الحاجة إلى الاهتمام بالمسرح المدرسي ورعايته، ذات أولوية خاصة لعدة اعتبارات، لعل أهمها الإخلاص للمستقبل، المنوط بالنشء، حيث يوفر له العمل المسرحي فرصة المشاركة في صنع الحاضر المجتمعي والمستقبل أيضاً، إن لم يكن في الواقع، فعلى الخشبة التي تشبهه.

هذا الاهتمام بالضرورة يتجاوز مجرد الاستجابة للمحاولات المسرحية التي يقوم بها بعض التلاميذ برعاية بعض الأساتذة من المعلمين المختصين، ليبدأ بوضع الخطة والتخطيط المناسبين، على الأساس التربوي التعليمي، الذي يدخل في صميم المنهج

التعليمي، ولا يعتبر حصة الرسم أو الفن وقتاً ترفيهياً زائداً عن المهمة التعليمية، بل جزءاً منها.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى توفير كل المستلزمات الضرورية لنشوء هذه الحالة المسرحية، حتى يتحول المسرح المدرسي إلى احتياطي حقيقي للمسرح الوطني، إن كان على صعيد إمداده بالكفاءات المسرحية المختلفة، أو على صعيد تعزيز الثقافة العامة، التي تعلي من شأن الفعل المسرحي باعتباره فعلاً وطنياً، لا يستوي الجهد الجمعي على طريق التحرر والاستقلال، دون الدخول الفاعل فيه والتقدم به إلى أعلى مستوى ممكن من الجدية والإبداع.

مؤتمر الكتاب العرب

يشكل انعقاد المؤتمر والأدباء العرب كل عامين، مناسبة نادرة للحديث عن الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ذلك أن الاتحاد العربي كان قد تجرأ قبل ثلاث دورات بالاقتراب من هالة القداسة التي تحيط باتحادنا، لمجرد أنه يحمل اسم فلسطين. وقام بتجميد عضويته لسببٍ وجيهٍ أعلنه الاتحاد العربي، وهو إهمال الاتحاد الفلسطيني وتجاوزه للشرط الديمقراطي بعدم عقده مؤتمره العام منذ عام 88. وسببٍ مضمر ادعاه اتحادنا، يسعى إلى إحداث انقلابٍ ذي استهدافات خارجية في قيادته، أو على الأقل شقه لأسبابٍ سياسية.

ورغم أن الديمقراطية داخل الاتحاد، كما هي داخل المجتمع الفلسطيني بأسره، مطلب ومكسب داخلي وطني، فإن تحقيقها وعقد المؤتمر كان من شأنه أن ينزع الحجة التي بدت وجيهة لدى الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والأدباء العرب، لتجاوز المشكلة الناجمة عن تجميد عضوية فلسطين فيه.

لكن هذا السبب وتلك الحاجة الداخلية، رغم انقضاء السنين، التي سبقت القرار العربي والتي تلته، لا يبدوان كافيين للأمانة العامة لاتحادنا الموقر لإعادة الاعتبار الأخلاقي لذاتها أولاً، ولمكانة اتحادنا ثانياً، ولمجمل الثقافة الفلسطينية ثالثاً وليس أخيراً.

تتأكد الحاجة إلى عقد المؤتمر لتحقيق جملة من الأهداف، فهو أولاً يعيد الحيوية لواحدة من أهم أدوات الكفاح الوطني في لحظة مواجهة قاسية، بتنا فيها بأمس الحاجة لفتح جبهة المواجهة الثقافية مع عدوٍ طالما سعى ولا يزال إلى طمس هويتنا الثقافية على طريق مصادرة كافة حقوقنا الوطنية. كذلك يبدو عقد المؤتمر مناسبة للتأكيد على أهمية جمع الشتات الفلسطيني، وتجاوز ما يتشكل من وعي ثقافي اجتزائي، يرى خارطة الوطني مختزلة في خارطة الدولة، ووعي الذات بوعي الكينونة على طريق التحقق.

ويقدم عقد المؤتمر سابقة للاتحاد الأخرى ولمجمل الوعي الفلسطيني العام، الذي بات يضع عن غير وجه حق مطلب الإصلاح الداخلي في إطار اشتراطات الخارج الناجمة عن الصراع السياسي، في تغافل ضار لحقيقة أن تصليب الذات الناجم عن تحقيق الديمقراطية الداخلية هو أهم وصفة لمواجهة السعي الخارجي للاحتواء وإعادة التشكيل.

في الوقت ذاته، يعتبر النجاح في تحقيق معادلة صحيحة لعلاقة الذات الثقافية الفلسطينية بالكل الثقافي العربي، مدخلاً ضرورياً لتدعيم قدرة هذه الذات على المواجهة،

وذلك على اعتبار أن المواجهة الثقافية، لن تنتهي حتى في حال إنجاز حل سياسي وسط مع الآخر. وأن استناد الذات الثقافية الفلسطينية لعمقها الثقافي العربي، يشكل أهم شرط لتحقيق هذه المواجهة، فضلاً عن كسب نتيجتها النهائية.

إن سؤال الديمقراطية الداخلية في الاتحاد العام، الذي وصل أمر استهتار أمانته العامة به، لدرجة عدم عقد اجتماعاتها هي، منذ تشكل السلطة، رغم وربما بسبب تولي أعضائها مسؤوليات حكومية بارزة، يبدو سؤالاً فاضحاً وكاشفاً لعورات أخلاقية، بات يتطلب أن يرفق بسؤال الإصلاح، ولعلّ وعسى أن ينجح تغيير بوصلة الاتجاه من النخبة "المسئولة" إلى العموم "السائل" من الكتاب، في تجاوز قدرة الإنشاء الكلامي على الاستمرار في إعاقة التحول في الواقع، الذي يبقى أكثر أصالة من تشكيلة النص، وحتى لا يتأخر الوقت، بما يجعل من واقعة التحول عملاً صارماً، ينطوي على ما تحمد عقباه، فيما العزاء يكون أن ذلك سيقتصر على سلاطين نصوص البلاغة النقابية، وليس على أحدٍ سواهم.

درويش وأدونيس معا

بعض الذين كشفت عورتهم جرأة الروائي صنع الله إبراهيم، برفضه جائزة الدولة للرواية العربية،أشاروا إلى كونه قد قبل جوائز ثقافية أخرى،يقصدون جائزة سلطان عويس الثقافية،فأجاب دون تردد، بأنها ليست جائزة رسمية،فضلا عن كونها قد منحت لأهم الكتاب والمبدعين العرب،وتشرف عليها لجنة من أهم مثقفيهم وأكثرهم نزاهة.

ومرة أخرى أصاب صنع الله كبد الحقيقة،فجائزة سلطان عويس هي كذلك،وهي فوق ذلك، تثير حفيظة العديد من العاملين في حقل الثقافة العربية لسببين:أولهما،أنها خرجت عن معايير التزلف وشراء ذمم المبدعين من الكتاب العرب،ذلك أنها تقدم لمن حققوا مشروعهم الثقافي،وما عاد بمقدور المال أن يؤثر على وجهة إبداعهم.

وثانيهما،أنها تقدم النموذج لما يجب أن تكون عليه الجوائز الثقافية، من تحرر من معايير الثقافة الرسمية،ومن التوظيف السياسي لها،خاصة وأنها تجئ من أطراف الثقافة

العربية،وليس من أدعياء مراكزها الذين سبق وملأوا الدنيا العربية بخطاباتهم الإنشائية وبلاغتهم القائمة على التضليل.

وإذا كانت جائزة الراحل عويس قد وزعت تقديرها وعرفانها على أهم المبدعين العرب،خلال عقد من السنين مضى،فان السؤال الذي ظل يحوم حولها،ويشير إلى نقص فيها،هو أنها في الوقت الذي منحت فيه جائزة الشعر لشعراء عرب من الصف الاول، منهم عبد المعطي حجازي،عبد الوهاب البياتي،سعدي يوسف،قاسم حداد،إبراهيم نصر الله.فإنها ودون سبب واضح،تأخرت في تقديم نفسها لاثنين من أهم الشعراء العرب المحدثين، نعني بالاسم والتحديد:محمود درويش وأدونيس.

لن نبحث عن أسباب ذلك،فنحن لسنا من أصحاب الجائزة ولا من المقربين منها بأي حال من الأحوال،فربما كان الاحتفاء المستمر بدرويش والترشيح الدائم لأدونيس باتجاه نوبل،كانا بعضا من أسباب التردد من قبل مؤسسة العويس نحو الشاعرين الكبيرين.

في تقديم أسباب منح جائزتها هذا العام لهما معا، يكتشف القارئ مثل هذا الشعور بالتأخر في منح الجائزة،أو في تقديم ذاتها لهما.فهي من جهة تقدمت نحوهما تحت عنوان المنجز الثقافي،أي أنها تقدمت لهما على أساس انهما ليسا شاعرين وحسب،ثم واختصارا لوقتها وربما في محاولة لعدم التأخير مجددا،منحت لهما معا،في نفس العام،لكن ليس على أساس المناصفة.

لا يعتبر ذلك برأينا محاولة من المؤسسة الثقافية العربية المرموقة لمعالجة تأنيب ذات،ربما كان قائما لدى القائمين عليها،بقدر ما يبدو محاولة لوضع الأمور في نصابها،فالرجلان،كل منهما يستحق جائزتها في الشعر،وفي مجمل الإنجاز الثقافي.كذلك منهما يستحقها وحده،ولكن على قدم المساواة مع الآخر

من بغداد إلى الجزائر وتونس:
المقاومة هي العنوان

شكّل مؤتمر اتحاد الكتاب والأدباء العرب الذي انعقد في الجزائر أواخر الشهر الماضي مناسبة لالتقاء هؤلاء الكتاب، ليبحثوا في واقع علاقاتهم الداخلية، التي لا يمكن النظر إليها بمعزل عن شبكة العلاقات السياسية القائمة على المستوى الرسمي، خاصة وأن الاتحادات والروابط القطرية، الأعضاء في الاتحاد القومي، وإن كانت تتمتع بالصفة غير الرسمية، إلاّ أنها في مجملها العام تتقاطع مع نظامها الرسمي، ليس على مستوى أدائها النقابي وحسب، ولكن لجهة تمويل فاعلياتها ومعظم ميزانياتها، وحجم العلاقات الشخصية القائمة بين مسئوليها والمسئولين الرسميين القائمين على رأس وزارات الثقافة.

ورغم أن المؤتمر المذكور عزّز مناسبة عقده، من خلال ما رافقه من ندوات ثقافية، ومن مؤتمر للشعر العربي، إلاّ أنه شهد محاولة من عددٍ من الكتاب العراقيين، الذين حاولوا اقتحام المؤتمر والدخول إلى إطار الاتحاد كممثلين للكتاب العراقيين، في البلد العربي الذي صار ممثلاً منذ نيسان الماضي.

والمعروف أن دورة المؤتمر السابقة، كانت قد رعتها بغداد، التي تجاوزت التقليد المعروف في دوراته السابقة، والمتمثل في أن تكون العاصمة العربية التي ترعاه هي رئيس الدوري، فأبقت على د. علي عقلة عرسان، أمين عام الاتحاد في دورة دمشق السابقة على دورة بغداد، أميناً عاماً للاتحاد العربي، نظراً للدور الذي يلعبه الرجل على صعيد تفعيل هذا الاتحاد باعتباره أحد آخر الأطر القومية، التي ما زالت تحرص على جمع الصف العربي. ونظراً لمكانة دمشق عموماً في هذا الاتجاه.

بذلك فإن عنوان اتحاد الكتاب العراقيين هو واضح تماماً ومعلوم جيداً للأمين العام وللأمانة العامة لاتحاد الكتاب والأدباء العرب، الذي حضّر لمؤتمر الجزائر باجتماع عقد في القاهرة، اتخذ قراراً واضحاً بخصوص التمثيل العراقي، الذي تعذّر بسبب كون أعضاء الهيئة الإدارية لاتحاد الكتاب العراقي ملاحقين أو غير قادرين على السفر إلى الجزائر.

النفر الذي سافر إلى الجزائر، والذي يتبع مجلس الحكم الانتقالي، الذي يتلقى تعليماته من الحاكم المدني الأمريكي، ندّد برفض المؤتمر أن يمثل الكتاب العراقيين في الإطار العربي وأصدر بياناً اعتبر فيه الأمة العربية أمة تضحك عليها الأمم. وهو بقدر

ما يكشف بذلك عن طبيعته وجوهره، فإنه يشير إلى ما سيواجه القمة العربية في تونس التي ستعقد في آذار المقبل، من سؤال قد يحدّد وجهة الجامعة العربية بأسرها.

فإذا كان من الممكن أن يمثّل مجلس حكم يديره الأمريكي بول بر يمر الشعب العراقي في الإطار العربي، فان ذلك يعني بأن هذا الإطار قد تحول إلى واجهة سياسية للأمريكيين، في حين أن الموقف الذي اتخذه اتحاد الكتاب العرب في الجزائر هو بمثابة أضعف الإيمان، ذلك أن الموقف الصحيح هو أن تمثل المقاومة العراقية، وليس مجلس الحكم العميل، العراق وشعبه، كما أن الكتاب العراقيين يمثلهم كتاب المقاومة الذين يناضلون من أجل تحرير بلدهم من الاحتلال الأمريكي.

شـرفة... عبد الرحمن منيف

برحيل الروائي العربي الكبير، عبد الرحمن منيف، تكون الثقافة العربية قد فقدت واحداً من أهم رموزها المعاصرة، وأحد أهم روائييها على الإطلاق، والذي إذا ما استثنينا نجيب محفوظ، يكاد يكون هو الأبرز في المكانة والقيمة إلى جانب الانتشار والقراءة.

فمنيف الذي بدأ الكتابة الروائية بعد الأربعين من عمره، بدأ كبيراً، ومنذ "الأشجار واغتيال مرزوق" احتل مكانته بين الروائيين العرب، حتى وصل ذروته في ملحمته، روايته الكبيرة خماسية "مدن الملح" التي تعتبر أكبر وأهم عمل روائي عربي، يوازي في مكانته وأهميته ثلاثية محفوظ.

ولقد مثّل في حياته الشخصية والروائية نموذجاً للمثقف العروبي، معبّراً عن توق الجموع من الخليج إلى المحيط بالوحدة، ولعلّه، وهو ابن لسعودي وعراقية، المولود في عمّان، ثم التنقل بين أكثر من عاصمة عربية، قد قدّم صورة عن المواطن العروبي المفترض، والمتشكل في الخيال الروائي، الذي يجتاز حدود القطرية العربية المصطنعة، ولعل هذا كان أحد عوامل قراءته من قبل القراء العرب، دون اعتبار للحدود/ الفواصل بين الأقطار العربية. ولعله بذلك كان يقدم لحراس النظام القُطري ما يبرر لهم إسقاط جنسيتهم عنه، لتغدو "كل قلوب الناس جنسيته" كما يشدو مارسيل خليفة.

كان الوعي الروائي لمنيف إذاً نظاماً كاملاً للوعي، الذي يدخل في نسيج الأعصاب، كما يتخلل ثنايا المخيلة، وهكذا كان عالمه الروائي، عالماً منسوجاً على طباقٍ مع الواقع، لذلك كانت لغته إضافة حقيقية إلى اللغة، لغة وسيطة بين المعجم والدارج، وربما كان ذلك أحد عوامل انتشار رواياته بين الناس.

ولم يكن فعله الروائي جهداً غير مسؤول، فهو اخترق عالم المسكوت عنه سياسياً، في الوقت الذي كانت تتدعم فيه ركائز النظام القُطري على أساسات أجهزة الأمن البوليسية، التي تلاحق نخب الوعي والتحرر والتجزئة.

يرحل منيف في هذه اللحظة ويترك وراءه إرثاً روائياً عظيماً، كل الخشية أن يتحول الموت الطبيعي إلى موت هذا النموذج من المثقف العربي، وأن يمثل فرصة لأن تحتل الثقافة الخفيفة والعابرة أركان المشهد الثقافي، كما حدث بعد رحيل عبد الوهاب، أم كلثوم وعبد الحليم حافظ. ذلك أن المأزق العربي يكمن في إحالة عادية الطبيعة، المتمثلة في جدل الحياة والموت، إلى موت المجاز نفسه.

ولعل الأسف الحقيقي الذي ينتابنا في هذه اللحظة، إنما يتصل بمدى ردّ الفعل تجاه غياب قامة بحجم عبد الرحمن منيف، فلو كان الزمان غير الزمان، لخرجت الناس، كما فعلت – على الأقل في صفوف الكتاب والأدباء – يوم غاب عبد الناصر، وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ. لكن المفارقة المؤسية ستظل رغم أنوفنا تشير إلى أن ثقافة عامة تسود الآن، ستظهر من ردود الفعل على غياب مطربة عابرة، بأكثر ما تظهره تجاه غياب روائي عظيم، رغم ذلك فإن العزاء يبقى طيَّ صفحات التاريخ، التي لابد أن تفرد المكانة اللائقة بالراحل الكبير، رغم أنف كبوتنا العابرة، المتمثلة باللحظة الراهنة.

مقالات نشرت باللغة الأنجليزية

في أسبوعية فلسطين الديمقراطية

إشارات متزمتة

رغم تراجع وزير التربية والتعليم الفلسطيني عن القرار الذي اتخذته وزارته بحظر وأتلاف كتاب"قول يا طير " التراثي، إلا أن دلالات وإشارات الحادثة، ستبقى ماثلة أمام العديد منالعاملين في الحقل الثقافي، على وجه الخصوص، ويجب أن يتم الوقوف أمامها، ليس باعتبارهاحدثا عابرا، بل إشارة قوية، على قوة التزمت التي تتربص بحرية التعبير، وتنتظر الفرصة المناسبةللارتداد بالمجتمع الفلسطيني سنوات طويلة إلى الوراء.

ولو لم يواجه قرار وزير التربية آنف الذكر، برد فعل قوي، لكان قد مر بسهولة ويسر، وكانشجع ليس الوزير المذكور وحسب، بل وعددا من وزراء الحكومة الذين ينتمون إلى اليمين الفلسطيني المتشدد، للأقدام على قرارات مشابهة، مس الحريات العامة، الخاصة بالتعبير والمساواة بين الجنسين وعدم التمييز بين الديانات. وما حققته بعض القطاعات من إنجازات مدنيةخاصة قطاعي المرأة والشباب.

هناك أكثر من سبب يدعونا، بأن انشغال حكومة حماس، خلال عام مضى على توليها الحكم،بقضايا الحصار، وعدم التمكن من الحكم حيث ووجهت بمعارضة داخلية وخارجية، منعتها وبحكم فقدانها أغلبيتها البرلمانية، جراء اعتقال العشرات من نوابها من قبل الجيش الإسرائيليمن الإقدام على سن عدد من القوانين الداخليةالمضادة للحريات العامة، والتي

يمكن ان تمس بشكلخطير بحقوق الأفراد، انسجاما مع أفكارها السلفية.

وحتى حين كانت حركة حماس في المعارضة، خاضت معارضة شديدة ضد إقرار قانون الأحوال الشخصية، عند مناقشته في المجلس التشريعي، فيماما زال دعاتها يقودون حملة عشواء ضد بعض مظاهر الحياة المدنية، تحت ذريعة أنها علمانية/ وصفية،تتنافى والقانون الإلهي، الذي تدعو عبره إلى حكم الشعب.

وهناك أكثر من مره أفصح فيها أكثر من وزير ومن مسؤول في الحكومة المستقيلة، تم الأعراب فيها عن الرغبة في الارتداد بمظاهر الحياة العامة، وفرض بعض المظاهر

الطالبانية المتزمتة، ولعل تصريحات وزير الثقافة، بعد أيام من توليه مسؤولية وزارته، تجاه المهرجانات الثقافية، وتصوره لسياسة وزارته خير دليل على ما نذهب إليه.

صحيح أن حكومة جديدة، بصدد التشكيل، لكن استنادا إلى وجود قاعدة برلمانية ذات أغلبية كبيرة، يمينية، محافظة، فإنه من المتوقع أن ينشط نواب اليمين واليمين المتشدد إلى محاولة إصدار القوانين المحافظة، التي يمكن في حال إقرارها أن تزيد من قمع الحريات العامة، خاصة وأن عددا من المجموعات الميدانية المسلحة، تؤمن بدورها ببعض الأفكار الطالبانية، لدرجة أن بعضها يمارس العنف ضد عدد من المراكز الثقافية، التي يرى فيها هذا البعض "انحرافا" عن أفكاره السلفية.

وإذا كان وزير مثقف كوزير التربية والتعليم قد تجرأ على كتاب أكاديمي يتمتع بمكانة أكاديمية مرموقة، من مستوى " قول يا طير " فإن وزراء ومسؤولين وقاده ميدانين آخر، أقل ثقافة وحكمة ووعيا، يمكن أن يرتكبوا خطايا وجرائم، ليس بحق الثقافة الفلسطينية وحسب، بل وفي حق الإنسان نفسه، الأمر الذي يستوجب أن تبقى مجموعات الضغط من المثقفين، الكتاب، والأكاديميين، منظمات المجتمع المدني، على أهبة الاستعداد، لمواجهة نزعة التزمت التي تؤمن بها قوة سياسية ومجتمعية أساسيه في المجتمع الفلسطيني.

الاقتتال الداخلي
حرب ألعاب نارية

رغم أن الاتفاق في مكة قد وضع حدا مؤقتا على الأقل للاقتتال الفلسطيني الداخلي، إلا أنه من الخطورة بمكان أن يستمر الفرقاء بالاستناد إلى التوافق السياسي، كضمانة وحيدة لمنع الاقتتال، واستخدام العنف والقوة لفرض سلطة طرف على آخر، أو على كل الأطراف والأفراد، بما يوحي بالسير على طريق معاكس للديمقراطية.

لا بد من أن يتوقف المعنيون والمهتمون إزاء المخاطر التي ينطوي عليها امتلاك الفصائل السياسية المتباينة فيما بينها تنظيميا وسياسيا، للسلاح، خاصة في قطاع غزة، لأسباب عديدة، أهمها أن القطاع خال تقريبا من الاحتلال ومنها الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة التي يعيشها قطاع غزة بالذات.

وحيث أن ممارسة " المقاومة " خلال بضع سنوات مضت قد أعلت من قيمة المقاومة ونزهتها عن الشبهات، حتى تحول حملالسلاح إلى مصدر للاعتزاز لدى القطاعات الشابة، وحتى انتشرت الظاهرة، لتدمغ المجتمع بآسره تقريبا –بالعسكرة – فقد كان ذلك على حساب ثقافة المجتمع المدني،والعمل في إطار المؤسسات المدنية، والاحتكام للديمقراطية في معالجة الخلافات المتعددة.

وفي منطقة ضيقة كقطاع غزة، الذي عاش خلال السنوات الماضية حالة من العزلة بسبب الإغلاق المستمر لهعن محيطه الخارجي، فإن حالة من الضيق انتابت السكان، خاصة الشباب، والتي تحولت مع الوقت إلىاستعداد تلقائي لممارسة العنف، بما يؤهل الكثيرين، مع انتشار السلاح إلى ممارسة القتل بسهولة، خاصة وأنذلك لا تترتب عليه أية إجراءات قضائية بسبب غياب سلطة القانون والقضاء.وتساعد البطالة المتفشية والمتزايدةعلى انخراط الشباب في صفوف المجموعات المسلحة، حيث بات الانضمام لهذه المجموعات طريقا للارتزاق، بعد انسداد أفق الحصول على عمل يوفر القوت اليومي، ويؤمن طموحات الشباب المشروعة، وهذا ما بدا واضحا مناستعداد الآلاف للانخراط في صفوف القوة التنفيذية، التي كانت طرفا في الاشتباكات، بدل أن تكون قوة لفرضسيادة القانون.

وفي ظل انتشار حالة الإحباط العام، ووسائل الاتصال بالخارج، حيث يسهل وصول أخبار مجموعات العنف في أكثر من مكان بمنطقة الشرق الأوسط، فقد وجدت ظاهرة

انتشار المجموعات المسلحة ما يسندها وما يعزز نشوءها،ووجدت في انتشار أيديولوجيا أصولية، بديلا يعوض انتفاء الحاجة إلى المقاومة (خصوصا في قطاع غزة) وهذا يفسر تحول العديد من هذه المجموعات إلى الفكر السلفي، وما يتبع ذلك من تغيير في الهدف، المراد تحقيقه من تشكيلها، من مواجهة الاحتلال، إلى إصلاح المجتمع الكافر!

وفي استعراض سريع لغالبية عناصر هذه المجموعات، نجد أنها تتكون من الشباب الذي إما يترك مقاعد الدراسة، أو يكون قد تركها أصلا، حيث تستعيض هذه المجموعات في ببنيتها التنظيمية الداخلية، عنصر الإقناع الفكري والسياسي بعنصر الإيمان بأفكار مطلقة، بما يؤهلها للاستعداد إلى حسم خلافها مع الآخرين بالقوة المسلحة.

ولم تكن والحالة هذه لعبة الحياة والموت، لدى الكثير من الشباب الذين يمارسونها أكثر من ملهاة، تفسر الاستعداد الكبير لممارسة القتل، دون تردد أو تفكير، وكأن الشباب الصغار المسلحين، قد استعاضوا عن الملاعب والنوادي، بدائرة النار، بعد أن تم إقناعهم بالجنة كمكافأة عما يفعلون.

وكما أنه لا تستوي جهود إقامة الديمقراطية في مجتمع مسلح، فانه لا يمكن النجاح في نزع الاستعداد لممارسة العنف لدى الشباب، دون القيام بجهود متعددة المستويات لتغيير مناخات الحياة من حولهم، بحيث تصبح أكثر أملا وتنطوي على الرغبة بالحياة، ونزع كل الأسباب إلى تدعو إلى هذا الشكل من الانتحار الجماعي، الذي تسهله ما تحيط بممارسته من قيم تعده شكلا من أشكال البطولة.

لا بد من التفكير ببرامج تشغيل اقتصادية، وتوفير فرص العمل للشباب خاصة، ولا بد من تشجيع ممارسة الحياة المدنية، وكل ما يملأ حياة الشباب ويستجيب لطاقاتهم في تكوين الذات وتشكيلها، بالترافق مع فرض سيادة القانون وتفعيل مؤسسات المجتمع المدني، وعلى المستويين الرسمي والشعبي.

الإنترنت .. انفتاح على كل الاتجاهات

وفر ظهور شبكة الاتصالات الإلكترونية (الإنترنت)، لعموم البشر، فرصة ما كانت متحققة، من قبل، وهي الاتصال السريع والمباشر والرخيص، في وقت واحد. وتحقق ذلك من خلال برامج المحادثات الفورية، حيث صار بإمكان الناس، أفرادا، وجماعات، أن يتصلوا بسهولة بالغة فيما بينهم، وان يتعرفوا إلى أناس عديدين، ما كان بمقدورهم أن يتعرفوا إليهم من قبل.

وإذا كان ظهور هذا الأمر قد طور من حالة طبيعية بالنسبة لمواطنين يعيشون في مجتمعات حديثة، ومنفتحة فيما بينها وبين المجتمعات الأخرى، فانه شكل بالنسبة إلى المجتمعات المغلقة حدثا استثنائيا جدا، وهذا يفسر مستوى التعاطي الواسع معه، رغم شح الإمكانات، التي تحول دون أن يكون في كل بيت، بل ولدى كل شخص جهاز كمبيوتر.

وفي المناطق الفلسطينية التي تعتبر من أكثر المناطق توترا في العالم، ومن أكثرها عرضة للعزلة والإغلاق، انتشرت ظاهرة استخدام الإنترنت مع مطلع الألفية الثالثة، والتي جاءت متزامنة مع حلقة جديدة من المجابهة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، والتي كان من نتيجتها إغلاق مستمر لهذه المناطق، وعزلها بشكل شبه تام عن العالم الخارجي.

وهكذا كان استخدام الإنترنت بالنسبة لسكان المناطق في قطاع غزة والضفة الغربية، يمثل فرصة للخروج، بحدود ما، من حالة العزلة، واجتيازا لعديد من مستويات الإغلاق، ومعالجة لما ينجم عنها من إحساس بالضيق والفراغ. لذا فقد انتشرت سريعا مقاهي الإنترنت في الضفة والقطاع. وتزايدت أعداد المتعاملين معها، كما ازداد عدد من يقتنون أجهزة الكمبيوتر في بيوتهم وفي أماكن عملهم.

وشكّل استخدام الشبكة الإلكترونية فرصة لمئات الآلاف من الشباب، خاصة، للبحث عن مخارج يواجهون بها حالة العزلة التي يعانون من نتائجها، على أكثر من مستوى، فقاموا بإطلاق عشرات المواقع الخاصة والجماعية.وبدءوا عبرها يتناقشون في همومهم ومشاكلهم، ويتداولون الأفكار السياسية والاجتماعية وغيرها، ويقيمون العلاقات فيما بينهم وبين الآخرين في شتى أنحاء العالم.

وأية إطلالة سريعة على الشبكة تظهر جليا فاعلية الشباب الفلسطيني، من سكان الضفة والقطاع، إن كان في إطار المواقع الخاصة بهم الثقافية والإعلامية، والتي يعتبر بعضها، من أكثر المواقع الناطقة بالعربية، انتشارا. أو من خلال المواقع العربية،

الثقافية، خاصة، وكذلك المنتديات، حيث ينشط المثقفون الشبان، من فلسطيني الضفة والقطاع، فيها، بشكل واضح.

وحيث أن تداول الأفكار يتم عبر الشبكة الإلكترونية بحرية ودون رقابة تقريبا. فانه صار بإمكان الشباب أن يتداولوا بانفتاح وجهات النظر حول موضوعات كانت محرمة. وما كان يمكن للأجيال السابقة أن تناقشها بجرأة، أو بهذا القدر من الحرية، مثل: الجنس والدين والسياسة. خصوصا وان شبكة الاتصال تتيح في الوقت نفسه المجال للاطلاع، عبر المواقع، على المادة المعرفية والمعلومات المتعلقة بهذه الموضوعات.

زمن خلال الشبكة والاتصال السهل والسريع، أمكن للناس الاطلاع على ما يحدث وبالتفاصيل في دول الجوار وفي العالم، وان يعرفوا تفاصيل ما يحدث من مشكلات سياسية واجتماعية، في منطقة مضطربة ومشحونة بالتوترات، والاختلافات الناجمة عن مشكلات سياسة، مذهبية وعرقية متعددة.

مع الوقت تتشكل ارتباطا بهذه الحالة، ثقافة جديدة، ثقافة شات، تقوم على البوح المباشر، دون تحفظ، وعلى تبادل الرأي بحرية. لكنها في الوقت نفسه تنطوي على قدر من المواربة والمراوغة، حيث بمقدور أي شخص أن يتخفى من خلال برامج المحادثة، وراء قناع يخفي به شخصيته الحقيقة، وهذا يظهر في المنطقة العربية بوضوح.

ولم يوفر استخدام الشبكة الإلكترونية فرصة الاتصال والتواصل بين المواطنين العرب، الناطقين بالعربية فقط. بل وبينهم وبين الناطقين بها من العرب الذين يعيشون في دول أخرى، مما فرض مستوى مباشرا من اللغة التي اقتربت من حدود العامية، الدارجة والمتداولة بين العامة من الناس. وهذا يظهر في الكتابات الأدبية التي تظهر عبر المواقع الثقافية والمنتديات العامة.

كذلك توفرت الفرصة للاتصال مع مواطنين أجانب، عبر استخدام لغة ثالثة، هي الإنجليزية، وهنا أيضا يتم استخدام هذه اللغة على درجة من الركاكة التي تتناسب مع أناس لا يتقنونها بشكل جيد، ووفق مصطلحات مختصرة، تحول الحروف إلى أرقام، بما يتوافق ومتطلبات التقنية والسرعة، إن كان عبر استخدام (المايك) أو الكيبورد.

أما على مستوى التوظيف، فانه ينجم عن حالة الاتصال السهل والمباشر، تشكيل جماعات، كان تشكيلها ارتباطا بالحالة المحلية يحتاج وقتا. لذا فانه يمكن القول بأنه إذا كان انتشار الشبكة الإلكترونية قد عزز من انتشار العولمة ببعديها الاجتماعي والثقافي بين البشر، فإنها أيضا سهلت من تشكيل القوى المناهضة لها، والمتعاكسة معها والفاعلة

ضدها، من الجماعات المختلفة، بمن فيها المتطرفة، التي تستثمر الشبكة في نشر أفكارها، وفي الاتصال بعناصر جديدة في الأماكن المختلفة.

لذا فقد كانت مقاهي الإنترنت، خاصة، في قطاع غزة، هدفا للجماعات المتشددة، وهي تعلن عن نفسها في القطاع المكتظ بالسكان، تحت ذرائع مختلفة، لكنها في الجوهر،تحاول أن تعيد إغلاق القطاع على ساكنيه، ومنع فرصة مليون ونصف من السكان، في الاتصال الخارجي، بعد أن وجدوا أنفسهم محبوسين في الشريط الجغرافي الضيق، منذ ست سنوات، لا سبيل أمامهم سوى الاتصال عبر الشبكة العنكبوتية. وبهذا يمكن تفسير الوجهين المتناقضين للرد على حالة العزلة: ظاهرة التطرف، عبر الجماعات المتشددة. والاستعداد العالي للهجرة، اللتين تغزوان صفوف الشباب الفلسطيني في هذه الآونة.

الثقافة الفصائلية
ارث يثقل كاهل الديمقراطية

عرف الفلسطينيون ما يمكن وصفه بالثقافة الفصائلية، بعد نشوء فصائل العمل الوطني، قبل أربعة عقود من الآن، على قاعدة العمل العسكري المسلح، الذي وان كان قد استند إلى ما بشر به بعض الكتاب والمثقفين والمفكرين من ثقافة للمقاومة، إلا أن ما أشاعه وجود الفصائل، كمجموعات متجاورة، متوازية، سرعان ما ذهب بهذه الثقافة إلى مسار يفترق إلى حدود واضحة عن ثقافة المقاومة.

فبقدر ما كانت ثقافة المقاومة تجمع وتوحد مفرداتها، بقدر ما كانت الثقافة الفصائلية تباعد بينها، على أساس أنها تعلي من شأن الجماعة السياسية، في إطار من التنافس، الذي كان يجري خارج إطار البنية المجتمعية، فلا يحتكم إليها، كون هذه الظاهرة قد نشأت أصلا في المنفى أولا، وخارج إطار البينة المجتمعية حتى تلك التي في خارج الوطن، حيث كان الأفراد ينطوون تحت رايات الفصائل، يذهبون إليها، ليخرجوا عن إطار الصيرورة المجتمعية.

وهي ثقافة تختلف عن الثقافة الحزبية، وان كانت قد تقاطعت مع بعض سماتها، فإذا كانت الأولى ترتبط بوجود مجتمع مدني، وتتشكل ارتباطا بأحزاب مقننة، محكومة في أدائها لأنظمة ودساتير دولة حديثة. فان الثقافة الفصائلية ارتبطت بظهور فصائل عمل مسلح، كان يكفي لتشكيلها أن تتلقى مجموعة قليلة العدد من الرجال الذين يحملون السلاح، ليقوموا بتنفيذ العمليات الفدائية، ومن ثم يبحثون عن مصادر تمويل من هنا وهناك ليقيموا تنظيماتهم العسكرية/ السياسية.

وإذا كان الأساس الذي تقوم عليه الأحزاب السياسية هو أساس مدني/ مجتمعي، فإن الأساس الذي قامت عليه الفصائل كان الانخراط في العمل الفدائي أو المقاوم، بمعناه الواسع غير المحدد. وهكذا أعلت الثقافة الفصائلية من شأن العمل العنفي، واستندت إلى " شرعية ثورية " وفكر أيديولوجي، شمولي في اغلبه، أكثر مما استندت إلى فكر مدني، أو إلى شرعية انتخابية ديمقراطية.

وكان الشعار الناظم لهذه الثقافة هو الكفاح المسلح أرقى أشكال الكفاح، لذا فإن هذه الثقافة قامت بقصر الوعي ضمن توظيفاتها المحددة التي تؤكد سيادتها وغلبتها، بل وقامت لاحقا بإعادة ترتيب هيكل الإدارة السياسية، على هذا النحو، حين تم تشكيل

المنظمات والاتحادات الشعبية، ضمن الإطار العام لهذه الثقافة، على أساس من المحاصصة بين الفصائل السياسية. أي انه بدل أن يكون المبنى السياسي العام، قائما على أساس ترتيب أوضاع المجتمع البشري، فانه تمت محاولة ترتيب هذا المجتمع وفق هذه الصيغة المحددة سلفا.

كما أن هذه الثقافة نشأت كثقافة أبوية/بطريركية تحمل السمات الشخصية لمؤسسها الذي يتحول بعد التأسيسإلى أمين عام، تؤمن بأفكاره ومعتقداته، وتظل محكومة له طوال حياته، حيث يبقى في " منصبه " حتى يموت، وفي كثير من الأحيان يذوي الفصيل أو ينتهي بانتهاء حياة أمينه العام. وهذا ما حال دون التجديد الفكري والتنظيمي لمعظم الفصائل الفلسطينية، ووقف حجر عثرة دون تحولها، أو استجابتها للتحولات الإقليمية والدولية السياسية والفكرية.

ولعل أول واهم معضلة واجهتها هذه الثقافة، تمثلت في محاولتها إقامة أول سلطة لادارة شؤون جزء من المجتمع الفلسطيني، بعد اتفاقات أوسلو، ورغم أن هذه المحاولة بدأت بإجراء أول انتخابات عامة تشريعية مطلع العام 96، إلا أن فرقاء السياسة تعاملوا مع هذا الاستحقاق وفق هذه الثقافة المتوارثة منذ ما بعد عام 67. وجرت الانتخابات تلك، وحتى الانتخابات التالية التي شاركوا فيها جميعا، ضمن الإطار المشار إليه. أي أن الفصائل تقدمت إلى الانتخابات، وهي ذاتها تنظيمات سياسية غير مرخصة، لا تخضع لرقابة أو متابعة قانون الأحزاب الذي بقي حبرا على ورق.

ورغم أن الحالة الفصائلية شهدت تعددا، إلا أن الثقافة المرتبطة بها، لم تكن ثقافة ديمقراطية حقيقية، لذا كان يتم دائما الاستناد إلى معادلة الإجماع، وتنحية ثقافة التداول الديمقراطية. وكان يكفي لفصيل أن يفرض وجهة نظره " بالقوة "، عبر إطلاق النار على الجانب الآخر، أو التهديد بالحرب الداخلية، دون التزام باتفاقيات عقدتها مرجعية الفصائل السياسية وسلطنها الناشئة، أو الاحتكام إلى معادلة الأكثرية والأقلية.

وهكذا فإن استمرار هذه الثقافة بالتأثير الحاسم على السياسة العامة، يعتبر أحد أهم أسباب مأزق السلطة الحالي، فلو أن الخلاف كان يدور ضمن إطار الالتزام الديمقراطي، ولو أن فرقاء السياسة كانوا أحزابا مدنية، غير مسلحة، لحل الخلاف بالطرق الديمقراطية، في إطار المؤسسة البرلمانية، وحتى القضائية. لكن العملية الديمقراطية تواجه مخاطر إجهاضها، حين يلوح الفرقاء بالاحتكام إلى السلاح الذي يجعل من التنظيمات فصائل مسلحة.

إن وجود الحالة الفلسطينية تحت الاحتلال، ومتطلبات تطورها الاجتماعي، يعتبر أرضية لبقاء هذه الحالة، التي تأكدت عبر أربعة عقود من العمل السياسي والثقافي الذي ارتبط به، بعد أن أنتج الفدائيون أدبا فصائليا، حدد سمات تلك المرحلة. لكن المعضلة أصبحت أكثر تعقيدا، حين انتقلت الحالة إلى داخل الوطن الفلسطيني، حيث باتت هذه الفصائل مسئولة أو متحكمة بالحياة المجتمعية لما يقارب من أربعة ملايين مواطن، يتطلعون إلى التطور الطبيعي.

الديمقراطية على الطريقة الشرقية

يحتال العقل الكسول على أسئلة العصر بإجابات من الماضي، بعد أن يعيد إنتاجها، ومن ثم إخراجها في أشكال جديدة، دون أن يطلق العنان للانفتاح، بحيث تستولد الأسئلة أجوبتها من جنين زمانها ومن نطاق زمانها وعصرها.

وفي معرض الرد على سؤال الديمقراطية يستل بعض العرب من جراب الموروث حزمة الشورى، حيث مجلس "العقلاء" وكبار القوم من رؤوس العشائر والمخاتير الذين سبق ولهم وقدموا البيعة للحاكم المطلق فلا تتجاوز فهمهم أكثر من تقديم النصح للسلطان!

أما الأنظمة الأكثر حداثة، فتحصر الديمقراطية السياسية في اجراء الاستفتاء على الرئيس، الذي ينتخب في ظل انعدام المنافسة الحقيقية، وفق نسب خيالية، تبدو معها المناسبة ليست أكثر من احتفال كرنفالي بمنح الحاكم الصلاحيات المطلقة، دون الالتزام ببرنامج أو دون الاحتكام إلى مؤسسات رقابية.

وتأخذ الثقافة الشرقية من الديمقراطية مبدأ خضوع الأقلية لإرادة الأغلبية، مع أن الأغلبية لها سطوتها في المجتمع والدولة، ومع أن الجوهر الحقيقي للديمقراطية، هو ضمان حقوق الأقليات في التعبير عن نفسها وفي ممارسة حقوقها بحرية دونما قهر أو اضطهاد.

ولا يتوقف الأمر عند حدود العلاقة السياسية بين أفراد المجتمع، بل إن الأمر ينسحب على مجمل العلاقات الأخرى، بين الأفراد في الأسرة، وفي المجتمع، في أماكن العمل، وفي الشارع، وعلى كافة المستويات.

وتنجم عن هذا النظام علاقات مشوهة، تكون سببا في إعاقة التطور، وفي كبت ملكات الفرد، وقدرته على الإبداع، ويظهر هذا في حجم المكبوت، لدى شرائح المجتمع الشعبية، ويطال الفئات المهمشة والضعيفة،خاصة قطاعات النساء والأطفال والفقراء.

فيضعف الإنتاج، ويثقل كاهل الفرد، وتنتشر حالة من الكسل الفكري والثقافي، في الوقت الذي تنحصرفيه ممارسة الديمقراطية في أضيق الحدود، وتتوقف عند القشور وعلى السطح، وتكاد لا تتجاوز مناسبة الانتخابات، التي لا تستكمل من حيث هي مفهوم بالتفويض، الذي لا بد أن يخضع للرقابة والمحاسبة الدائمة والمستمرة.

وتحدد الثقافة الموروثة إضافة إلى النظام العام الآليات التي تحد أركانها من خيارات الأفراد، عند الاختيار بين المرشحين، الذين تتيح لهم ثقافة الاستناد إلى ارث ديمقراطي، القيام بخديعة الناخبين، من خلال إطلاق الوعود والشعارات، دون أن تعني البرامج التزاما محددا وصريحا بالتنفيذ في حال الفوز.

والديمقراطية على الطريقة الشرقية، قلما تشهد تداولا حقيقيا للسلطة، لأنها لا تستند إلى مؤسسات سيدة، محكومة بالعقد الاجتماعي العام (الدستور)، بل إن المؤسسات ذاتها تتشكل من أجل خدمة نظام الفرد، وتتحول مع الوقت إلى أدوات إن لم تقمع الأفراد، فإنها تقوم بتجهيلهم حول حقوقهم، وكيفية ممارستها والدفاع عنها.

وحيث أن الديمقراطية والحالة هذه، تعجز عن تحقيق ممارسة شعبية حقيقية مشاركة في الحكم، فإن تراكم الشعور بالغبن، يدفع أفراد المجتمع في فترات متتالية، إلى الارتفاع بوتيرة الاحتجاج على السياسة الحكومية، بما يصل بالأمر أحيانا إلى ممارسة العنف، كرد فعل على ما يشعر به الأفراد من إهمال وتهميش لظروف حياتهم وتطلعاتهم الطبيعية في التقدم والتطور.

وهذا يفرض قدرا من الحدية، التي تعود لظروف اجتماعية تختلط بشكل العلاقة بين الأفراد والسلطة السياسية ولا تعود بتقديرنا إلى مزاج خاص بالشرقيين أو إلى سمة شرقية مستبدة، بقدر ما تعود إلى ارث استبدادي، مارسته أنظمة الحكم في الشرق عموما، على مدار السنين الطويلة الماضية.

العرب: أمة كلامية

كانت الطبيعة الصحراوية لموطن العرب الأصلي (شبه الجزيرة العربية) سببا في أن ما عرف عنهم من حضارة إنما نشأ على أطرافها، في الشمال حيث بلاد الرافدين، وفي الجنوب في اليمن، حيث تشكلت ثقافتهم كثقافة منقولة شفاهه، عبر إبداع اللغة، التي جاءت غنية بالمترادفات والمحسنات البديعية، وقليلا ما ظهرت آثارهم على الحجارة أو اللقى الطينية أو ما شابه.

وهكذا فإن أهم أثر، قبل القرآن للعرب كان ديوان الشعر، الذي كانت تفاخر به القبائل العربية فيما بينها، حيث كان يحتل الشعراء مكانة مرموقة، تصل إلى درجة أن يكون الشاعر الناطق بلسان قبيلته.

وفي الوقت الذي كانت فيه أمم شرقية تتميز بمهارات يدوية، ظهرت عبر ما أنجزته من حضارة، ساعدتها لاحقا، في العصور الحديثة، على إنتاج الأدوات التي تساعد على الحياة، كما هو حال الصينيين واليابانيين، كان العرب يبدعون في الخيال، حيث أفق الصحراء الممتد، وهذا ساهم في تشكيل شخصية عربية، تمتاز بالحدة والتهور، وتفتقر إلى لغة الحوار، الناجمة عن الاحتكاك والمثاقفة بين الأمم، وربما يعود هذا إلى أن الجزيرة العربية، كانت مغلقة على سكان الصحراء، الذين لم يتقنوا ركوب البحار، إلا قليلا.

وحين تقدم العرب إلى احتلال مكانة مرموقة بين الأمم، بعد ظهور الإسلام، استندت عقيدتهم إلى إعجاز لغوي، جاء به القران، ليؤكد هذه الميزة، حتى أن ممارسة العلوم في ظل الدولة العباسية، جاءت فعلا تقوم به الأقوام الأخرى، التي كانت ضمن حدود الدولة الإسلامية، فيما كان العرب يقومون بوظائف الإمارة والسياسة، ويستمرون في نظم الشعر.

ورغم امتداد حدود الدولة في العصور اللاحقة، وخروج العرب من موطنهم الصحراوي، إلا أن ارثهم الثقافي ظل يطبع الشخصية العربية، التي ظلت أسيرة سطوة المتخيل والنظري، من خلال استمرار النقل الشفاهي والعقلية الإيمانية، حتى أن أهم محطات صراعهم السياسي، استندت إلى محاججات فقهية، لها أساس لغوي، في معظم الاحيان.

ولا يكاد واقع العرب المعاصر، يشذ أو يختلف كثيرا عن ارثهم، حيث ظلت " بضاعة الكلام " هي اهم ما ينتجون، إلى أن ظهر النفط، الذي كان يمكن أن يشكل فرصة، أو محطة فارقة، تتحول بهم إلى أمة منتجة. لكن لميتحول النفط إلى صناعة. وحتى المدن الحديثة التي نشأت خلال العقود القليلة الماضية، على أطراف الصحراء كمدن ملح كما يصفها الروائي عبد الرحمن منيف، أو في مراكز الأرياف، تحولت إلى مدن استهلاكية، بعد أن عجزت الدولة الحديثة عن الدخول والمنافسة في دائرة الإنتاج العالمي.

أعفت عوائد النفط ملايين العرب عن القيام بالإنتاج بأيديهم، وفي الوقت الذي كان فيه العرب يشيدون المدن، ويستهلكون أحدث ما ينتجه الآخرون من كافة المنتجات الصناعية، كانوا يكتفون بدخول العصر الحديث، من خارجه، فيما بقيت بنية العقل وشبكة العلاقات الاجتماعية بما فيها الدولة، تنتمي إلى ثقافة قديمة متحجرة. لذا فانه ما أن انفتحت الحدود بين الأمم في عصر العولمة، حتى كان العرب يجدون أنفسهم مباشرة أمام ارث لا ينتمي إلى العصر الحديث بصلة، وهذا يفسر ردود فعلهم المتحفظة على صدمة الحداثة الكونية.

الفلسطينيون يعتبرون في هذا المجال نموذجا، ذلك أنهم ينتجون إنشاء كفاحيا، يظهر من خلال ما لديهم من مؤسسات عامة، نقصد الفصائل والأحزاب السياسية، التي تتعارك وتستعرض واحدتها أمام الأخرى قدراتها على التحريض العاطفي، ومن خلال ما لديها من ناطقين إعلاميين، وهي لا تنتج لا عبر مؤسسات خاصة ما تحتاجه من موارد ولا تعتمد في الغالب على شرائح محلية في تمويلها، لذا فإن المفارقة تشير إلى وجود الصحافة الجدارية والإعلام الشفاهي كأحد اهم أدوات هذه التنظيمات، في عصر ثورة الاتصالات!

وتبدو المفارقة كأوضح ما يكون، حين يصل حديث الاستقلال إلى ذروته، برفض التعايش مع المحيط الإقليمي ثم الكوني، في الوقت الذي يكاد فيه الفلسطينيون لا ينتجون شيئا، بل ويعيشون ومنذ عقود طويلة على المساعدات الخارجية. وهذا يظهر حالة من الانفصام بين الواقع والخيال، حيث يمتلك العرب مخيلة متخمة بالميتافيزيق. ومثل هذه الثقافة المتوارثة منذ سنين طويلة، تحد من قدرة العقلانية السياسية على أن تشق طريقها، وتقود شعبا يرزح تحت نير الاحتلال إلى طريق الخلاص.

الوعي الشفاهي

ساهم التدوين منذ القدم في حفظ الذاكرة وفي توارث خبرة وتجارب الأجيال فيما بينها، وبذلك جعل من مسيرة الإنسان مسيرة متصلة ومتواصلة، في سياق تاريخي من الارتقاء والتطور، الذي لولاه ما استطاع الإنسان في العصر الحديث أن يحقق هذا المستوى من الحياة المدنية، وهذا المستوى من الرفاه في العيش.

وربما شكل التدوين دافعا لاكتشاف الكتابة، بعد أن كان قد اكتشف اللغة باعتبارها أداة تخاطب بين الإنسان والآخر. وكما هو معروف ابتدأ التدوين بخط الرموز، ثم الإشارات وهكذا إلى أن تم التوصل إلى الحروف.

وارتبط التدوين بالحضارة، التي نشأت في القديم زراعية حول الأنهار العذبة، فيما كانت بعض الشعوب الأقل في درجة التحضر، ما زالت تتداول فيما بينها معرفة شفهية، غير مدونة، ومن هذه الشعوب، العرب، الذين عاشوا في شبه الجزيرة العربية، بين حضارات تناقلوا أخبارها، واحتكوا بها، لكن دون أن يصنعوا حضارتهم الخاصة بهم، حتى ما قبل ظهور الإسلام واقامة الدولة الإسلامية.

لذا فإنه من الصعب الحصول على أخبار العرب القديمة، أي تلك التي عاشوا قبل مئات السنين من ظهورالإسلام في مكة، فقبل ظهور الإسلام، لم يصل إلينا سوى بعض السير الشعبية والأشعار، خاصة المعلقات، التي تناقلتها الأجيال شفاهة، قبل أن يبدأ عصر التدوين في عهد الخليفة عثمان بن عفان.

ولعل لجوء العرب إلى إنتاج الشعر، كان فيه حيلة، حيث يمكن للشعر من خلال موسيقاه وإيقاعه وسهولة حفظه، أن يحفظ العرب من خلاله أخبارهم وأحداثهم، وهذا ما حدث في عصور لاحقة لكثير من السير الشعبية، التي حفظت كأساس للوعي والذاكرة الشعبية، بسبب نظمها الشعري.

منذ ظهور الدولة الإسلامية، أدرك العرب أهمية التدوين، وهذا ما دفعهم إلى "حفظ" أهم ما لديهم من تراث معرفي "القرآن الكريم" في عهد الخليفة عثمان بن عفان، فيما كانت الأحاديث النبوية، قد تعرضت إلى سلسلة من الرواة، الذين تناقلوا القول عن بعضهم بعضا وصولا إلى النبي الكريم، وهذاما أضطر الباحثين لاحقا إلى تصنيف الأحاديث من حيث درجة صدقها.

المهم في الأمر، أن المنطقة العربية، وحتى القرن العشرين، وبسب من احتلال عثماني متخلف، انتشرتفيها الأمية إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، بنسب كبيرة، ظلت تتناقل أخبارها شفاهة، مع ما يعنيه ذلكمن أمرين:

الأول– فقدان الخبر أو الرواية كثيرا من صدقيته التي كان عليها زمان ومكان حدوثه، من خلالتناقله من لسان إلى أذن.

الثاني– هو إعمال المخيلة، أي إعادة صياغة الخبر أو الرواية لدى كل ناقل، وتوظيفه بما يتناسب ومعتقداته أو حتى مصالحه، وهذا ما ظهر جليا لدى الفرق الإسلامية في توظيفاتها للأحاديث النبوية ذاتها.

وحيث أن الوعي الريفي، هو بالأساس وعي قدري، غيبي, فإنه على صعيد صياغته اللغوية، يعتبر وعيا إنشائيا، يفتقر إلى التحديد والتركيز الذي يظهر عليه الوعي المديني، لذا فإن الوعي السلفي ما زال حتى اللحظة يستعين بالشفاهية كوسيلة لنقل المعرفة بين الناس.

وقد لا يكون غريبا إلا لمن لا يعرف كنه هذه المنطقة، أن تكون الوسائل البدائية في نقل المعلومة، عبر الإشاعة والجدران ومآذن المساجد والمكبرات المتنقلة، في عصر الإنترنت والمحمول والفضائيات، أكثر قبولا وربما تأثيرا من كل ما ذكرنا من وسائل إعلام حديثة ! وما زال الناس هنا حتى الآن يعتمدون على " كلمة الشرف " أساسا للتعاقدات فيما بينهم فيما يخص كثيرا من الاتفاقيات من ديون وعقود بيع وشراء إلى عقود زواج، دون استخدام للورق والمواثيق المكتوبة، وتعتبر الكلمة التي يعطيها الرجل بمثابة عقد لا رجعة فيه مهما كلف الأمر، حيث لا سبيل للإنكار إلا بحلف اليمين.

يفضل أناس توارثوا لقرون طويلة كسلا فكريا ومعرفيا، أن يظلوا خارج وعي الحداثة، وما بعدها، حيث يفضلون الاستمرار في إنتاج الوهم والعيش بين خيوط الأساطير القديمة، على مواجهة استحقاقات العصرالحديث التي تتطلب منهم بالذات، تجاوز كل الزمن الذي تخلفوه عن الآخرين.

تيار المستقبل
فارس أحلام سياسي

إزاء حالة الاستقطاب الثنائي، التي يشهدها الواقع الفلسطيني ما بين قطبين، يكثر الحديث ومنذ وقت، في أوساط المثقفين والأكاديميين والتكنوقراط، وغيرهم، عن ضرورة تشكيل تيار ثالث، يقوم بمهمة إحداث حالة التوازن بين القطبين الكبيرين: التيار الوطني والتيار الإسلامي، يكون ذا بعد ديمقراطي.

وأسهل الحديث عن هذا التيار، يجيء تلقائيا عبر القول أو البحث في أساليب وأشكال الجمع السياسي بين قوى وأحزاب وفصائل سياسية، عدت ديمقراطية، خلال العقود الماضية، وهي خارج الإطار التنظيمي لكل من فتح وحماس.

وقد بذلت جهود عديدة بالفعل في سنوات خلت، من اجل التوصل إلى هذه النتيجة، عبثا ودون طائل. ولم يكن بتقديرنا السبب يعود بالأساس إلى ما تشكلت عليه هذه القوى والفصائل المسماة بالديمقراطية، من تعصب تنظيمي فيما بينها، رغم وجود ملامح عديدة من التشابه الأيديولوجي والتنظيمي في برامجها.

ما يغفل عنه المهتمون بهذا الشأن، هو أن كل القوى السياسية الفلسطينية الراهنة، إنما هي أسيرة ظروف تشكيلها. وباتت بعد أربعة عقود تخضع لارث سياسي وتنظيمي يحول دون أن تكون قادرة على الاستجابة لمتطلبات الواقع المتحركة والمتجددة. وهذا ما كنا قد تناولناه في مقال سابق في هذه الصحيفة.

غني عن القول بان مجموعة الفصائل السياسية، التي يتطلع إليها بعض الحالمين بنشوء تيار ثالث، قد تشكلت كفصائل يسار، ضمن التيار الوطني، وأنها عجزت عن القبض على زمام المبادرة، حين كانت الظروف الإقليمية والدولية مواتية، في ظل وجود معسكر اشتراكي دولي، ودول داعمة لها إقليميا، بما يشير إلى استحالة أن تتحقق الآن، في ظل ظرف مختلف ومفارق.

وفي الحقيقة فان وجود هذه القوى، قد يجمل صورة الديمقراطية الفلسطينية الناشئة، من حيث الإشارة إلى وجود التعدد السياسي، لكنه لا يحقق الديمقراطية السياسية والمجتمعية بمعناها الواسع والشامل. ذلك أن التعدد السياسي في الواقع الفلسطيني، ظل أسير التباينات في المواقف السياسية، في إطار جدل النخبة. ولعل تجربة العام الذي مضى لتوه خير شاهد على ما نذهب إليه.

فعلى جانبي الموقف السياسي المركزي، نقصد العملية السياسية المرتبطة بجوهر الحل السياسي، انقسمت الفصائل الفلسطينية بين مؤيد لأوسلو ومعارض لها، بغض النظر عن محتواها الفكري والأيديولوجي، وقد انقسمت قوى اليسار بالذات، التي يتوقع البعض أن تشكل تيارا ثالثا، بين قطبي المعادلة: السلطة الناجمة عن أوسلو ومعارضتها الإسلامية.

وحتى تجربة حكومة حماس، انحسر الجدل خلالها ضمن المستوى السياسي، حول كيفية التعامل مع الحصار،ولاسباب أخرى، لم تجد حكومة حماس الوقت للتعامل مع الوضع الداخلي، حيث كان من المتوقع أن تقدم على إصدار مجموعة من القوانين التشريعية التي تذهب إلى اسلمة المجتمع، حينها كان يمكن لقوى اليسار أن تجد ما يجمعها، وحتى ما يميزها عن القطبين المركزيين.

يبقى السؤال الجوهري، المرتبط بضرورة نشوء تيار ثالث، هو طبيعة النظرة إلى التحولات الإقليمية والدولية، ورؤية التحقق الفلسطيني ضمن هذه التحولات. فإذا كان التيار الوطني بيمينه ويساره يجاهد من اجل البقاء ومن اجل منع انهيار الحالة الوطنية التي قام بإنشائها قبل أربعة عقود، وحدد لها هدف إقامة الدولة الوطنية المستقلة. وإذا كان التيار الإسلامي يتطلع إلى حرف وجهة التغيير باتجاه حالة الممانعة الإقليمية. فإن الحلقة الناقصة هنا تتمثل في عدم الاستجابة لضرورة التقدم باتجاه المستقبل، الذي يتشكل في سياقات العولمة الكونية وترتيباتها العالمية والإقليمية.

وإذا كان التيار الإسلامي يجد السبيل إلى تحققه، بعزل مجتمعه عن المحيط، اللهم إلا ما يقوم بانتقائه من هذا المحيط، أي التقاطع مع نموذج الممانعة، المنغلق على ذاته أيضا، للحفاظ على مكتسبات النخبة الحاكمة على المستوى الداخلي: سوريا وإيران. فان التيار الوطني ينفتح على الخارج أيضا بما لا يتجاوز دول الجوار، التي تشكل نظاما قائما منذ عقود يجاهد للحفاظ على مكانته بالانفتاح "المحسوب" وضمن حدود السيطرة والقدرة على التحكم.

التيار الثالث الممكن والذي يحمل إمكانية التحقق، هو تيار المستقبل، الذي يشبه فارس أحلام سياسي، لا يتشكل ضمن دائرة النخبة السياسية، وعلى أساس البرنامج السياسي، بل من رحم التحول المجتمعي، وعلى أساس برنامج اجتماعي له إطار سياسي، وبمحتوى ليبرالي، ينفتح على العالم، وعلى التحولات الإقليمية والدولية، ويستند إلى اقتصاد وطني (داخلي)، ويعتمد في تشكيله على رجال الأعمال والتكنوقراط، السياسي والمهني في كافة المجالات.

وقد لامس الواقع الفلسطيني في أزمته الراهنة هذه الحاجة، لكنه لم يستطع أن يفرضها بسهولة، لان الوصول إليها، كان وما زال بحاجة إلى قاعدة شعبية والى حركة سياسية، تقوم بالكفاح من اجل فرض حضورها.

ثقافة النظام الأبوي

تستند معظم الحركات السياسية الأصولية في العالمين العربي والإسلامي، على ما يمكن تسميته بأخلاق" السلف الصالح " وتعتمد في تجنيد أنصارها إلى ثقافة كانت سائدة في المنطقة منذ قرون طويلة، دون أن تقوم بفعل التدقيق والتمعن في المنظومة الفكرية، التي تعتبرها مرجعية لها ولتنظيماتها.

وبالطبع فان أول ما يلاحظ هو الانتقائية في عملية الاختيار من منظومة الأفكار، وذلك نظرا إلى ان التراث الذي يتم الانتقاء منه، انما يمتد حقبا طويلة، تعددت خلالها الاجتهادات والأفكار، وهذا يمنح الحركات السياسية القدرة على ان تختار ما يناسبها وفق الظرف واللحظة، ولا ضير من أن تقوم بإسناد مواقفها بمقولات أو مواقف مشابهة "للسلف الصالح"!

يلاحظ كذلك أن الفكر السياسي الأصولي | السلفي، يقفز عن حقيقة توزع المسلمين شيعا ومذاهب، ما زالت تجلياتها قائمة حتى الآن، وهذا يعني بأن التبشير بالعودة إلى غابر الأزمان، يرتدي قدرا كبيرا من الخيال المحبب، ذلك أن الخلافات والاختلاف التي هي سمة الحياة، والتي كانت قائمة في ما مضى، تتجلى الآن أيضا في تعدد الحركات السياسية ذاتها، رغم انتمائها كمرجعيات فكرية | أيديولوجية واحدة.

يلاحظ كذلك الخلط بين ما هو ديني | لاهوتي وبين ما هو دنيوي | تراثي. وهذا يسحب بساط القداسة من النص إلى الأفراد، بما ينسجم مع مخلفات ثقافة النظام الأبـوي، حـيث الطـاعة واجـبة، وحيث ثـقافة التلقين ونظام التراتب التنظيمي.

وفق هذا النظام تتكرس الفردية، وتنتفي تقاليد العمل الجماعي، وحتى المؤسساتي، بحيث نجد أنفسنا أمام منظومة تتكون من أمير وابتاع، الأول يلقي الأوامر، والآخرون ينفذون، ومثل هذا النظام لا يتنافى وحسب مع طبيعة العصر، وانتشار الديمقراطية السياسية والاجتماعية، لكنه أيضا يتنافى مع مجموعة القيم التي انتشرت في صدر الإسلام.

لا بد من القول بأن اعتماد معظم الحركات السلفية|الأصولية، على أفكار فقهاء مقدمين كإبن حنبل، ثم خلط تلك الأفكار مع تراث الدولة الإسلامية المتعاقبة وصولا إلى نسختها الأخيرة (العثمانية)، وضعها أمام فكر مختلط، ليس بعيدا فقط عن أفكار الصحابة، ولكن أيضا هو ما يسمها بطباع التزمت والتشدد.

وكما قال المفكر البحراني محمد جابر الأنصاري، فان هؤلاء المحدثين إنما هم ورثة العثمانين وليس الصحابة، فإن ذلك يفسر انتفاء الاجتهاد وإعمال العقل، رغم ما يسمونه بالصحوة الإسلامية، أي رغم هذا الانتشار الواقع للفكر السلفي، إلا انه يلاحظ أدنى جهد من الاجتهاد والعلم حتى في الفقه نفسه ن فضلا بالطبع عن العلوم الأخرى.

السؤال الجوهري هنا، أنه حتى لو افترضنا جدلا بأن كل ما تطرحه الحركات السلفية من أفكار ينتسب حقا للسلف الصالح، مع ملاحظة بأنه ليس كل السلف صالحا وليس كل الخلف طالحا، وأن هذه الأفكار كلها صحيحة، فهل يعقل حقا أن يتم تطبيق هذه الأفكار على الناس بعد أربعة عشر قرنا من الزمان، دون أخذ المتغير الزمني في الحسبان؟

وهل يعقل حقا أن تنم الإجابة على سؤال الديمقراطية بالشورى؟ مع أن الذي أسقط نظامها هو الدولة الإسلامية ذاتها، حين انتقلت في عهد معاوية مؤسس دولة الأمويين, وفي ظل مذهب الأغلبية الإسلامية (السنة), من دائرة الدين إلى دائرة الدنيا، حين جعل الملك وراثيا؟

لا بد من القول بأنه مهما كان عهد السلف عظيما، فانه لا يمكن لامة من الأمم أن تقدم دون أن تقوم بمراجعة ارثها والتقدم في تراثها، حتى لا تذوب بفعل السكون.

رام أف، أم: العولمة في فلسطين

انطلقت من رام الله، قبل بضعة أيام أول إذاعة ناطقة باللغة الإنجليزية في فلسطين، يعمل فيها طاقم متعدد الجنسيات، وذلك بهدف الالتزام بالتعبير عن كافة مستمعي الإذاعة.

تستجيب مثل هذه المحطة الإذاعية للمستحدث العصري من روايتين، أولهما هي الاعتماد على فريق من الصحفيين، متعدد الجنسيات، بما يخلق تفاعلا في الخبرات والثقافات فيما بينهم، من جهة، ومن جهة ثانية، يقترب هذا مما تخطو إليه البشرية بثبات من تجاوز للقوميات على طريق العولمة. وثانيهما اعتماد اللغة الإنجليزية، وهي لغة العولمة أيضا، لغة لها، بما يوحي بأنها تجيء كمحاولة للدخول على لحظة ما بعد الحداثة الكونية في هذه المنطقة من العالم.

وقد لا يكون الدخول في عصر العولمة ضرورة لشعوب هذه المنطقة، مثل باقي الشعوب وحسب، بل وقد تضاعف أهميتها، نظرا لما يعتريها من صراع سياسي، يمكن أن يكون الذهاب عن طريق ما يترافق والعولمة من تجاوز للفوارق والحدود بين القوميات، ما يساعد على حل هذا الصراع، أو على الأقل التخفيف من حدته.

وحيث أن درجة التداخل والتفاعل، وتجاوز الحدود، وارتفاع مستوى الاتصال والتواصل، في عصر العولمة، بعد ثورة الاتصالات تتطلب اعتماد لغة عالمية، بين الشعوب والقوميات مختلفة ومتعددة اللغات، فان يوما بعد يوم، تتأكد مكانة وأهمية اللغة الإنجليزية، وتأهيلها لتكون لغة العولمة، أو لغة العالم في عصر العولمة، وهكذا فإن نشر هذه اللغة وتعميمها، عبر وسائل الاعلام، الأمر الذي تفعله ـ الاذاعه المشار إليها- يعتبر فعلا في الاتجاه الصحيح، الذي يساعد الفلسطيني على الدخول في العصر الحديث.

هذا الدخول الذي لا بد منه، الذي يبدو ضروريا لغاية، حتى يجد الفلسطينيون مكانا لهم في هذا العالم، خاصة وانهم من الشعوب القليلة التي لم تحقق حتى اللحظة استقلالها الوطني، ويمكنها من خلال المشاركة والتواصل مع الشعوب الأخرى أن تجد مكانتها اللائق بل والاعتراف العالمي بهم كشعب تليق به الوحدة القومية والتحرر من الاحتلال.

فلقد باتت التكنولوجيا وأساليب الكفاح الديمقراطي والمدني وسائل العصر في انتزاع حقوق الأفراد والجماعات، وذلك مع انتشار المنظمات غير الحكومية وتصاعد دورها وتأثيرها في المجتمعات المحلية وفي المجتمع الدولي، كذلك مع ثورة الاتصالات، حيث

لم يعد بمقدور قوه احتلاليه أو قوه قهر أو قمع أن تقوم بفعلها المرفوض إنسانيا، دون إثارة الناس في كافة أنحاء الأرض، وهذا ما ظهر جليا عند احتلال العراق على سبيل المثال والمتوقع أن يتصاعد حتى تصل حالة التعاضد الإنساني درجة متقدمة، لا تقبل فيها شعوب الأرض قاطبة قيام أية قوة باضطهاد أو قمع أية مجموعة بشرية في أي مكان من العالم.

وما دامت الدولة الفلسطينية لم قم حتى اللحظة، فان قيامها الذي سيكون في المستقبل، لا بد أن يلحظ مواصفات هذا المستقبل، حتى يكون ممكنا قيام هذه الدولة، وإلا فان قوانين التقدم، والاداره الدولية ستحول دون ذلك، ومن مصلحة الفلسطينيين، أن تكون دولتهم جزءا من نظام إقليمي وكوني، حتى تضمن عوامل التحقق والبقاء، وإلا فإنها ستكون دربا من المستحيل، وحاجة مستعصية على التحقق.

سبب واحد يكفي

لم تكن غزة بحاجة إلى أن يغرق بعضها في المياه العادمة، حتى يدرك أهلها، بأن أوضاعهم صعبة، ولم نكن بحاجة قبل ذلك، إلى أن نغرق في الدم، لتصحو من ذهولها على حرب الاخوة/ الأعداء، الذين تقاتلوا من أجل سلطة محدودة.

ولو كانت النخبة تصدق عامة الناس القول، لكان الحال غير الحال، ولقال الكتاب والصحفيون والمثقفون، بل وربما بعض السياسيين لعامة الناس، بأن عليهم أن يفعلوا الكثير، حتى يديروا شؤون حياتهم، كما يجب وكما يليق بالبشر في القرن الحادي والعشرين.

نظلم غزة، حين نتركها لقدرها، ولقوة الدهماء، وحاملي البنادق يقررون مصيرها بجملة من الشعارات الفارغة، ونظلم كل الفلسطينيين، حين نجعل من جزء من الوطن، شاء له القدر السياسي أن يكون أول ما ينحسر عنه الاحتلال، عنوان لهم، أو خلاصة لتاريخهم الطويل.

تكاد الفوضى تخترق كل مسامات الجسد المنهك، في هذا الشريط الساحلي، حيث يعم التزمت وينتشر التشدد، وتعود أحوال الناس إلى الوراء كثيرا، فأي مثال قدمته غزة بعد أن خلت من الاحتلال – تقريبا – منذ عام ونصف بدل أن يشمر الرجال والنساء عن سواعدهم، ويقوموا بتشييد ما تهدم من منازل بفعل الاحتلال، وزراعة ما تم تجريفه من مزارع وبساتين، وبدل أن يقوموا بمعالجة ما أنتابهم من متاعب نفسية، أو ما انتصب حائلا بينهم وبين لغة العصر من حداثة، ويندفعوا إلى إعادة بناء وطنهم وليؤكدوا لأنفسهم قبل غيرهم جدارتهم بالحياه من غير احتلال، انكفأ الفلسطينيون في قطاع غزة على أنفسهم، وما عاد بمقدورهم أن يعلقوا أسباب عجزهم وضعفهم ومشاكلهم على الاحتلال، رغم أنه قد يكون موجودا وراء الكواليس وفي خلفية المشهد المسرحي.

وبعد أن جربوا فتح عشر سنوات في السلطة، وعلقوا على سوء إدارتها سوءاتهم، جربوا حماس لمدة عام، ليتبين لهم أنها أعجز من أن تصلح الحال، وهكذا فإن حماس وفتح اللتين تشكلان معا أكثر من ثلاثة أرباع الفلسطينين، لا بد لتجربة الحكم معهما أن تؤكد بأن الفلسطينين ليسوا ملائكة، بل وانهم بحاجة إلى أن يعترفوا بأن لديهم مشاكل حقيقية، لا علاقة لها بالأرض، بل بالإنسان ذاته.

لقد حول الجهل والتخلف، قطاع غزة إلى جحيم، ليس للفلسطيني وحسب، بل ولكل من تطلب منه مهنته أو دافعه الإنساني لان يقيم فيها، أو أن يمر عبرها، وكأن مجموعات المسلحين هنا قد تحولت إلى قطاع طرق تسرق وتقتل وتخطف، بهدف السلطة والثورة والمال وليس بعيدا اليوم، إن سارت الأحوال هكذا، الذي تعتبر فيه غزة قندهار ثانية، أو مقديشو أخرى.

هناك ألف سبب وسبب يدعو من يقيمون هنا – في غزة – إلى الرحيل، لكن مجرد وجود واقع واحد، يبرز التفاؤل يكفي لأن نبقى فيها، فهي أولا وقبل كل شيء وطننا الذي لا وطن لنا سواه، ولهذا ولأجل هذا فقط، فإننا، مدعوون لأن نشمر عن سواعدنا ونشرع على الفور بإعادة بناء ما دمره أولا الاحتلال، ثم الجهل والتخلف والتزمت, وإعادة ترميم ما تهتك من ثقافة متحررة، وأن ندفع بكل ما أوتينا من قوة إلى دفع عربة هذا الوطن، للسير على طريق العولمة، والالتحاق بركب العصر الحديث.

عالم مؤنث

رغم أن الكفاح الكوني من أجل العدالة والمساواة بين البشر دون تميز لم يتوقف بعد، ورغم انه لم يحقق، بل لم يقترب كثيرا من تحقيق الهدف المنشود، إلا أنه يمكن القول بثقة بأنه قد تم تحقيق مستوى متقدم من الإنجاز، بعد الألفية الثالثة، مقارنة بما كان الحال عليه في القرون الماضية، بل والى وقت حدوث الحرب العالمية الثانية.

وإذا كان من أثر مباشر لتقدم حالة العولمة على المستوى الكوني، فانه كان من شأن ثورة الاتصالات المعاصرة، أن تفتح المجال واسعا أمام حالة التفاعل الإنساني بين الشعوب والإفراد، بما وفر الفرصة خاصة لمجتمعات الأقل تطورا، لان تحقق تقدما ملحوظا على صعيد قضايا الديمقراطية والمساواة بين الرجل والمرأة، والتي كانت من القضايا الصعبة للغاية، وكانت كثير من المجتمعات في المحيط الكوني، وعلى أطرافه، تلوذ وراء جدار المواجهة الكونية في الحرب الباردة، لصد عملية التقدم على طريقها.

وبقدر ما كانت المجتمعات القديمة قاسية في قهرها للإفراد، كانت هذه القسوة تتجلى كأوضح ما تكون في التعامل مع المرأة التي كان يتم إقصاؤها بالكامل، في مجتمع بالغ الذكورة، بحيث كان يقع عليها واقع من القهر المركب، المتعدد المستويات.

في السنوات الأخيرة بدأت قضية المرأة، ارتباطا بالتطور المجتمعي على مستوى الكون بأسره، وارتباطا بكفاح المرأة ذاتها، داخل مجتمعاتها، تحقق إنجازات متواصلة ومتصلة، كان من نتيجتها ارتقاء مستوى التأثير السياسي والاجتماعي للمرأة في العديد من المجتمعات، وعلى مستوى الخريطة الكونية بأسرها.

وربما كانت درجة مشاركة المرأة في مستويات صنع القرار، أكثر وضوحا على مستويات النخب السياسية والثقافية،أكثر منها على المستوى المجتمعي الذي يتيح لها المجال باحتلال نصف مساحة الفعل، استنادا إلى حجم تمثيلها.

لكن ظاهرة تزايد حضور المرأة وتأثيرها على هذه المستويات، يكاد يشير إلى ظاهرة تحول في المحتوى الذكوري للمجتمع البشري.

فتزايد ظاهرة التأنيث ربما تشير إلى توق بشري إلى التخفيف من وطأة الذكورة وقسوتها التي حكمت العالم على مدى مئات بل وآلاف السنين، لا لتقدم اعتذارا واجبا تجاه نصف المجتمع البشري، ولكن أيضا لتجعل هذا المجتمع أكثر رحمة وقبولا وقدرة على الاحتمال.

وإذا ما قدر خلال الأعوام القليلة القادمة، لعدد من المرشحات من النساء لاحتلال المواقع القيادية الأولى في عواصم القرار الدولي، فانه يمكن لعالم الغد أن يكون أكثر احتملا، ولو من الناحية الرمزية على الأقل.

نشير بذلك إلى فرص فوز السيدة سيجولين رويال في سباق الرئاسة الفرنسية، والسيدة هيلاري كلينتون في سباق الرئاسة الأمريكية، مع الإشارة إلى وجود عدد من النساء في مواقع قيادية متقدمة في دول الغرب، والشرق في آن معا.

أما على صعيد الشرق العربي، وإذا كان من المبكر جدا، الطموح بوصول السيدات إلى سدة الحكم، فانه لا بد من الإشارة إلى تقدم النساء على صعيد الفعل الثقافي، حيث تكفي الإشارة هنا، إلى أن أهم تقدم تم إنجازه على صعيد المنجز الروائي، منذ عقد ونصف انما يتمثل في الإضافة الروائية التي أضافتها الروائيات من النساء العربيات، اللواتي تحققن هذه المرة بفعل تميزهن الفني/ التقني، وليس بحكم التعاطف مع جنسهن، ولأنهن قمن بالتعبير عن أنفسهن وعن بنات جنسهن مباشرة، دون واسطة الرجل، وفعلن ذلك بلغة غير ذكورية، وبمخيلة أنثوية، كانت الثقافة العربية تفتقدها على مر العصور.

وعلى الصعيد الفلسطيني، يمكن الإشارة إلى إضافة السينمائيات الفلسطينيات من منجز ثقافي بالغ الأهمية إلى تاريخ السينما الفلسطينية الحديثة الوليدة، من خلال إخراج العديد من الأفلام الوثائقية والروائية، التي لم تقتصر على معالجة قضايا المرأة الفلسطينية وحسب، بل وأثبتت من خلال قدراتهن الاحترافية على فاعلية ثقافية/ مجتمعية، تؤكد أن المساواة باتت تشكل أحد مفاتيح الحرية بالنسبة للشعوب المضطهدة والواقعة تحت الاحتلال.

مظاهر طالبانية في فلسطين

رغم أن حركة طالبان قد فقدت الحكم في أفغانستان، منذ سنوات، إلا أن ما فرضته على المجتمع الأفغاني خلال سنوات حكمها الخمس، تحول إلى مظاهر، تسعى مجموعات متفرقة في أكثر من مكان إلى تطبيقها والحذو حذوها، خاصة في تلك المناطق التي تشهد فراغا أمنيا، وتعتبر مناطق توتر واقتتال يومي.

وربما كان ارتباط تنظيم القاعدة بطالبان في أفغانستان، ما برر لمجموعات من الشبان العرب، أن تتمثل فكرها، من خلال ما يسمى بالخلايا النائمة، التي رأت في أسامة بن لادن ورفاقه نماذج بطولة تتشبه بها، وتحسب نفسها عليها، حتى دون أن تتصل بها، مستفيدة في ذلك مما وفرته ثورة الاتصالات، عبر انتشار الفضائيات وشبكة الإنترنت، من سهولة في الاتصال ونشر الأفكار التي يمكنها أن تصل إلى أي مكان، مهما بدا بعيدا ونائيا.

لذا فإن المظاهر الطالبانية في بعض الأماكن العربية، استندت إلى تحالف العنصر العربي مع العنصر الإسلامي، في النموذج الأفغاني، خيطا أيدلوجيا، ينظم فكرها وسلوكها، وبعد ما أحدثته القاعدة في 11 سبتمبر من صدمة سياسية، فان أفرادا من الشباب العربي المقهور من جهة، والذي انسدت أمامه آفاق التحقق والحضور في عالم ما بعد الحداثة، رأى في القاعدة معادلا نفسيا يحقق له كرامة مهدورة، أو عزا قوميا غير متحقق. وهذا يذكر بجماعات كانت قد ظهرت في مراحل الانتقال من عصر لاخر، ما بين الحربين الكونيتين، الأولى والثانية. كما يذكر بجماعات ظهرت في أوروبا، ومازال بعضها يظهر بين فينة وأخرى، ردا على ما يعتبره هدرا لكرامة قومية، في ظل هيمنة أمريكية.

وإذا كانت طالبان وحليفتها القاعدة، قد جاءت من بعيد، أي بعد أن نجحت فصائل المقاومة الأفغانية في تحرير أفغانستان من الاحتلال السوفيتي، لتضع يدها على الحكم وبعد تقاتل هذه الفصائل فيما بينها، فان ما تركته من "تراث"، قد انحصر في المظاهر المتشددة التي حكمت بها المجتمع، وسعت من خلالها، وربما كرد نقيض، لكل مظاهر العولمة، للعودة إلى الوراء، في محاولة لتمثل حياة البداوة الأولى، التي كانت عليها الدولة الإسلامية الأولى.

وهكذا فان الفكر الطالباني يقوم على أساس الفصل التام والمطلق مع كل مظاهر الحضارة الحديثة، على اعتبار أنها منجز غربي، ارتبط بصورة الاستعمار الأوروبي ثم الأمريكي. فيما تستند تطبيقاته إلى تجاوز ما يعتقد أيضا انه سلوك غربي، أي المسار الديمقراطي للتحولات المجتمعية، والتبدلات السياسية. لذا فان الجماعات التي تؤمن بهذا الفكر، إنما تتشكل في الخفاء، أي خارج إطار التجمعات الشعبية، ودون المرور، في سعيها إلى السلطة، أو إلى فرض " نموذجها " في إقامة الدولة، عبر صناديق الاقتراع.

وكانت محاولة إقامة " دولة " طالبانية في الفلوجة العراقية نموذجا ثانيا لدولة طالبان، ثم إعلان الدولة الإسلامية في الانبار، استنادا إلى حالة الفوضى والفراغ الأمني الناجمة عن إسقاط النظام المركزي، بعد احتلال العراق.

وكما رأى تحالف طالبان/ القاعدة في المقاومة الإسلامية، مرحلة أولى لإحداث التحول، فإن المجموعات المتأثرة بفكرها وثقافتها، ما زالت ترى في الحركات الإسلامية المقاومة، ثم تلك التي تشارك في النسيج المجتمعي، عبر الانخراط في العملية السياسية الداخلية، والتعامل مع النظام القائم، بما في ذلك المشاركة في الانتخابات، ترى فيها حركات معتدلة، قد تكون حليفة، لكن من بعيد، وبشكل مؤقت.

وهكذا فإن الجماعات الطالبانية، سرعان ما ترى في إشاعة ثقافة اسلمة المجتمع، وحالة الفوضى مدخلا للتقدم باتجاه إقامة سلطتها، أيا كان مستوى هذه السلطة. وهذا ما بدأت ملامحه في الظهور، في غير مكان في فلسطين: في الضفة الغربية وقطاع غزة.

هذه الجماعات تركز على إعادة ترتيب الأوضاع الداخلية، بعد أن تركت أمر المقاومة كجهد رئيسي لغيرها من حركات المقاومة الإسلامية، حيث باشرت على الفور، وفي أي مكان يظهر فيه انحسار نسبي للاحتلال، بالإعلان عن وجودها وحضورها، بما يمس الحقوق الأساسية للإنسان، دون الاهتمام بالتعبير عن فكرها عبر الشكل الديمقراطي، ولا حتى القانوني، بسبب غياب سلطة القانون، بل وحتى القواعد الأساسية للسلطة المركزية.

أساس التحول الذي تسعى إليه هذه الجماعات، هو تحويل الفرد نفسه، قبل الشروع في تحويل المجتمع، ولا يتم ذلك بالدعوة الحسنة، بل باستخدام قوة القسر والإرهاب. وقد بدأت في الظهور فعلا بعض السلوكيات عن هذه الجماعات، من خلال استهداف المهرجانات الفنية، وبعض الأماكن التي تعتقد أنها "للهو"، مثل محلات الإنترنت وبيع أشرطة الكاسيت، وصولا إلى محاولة فرض السلوك المتزمت على المرأة، بحرق وجهها بماء النار، تحت ذريعة أنها متبرجة. هذا ناهيك عن بعض مظاهر قمع حرية الرأي من خلال الاعتداء على بعض الإذاعات المحلية ومحطات التلفزة، كذلك التعرض

للصحفيين، مواطنين أجانب، بالخطف أو الضرب أو الاعتداء، ثم القيام فعلا بعمليات اغتيال في وضح النهار لشخصيات وكوادر حزبية أو أمنية على خلفية الاختلاف في الرأي والانتماء.

المحتويات

مقالات عن اتحاد الكتاب..... 6

مقالات ثقافية نشرت بجريدة الأيام..... 33

مقالات نشرت في مواقع مختلفة:..... 99

مقالات نشرت في أحوال البلاد 2017-2018..... 118

مفتتحات أسبوعية الدار..... 174

مقالات نشرت باللغة الأنجليزية..... 198

المحتويات..... 227

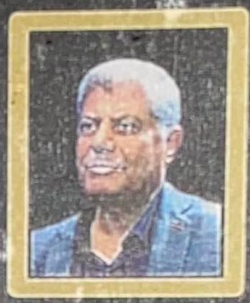

الأعمال الكاملة
مقالات ثقافية (1)
رجب أبو سرية
ـ اتحاد الكُتاب
ـ مقالات الأيام
ـ مختلفات
ـ أحوال البلاد
ـ مفتتحات الدار
ـ فلسطين الديمقراطية
ISBN 978-9950-414-67-9
9 789950 414679
للنشر والتوزيع

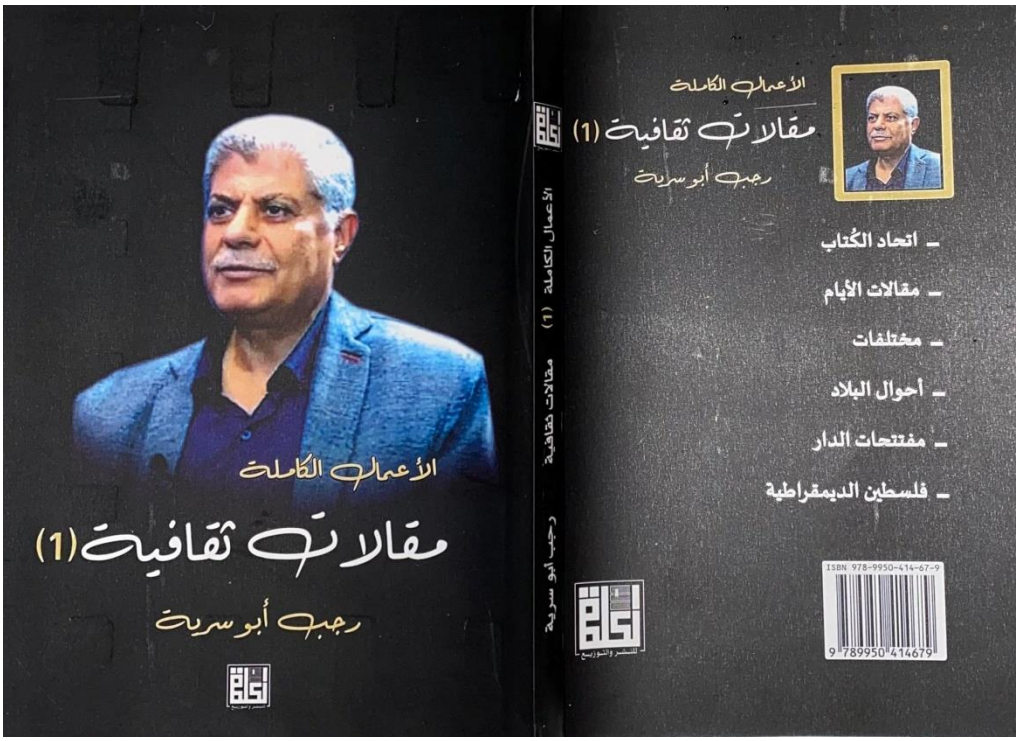
الأعمال الكاملة
مقالات ثقافية (1)
رجب أبو سرية
الأعمال الكاملة
مقالات ثقافية (1)
رجب أبو سرية
ـ اتحاد الكُتاب
ـ مقالات الأيام
ـ مختلفات
ـ أحوال البلاد
ـ مفتتحات الدار
ـ فلسطين الديمقراطية
ISBN 978-9950-414-67-9
9 789950 414679